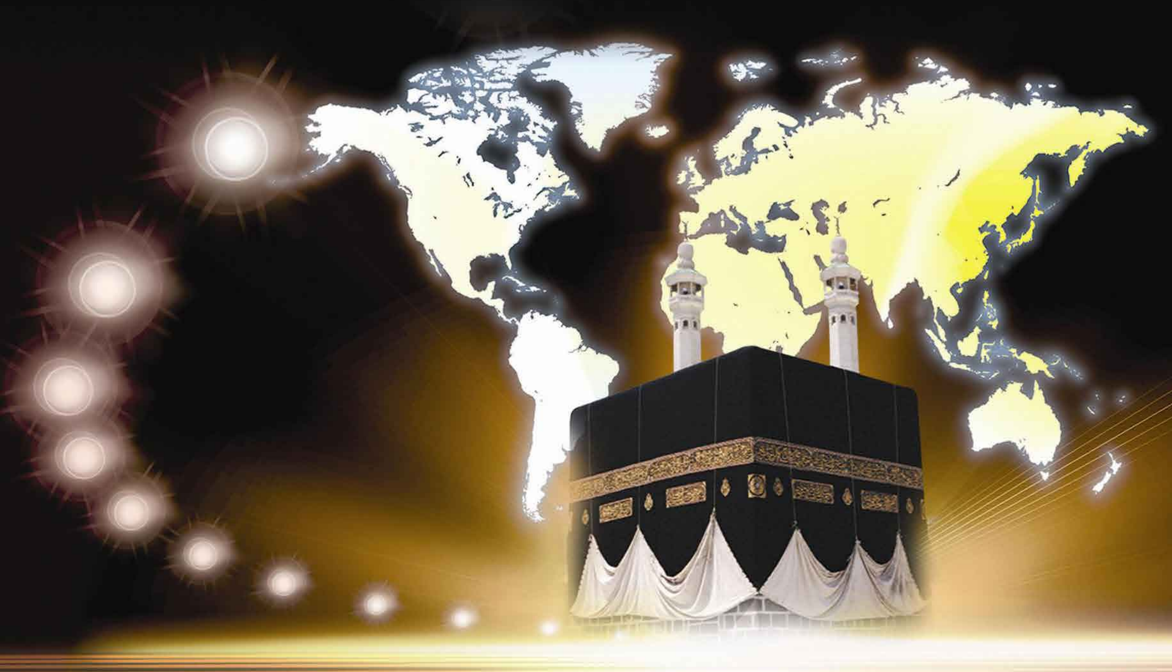
كنوز السيرة



بقلم
عثمان بن محمد الخميس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

فالحمد للَّه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأسبغ على أوليائه نعمه ظاهرة وباطنة، وبعث فيهم رسولًا من أَنْفُسِهم مولداً، ومن أَنْفَسِهم عجماً وعرباً، وهو أمينه على وحيه وخيرته من خلقه وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم والنهج المستقيم أرسله اللَّه رحمة للعالمين وإماماً للمتقين وحجة على الخلائق أجمعين.

أرسله اللَّه على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعزيره وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه وسدّ دون جنته الطرق فلن تُفتح لأحدٍ إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع

له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصّغار على من خالف أمره، وهو أرجح الناس عقلًا وحلماً، وأوفرهم علماً وفهماً، وأقواهم يقيناً وعزماً، وأشدهم بهم رأفة ورحمة، وزكّاه روحاً وجسماً، وآتاه حِكمة وحُكماً، وفتح به أعيناً عُمياً، وقلوباً غُلفاً، وآذاناً صُما.

إن اللَّه سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق، والاختيار من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال جلّ جلاله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] .

فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه، والناس بين مستقلّ ومستكثر، والفضل بيد اللَّه يؤتيه من يشاء.

نسأل اللَّه بمنّه وكرمه وعظيم نوْله أن نكون من أتباع هذا النبي الكريم ظاهراً وباطناً، آمين آمين آمين.

قال القاضي عياض عن منزلة رسول اللَّه ﷺ عند ربه: لا خفاء على من مارس شيئاً من العلم، أو خُصّ بأدنى لمحةٍ من فهم بتعظيم اللَّه تعالى قدْر نبينا عليه الصلاة والسلام وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لزمام، وتنويهه من عظيم قدره بما تكلّ عنه الألسنة والأقلام، فمنها ما صرّح به تعالى في كتابه ونبّه به على جليل نصابه وأثنى عليه من أخلاقه وآدابه، وحض العباد على التزامه، وتقلّد إيجابه، فكان جلّ جلاله هو الذي تفضّل

وأولى، ثمّ طهّر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءاً وعوداً، والحمد أولى وأخرى، ومنها ما أبرزه للعيان من خلْقه على أتم وجوه الكمال والجلال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة والأخلاق الحميدة والمذاهب الكريمة والفضائل العديدة وتأييده بالمعجزات الباهرة والبراهين الواضحة والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره ورآها من أدركه وعلمها علم يقين من جاء بعده ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ أُتي بالبراق[1] ليلة أُسري به، فاستصعب عليه فقال له جبريل: أبمحمدٍ تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على اللَّه منه، فارفض عرقاً. أخرجه الترمذي[2]. وقال تعالى عن نبيه ﷺ منوهاً بفضله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فجاءت قراءة ﴿من أنْفُسِكُم﴾، وقراءة أخرى «من أَنْفَسِكم»[3]. وقال جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤] ورفع الذكر للنبي ﷺ بالنبوة، وقيل بشهادة التوحيد، وقيل بالأذان، وكلها لا شك من رفع الذكر. وقال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] والصلاة من اللَّه ثناءٌ على

---

(١) البراق: الدابة التي أُسري بالنبي ﷺ عليها من مكة إلى بيت المقدس.
(٢) (٣١٣١).
(٣) وهي قراءة غير متواترة، أي: من أشرفكم وأرفعكم وأفضلكم.

النبي ﷺ. وقال جل ذكره: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾. وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣] وغير ذلك كثير.

وإن الحديث عن سيرة النبي الكريم ﷺ يبعث في النفس الحياة، ويعيد لها الأمل، وذلك أن من يقرأ سيرة سيد المرسلين يقرأ الدعوة إلى الحق، والصبر فيها، ولها، ويقرأ الحلم والأخلاق المتميزة، والعبادة الكاملة، والبذل والجهاد، إنه يقرأ الحياة كلها، يقرأ الحياة التي ينبغي أن يعيشها المسلم، وسنحاول من خلال هذه الورقات التعرف على حياة سيدنا وإمامنا وقدوتنا رسولنا محمد ﷺ .

* * *

اسمه ونسبه

هو محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وفهر هذا هو قريش فكل قرشي فهري وهو ﷺ مضري أي يرجع نسبه إلى مضر ثمّ إلى عدنان من ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام. قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[1].

وجَدُّ النبي ﷺ الخامس عبد مناف،كان على المشهور له أربعة من الولد وهم هاشم، المطلب، عبد شمس، ونوفل.

فرسولنا ﷺ يرجع نسبه إلى هاشم، وهاشم هذا اسمه عمرو ولُقِّبَ بهاشم لأنه كان يهشم الخبز يكسره ويقطعه ويقدمه للحجاج.

وهو أول من أطعم الثريد للحجاج، والثريد هو الخبز مع اللحم، وهو كذلك أول من سنّ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف ولذلك قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سنّت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وأولاد هاشم عبد المطلب، وأسد وعمرو ونضلة وعبد المطلب لَقَب كذلك واسمه شيبة الحمد وإنما لُقِّب بعبد المطلب لأنه كان عند أخواله بني

(١) (٢٢٧٦).

النجار في المدينة لما توفي والده وذلك أن هاشماً كان متزوجاً من بني النجار من أهل المدينة، فذهب المطلب أخو هاشم إلى المدينة وأتى بابن أخيه ليكون عند أعمامه فلما دخل به مكة ظن أهل مكة أنه عبد اشتراه المطلب فقالوا: هذا عبد المطلب فقال لهم المطلب: لا، إنما هو ابن أخي هاشم فغلب عليه ذلك اللقب وصار لا يسمى إلا بعبد المطلب.

وعبد المطلب جد النبي ﷺ وقعت في زمنه واقعتان لم يغفلهما التاريخ:

الأولى: حفر زمزم، لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال إلى الله قالت رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا قال فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادي سعت أتت المروة ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل تعني الصبي فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا هي بصوت فقالت أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر قال فقال أبو القاسم ﷺ: «لو تركته كان الماء ظاهرا». قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر

ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذاك وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله إني مطلع تركتي قال فجاء فسلم فقال أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته ذهب يصيد قال قولي له إذا جاء غير عتبة بابك فلما جاء أخبرته قال أنت ذاك فاذهبي إلى أهلك قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله إني مطلع تركتي . قال فجاء فقال أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته ذهب يصيد فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب فقال وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء . قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم . قال فقال أبو القاسم ﷺ : «بركة بدعوة إبراهيم» . قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله إني مطلع تركتي فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له . فقال يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني له بيتا . قال أطع ربك قال إنه قد أمرني أن تعينني عليه قال إذن أفعل أو كما قال قال فقاما فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ . قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»(١)، ثم مرت السنون تلو السنين حتى خفيت معالم زمزم، وقد ذُكر أَنَّ عبدالمطلب كان نائماً يوماً ما فرأى في المنام أنه يؤمر بحفر زمزم ودُلّ على مكانها في النوم فقام إلى المكان الذي أُمر في المنام بحفره فحفره ووجد الماء، ثمّ أقام بعد ذلك سقاية الحاج .

(١) صحيح البخاري رقم ٣٣٦٥ .

الثانية: مجيء أبرهة الحبشي لهدم الكعبة، و قصة أبرهة كما ذكرها أهل العلم هي:

بَنَى أبرهة الحبشي كنيسة عظيمة بصنعاء، لم يُر في زمانها مثلها، وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم يُبن مثلها لملك قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب[١]، فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي، غضب رجل من كنانة فخرج حتى دخل الكنيسة في وقت لم يره فيه أحد، فجاء وقعد وأحدث في الكنيسة[٢]، فلما أُخبر أبرهة بذلك، قال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة، لما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب غضباً شديداً.

وهنا لابد من التنبيه على نقطة مهمة: لاشك أن هذا الرجل سمع بمنكر وهو أن أبرهة أراد أن يصرف حج العرب من مكة إلى هذه الكنيسة فغضب لأجل هذا الأمر فأنكر ذلك المنكر بأن لَطَّخ الكنيسة بالعذرة، وهذا في مقابله أوجد عند أبرهة غضباً شديداً فعزم بعد ذلك على هدم الكعبة.

وقد نص أهل العلم على أنه لا يجوز إنكار المنكر بإيقاع منكرٍ أعظم منه، بل لابد أن يكون إنكار المنكر بحيث أن لا يقع بعد ذلك أو على إثره منكر أعظم منه.

غضب أبرهة لهذا الفعل وحلف لَيَسِيرنّ إلى البيت حتى يهدمه، ثمّ أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، وسار بستين ألفاً وأخرج معه الفيلة والعرب لا

---

(١) يعني يريد أن يضاهي بها الكعبة.
(٢) تبرز داخل هذه الكنيسة.

تعرف الفيلة في ذلك الوقت، ويذكر أن رئيس الفيلة فيل يسمونه محموداً.

فلما تجهز وسار سمع العرب بذلك فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم، وذلك أنهم وإن كانوا على الشرك ولكنهم كانوا يعظمون بيت اللَّه تبارك وتعالى.

فكان ممن قابله رجل من أهل اليمن يقال له ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من العرب إلى حرب أبرهة ولكن أبرهة هزم ذا نفر وأصحابه وأسره معه ثمّ مرّ بالطائف فخرج إليه مسعود بن معتّب الثقفي فقال له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا الذي تريد (يعنون اللات) إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه رجلًا يقال له أبو رغال يدله على الطريق، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال (بضم الراء أو بكسرها) حتى نزل بالمغمّس[1] فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فبعد ذلك رجم العرب قبر أبي رغال وذلك أنهم يرون أن هذا الرجل كان رجل سوء لأنه كان دليلًا لأبرهة إلى هدم بيت اللَّه الحرام، وفيه يقول جرير في هجوه الفرزدق لأنهما كانا دائماً يتهاجيان وبينهما نفرة (بضم النون) يقول جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكم لقبر أبي رغال

قال ابن إسحاق: فلما نزل أبرهة بالمغمّس بعث رجلًا من الحبشة يقال له الأسود على خيل له حتى أتى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب وهو يومئذ كبير قريش وسيدها فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم لقتاله ثمّ عرفوا أنه لا طاقة لهم

---

(١) قرب مكة على طريق الطائف.

لقتال أبرهة، وبعث أبرهة رجلًا يقال له حناطة إلى مكة وقال: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ثمّ قل له إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه فلا حاجة لي بدمائكم فإن هو لم يرد حربي فأتني به.

فجاء حناطة وكلّم قريشاً بما قال أبرهة وخرج معه عبد المطلب لأنه سيد قريش في ذلك الزمن فلما دخل عبد المطلب على أبرهة احتار أبرهة ماذا يفعل؟ وذلك أنه أراد أن يكرم عبد المطلب، قال: إن أجلسته معي على عرشي كان في هذا منقصة لي، وإن تركته وأنا على العرش كان في ذلك منقصة له.

فنزل عن عرشه وجلس مع عبد المطلب على الأرض.

فأول ما كلمه قال لعبد المطلب: ماذا تريد؟ قال: لقد أخذتم مئتين من الإبل لي فأعيدوها، فغضب أبرهة وقال: لقد ظننتك أكبر من هذا وأعظم جئتني تسألني عن إبلك ولا تطلب مني أن أرجع عن البيت وألّا أهدمه.

فقال عبد المطلب قولة كانت في وقتها حساسة جداً ثم صارت بعد ذلك مثلًا يضرب قال عبد المطلب: أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه.

فقال أبرهة: ما كان ليمتنع منّي.

قال: أنت وذاك.

فقال أبرهة: ردوا عليه إبله.

فلما رجع عبد المطلب إلى قريش أخبرهم الخبر وقال لهم: اخرجوا من مكة فلا طاقة لكم بقتال أبرهة.

فخرجوا إلى الجبال، ثمّ قام عبد المطلب وأخذ بحلقة الباب (باب الكعبة)

وقام معه نفر من قريش يدعون اللَّه، ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال عبد المطلب:

لا هـمّ إن الـعـبـد يـمـنـع رحـ ـلـه فـامـنـع رحـالـك
لا يـغـلبـنّ صـلـيـبـهـم ومـحـا لـهـم غـدواً مـحـالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وقـبـلتـ ـنـا فـأمـر مـا بـدا لـك

ثمّ أرسل عبد المطلب حلقة الباب وانطلق ومن معه إلى الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ماذا يفعل أبرهة.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل محموداً إلى مكة برك ولم يمش معهم وبالتالي لم تمش بقية الفيلة، فقال بعضهم: ما منع الفيل؟ قالوا: لا ندري.

قال: اضربوه، فضربوا الفيل فأبى فوجهوه إلى اليمن فقام، ووجهوه إلى الشام فقام، ووجهوه إلى المشرق فقام، فلما وجهوه إلى مكة برك، ثمّ بعد ذلك فوجئوا بأن أرسل اللَّه تبارك وتعالى عليهم الطير الأبابيل كما قال اللَّه تبارك وتعالى: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴿٥﴾﴾ نعم هكذا أرسل اللَّه تبارك وتعالى الطير الأبابيل، ورمت أبرهة ومن معه بحجارة من سجيل فأهلكهم اللَّه تبارك وتعالى جميعاً.

وقيل إنه بقي بعضهم حتى يخبروا قومهم بما فعل اللَّه تبارك وتعالى بهم.

أعمامه ﷺ

يذكر أن عبد المطلب كان له أحد عشر ولداً وهم: الحارث وهو أكبرهم حمزة، العباس، أبو طالب، أبو لهب، حجل، الزبير، الغيداق، المقوّم، صفّار (وقيل ضرار)، عبد الكعبة، فأولاد عبد المطلب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم أدرك الإسلام ودخل فيه، وهما حمزة والعباس.

وقسم أدرك الإسلام ولم يدخل فيه، وهما أبو طالب و أبو لهب، وقسم لم يدرك الإسلام وهم بقية أولاد عبد المطلب.

عماته ﷺ

البيضاء ويقال لها أم حكيم، وصفية وعاتكة وبرة وأروى وأميمة وأسلمت منهن صفية.

وعلى المشهور أن عبد المطلب لما حفر زمزم منعته قريش من أخذه لها ولم يكن له ولد يمنعه، فحزن لأجل هذا ونذر قائلا: لئن رزقني اللَّه عشرة من الولد لأذبحنّ أحدهم تقرباً للَّه، فرزقه اللَّه تبارك وتعالى أولئك الأولاد فأراد أن يوفي بنذره فعمل قرعة فوقعت القرعة على ولده عبداللَّه والد النبي ﷺ فلما أراد ذبحه قامت إليه قريش ومنعته، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه بأن يأتي العرافة فيسألها فجاءها وسألها فأمرته أن يقرع بين ابنه عبداللَّه وعشرة من الإبل فقرع فوقعت القرعة على عبد اللَّه فقالت له: زد عشرة، فزاد عشرة من الإبل فوقعت القرعة على عبد اللَّه فقالت له: زد عشرة، وهكذا كلما زاد عشرة من الإبل كانت تقع القرعة على ولده عبد اللَّه حتى بلغت الإبل مئة، فأقرع فوقعت القرعة على الإبل.

عند ذلك قام عبد المطلب فنحر الإبل ثمّ تركها لا يرد عنها أحداً من البشر أو السباع.

وكانت الدية عند العرب في ذلك الوقت عشراً من الإبل فبعد هذه الحادثة صارت الدية عند العرب مئة من الإبل، والإسلام أقرها.

فالدية الآن في دين اللَّه تبارك وتعالى مئة من الإبل.

* * *

ولادة النبي ﷺ

في شهر ربيع الأول على المشهور امتن اللَّه تبارك وتعالى على البشرية بولادة سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجّلين، وذلك بعد حادثة الفيل بأشهر في مكة المكرمة، وولد يتيم الأب وذلك أن أباه مات وأمه حامل به، وكانت ولادته ﷺ ولادة معتادة لم يتمكن المؤرخون كما يذكر أهل العلم من تحديد يوم مولده وشهره على وجه الدقة، أما يوم المولد من أيام الأسبوع فهو يوم الاثنين كما قال النبي ﷺ: «يوم الاثنين يوم ولدت فيه» أخرجه مسلم[١]، ولكن في أي اثنين اللَّه أعلم.

قيل في التاسع من ربيع الأول، وقيل في الثاني عشر وقيل غير ذلك وقيل في رمضان ولكن المشهور أنه في الثاني عشر من ربيع الأول.

وتحديد يوم ميلاده ﷺ لا يرتبط به شيء من الناحية الشرعية وأما ما يقوم به كثير من الناس في كثير من بلاد المسلمين من الاحتفال بيوم مولد النبي ﷺ فإنه عمل غير صالح، وذلك لأمور منها:

أولًا: إنه لا يعرف مولده على الدقة ﷺ.

ثانياً: لم يحتفل النبي ﷺ بيوم مولده في حياته أبداً مع أنه عاش ثلاثاً وستين سنة ﷺ.

ثالثاً: لم يحتفل الصحابة ولا التابعون ولا الأئمة المتبوعون وغيرهم من العلماء بيوم مولده ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

---

(١) (١١٦٢).

رابعاً: إن النبي ﷺ لم يأمرنا بذلك مع أنه قال: «ما تركت خيراً يقربكم إلى اللَّه والجنة إلا وقد أمرتكم به».

خامساً: المتفق عليه بين أهل العلم أن الثاني عشر من ربيع الأول هو يوم وفاته ﷺ فلو احتفلنا في هذا اليوم فكأننا نحتفل بيوم وفاته.

فما لم يأمرنا به ﷺ فليس بخير فالخير كل الخير في الاتباع والشر كل الشر في الابتداع ولذلك قال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أخرجه البخاري ومسلم[١] أي مردود على صاحبه.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٦) ومسلم (٤٥٨٩).

مرضعاته عليه السلام

لما ولد النبي ﷺ أرضعته أول ما أرضعته ثويبة وهي مولاة عمه أبي لهب وكانت قد أرضعت قبل النبي ﷺ عمه حمزة ولذلك فحمزة رضي الله عنه يكون أخاً للنبي ﷺ من الرضاعة وأمهما جميعاً ثويبة مولاة أبي لهب.

ولم يدم هذا الأمر طويلًا وذلك أنه كان من عادة العرب أنهم يلتمسون المراضع لأولادهم لمدة سنتين ثمّ تفطمه وتعيده إلى أمه.

ونترك حليمة السعدية تذكر لنا قصتها مع النبي ﷺ، تقول حليمة السعدية: خرجتُ من بلدي مع زوجي وابن لي صغير أُرضعه في نسوة من بني سعد بن بكر ألتمسُ الرضعاء، وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً[١]، فخرجت على أتان لي قمراء[٢]، معنا شارف لنا[٣]، واللّه ما تبض بقطرة[٤]، وما ننام ليلنا أجمع من صبيّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، واللّه ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منّا امرأة إلّا وقد عرض عليها رسول اللّه ﷺ فتأباه وذلك إذا قيل لها إنه يتيم وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنّا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجدّه فكنّا نكرهه لذلك.

---

(١) والشهباء يعني لا زرع ولا ماء.
(٢) الأتان هو الحمار والقمراء يعني بيضاء.
(٣) والشارف هي الناقة.
(٤) يعني ما فيها حليب أبداً.

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري فلمّا أجمعنا الانطلاق[١] قلت لصاحبي[٢] واللَّه إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً واللَّه لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه قال: لا عليك أن تفعلي عسى اللَّه أن يجعل فيه بركة.

[سبحان اللَّه، هذه المسكينة حليمة السعدية لا تدري أن الخير والبركة كلها في هذا اليتيم ﷺ].

فرجعتُ إليه فأخذتُه وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره فلمّا أخذته رجعت به إلى رحلي فلمّا وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه[٣] حتى رَوي ثمّ ناما، وما كنّا ننام معه قبل ذلك من بكائه، وقام زوجي إلى شارفنا تلك[٤] فإذا هي حافل أي مملوءة لبنا، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، فقال لي صاحبي حين أصبحنا: تعلمي واللَّه يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

فقلت: واللَّه إني لأرجو ذلك.

ثمّ خرجنا وركبت أنا أتاني وحملته عليها معي[٥]، فواللَّه لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم[٦] حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي

(١) يعني عزمنا على الرجوع.
(٢) زوجها.
(٣) ولدها.
(٤) الناقة.
(٥) حملت النبي ﷺ.
(٦) سبقتهم في المسير.

ذؤيب ويحك أربعي علينا[١]، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى واللّه إنها لهي هي. فيقلن: واللّه إنَّ لها شأناً. ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض اللّه أجدب منها[٢]، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا بها معنا شباعاً لبنا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسانٌ قطرة لبن لأن الأرض جدباء ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبنا، فلم نزل نتعرف من اللّه الزيادة والخير حتى مضت سنة وفصلته[٣]، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً[٤]، فقدمنا به على أمه[٥] ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها لو تركت ابني عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة. (فهي لا تخشى عليه الوباء ولكنها تريده لما رأت من الخير عند مجيئه ﷺ)، فما زلت بها حتى ردته معنا.

***

(١) لا تسرعي.
(٢) يعني قاحلة ليس فيها زرع ولا ماء.
(٣) فطمته.
(٤) يعني قوياً.
(٥) لأن بينهم وبين أمه وعداً بعد سنتين يعيدان إليها النبي ﷺ.

طفولته عليه السلام وحادثة شق صدره الشريف

وهكذا بقي رسول اللَّه ﷺ في بني سعد حتى إذا كانت السنة الرابعة من عمره أو الخامسة وقع حادث عجيب.

وذلك أن النبي ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثمّ غسله[١] في طست من ذهب بماء زمزم ثمّ لَأَمه[٢] وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه[٣] فقالوا إن محمداً قد قتل، لأنهم رأوا الملك جاء إليه وشق صدره وأخرج قلبه، فخرجت حليمة مع زوجها ينظران إلى مقتل النبي ﷺ فوجداه قائماً ﷺ ولكنه منتقع اللون لأن هذا الأمر غريب بالنسبة إليه ﷺ، وهذه آية من آيات اللَّه تبارك وتعالى، واللَّه جلّ وعلا على كل شيء قدير، عند ذلك خافت حليمة على النبي ﷺ فردته إلى أمه.

❊ ❊ ❊

(١) القلب.
(٢) أعاده إلى مكانه.
(٣) حليمة.

وفاة أمّه ﷺ

لما بلغ السادسة من عمره خرجت أمه به لتزور قبر والده في طريق المدينة، فزارت قبر أبيه، وكان معها في سفرها هذا جده عبد المطلب، وخادمتها أم أيمن، فبعد أن زارت قبر والده وهم في الطريق إلى مكة ماتت أمّه صلوات اللّه وسلامه عليه، في مكان بين مكة والمدينة يقال له الأبواء.

فبعد أن كان النبي ﷺ يتيم الأب، صار ﷺ في السادسة من عمره يتيم الأب والأم بأبي هو وأمي.

وفاة جدّه: ثم كفله جدّه ورباه، ولما بلغ الثامنة من عمره مات جدّه عبد المطلب.

احتضان عمّه له: عند ذلك احتضنه عمه أبو طالب ورباه حتى بلغ سن الرجال ﷺ وقد قام أبو طالب بحق سيدنا محمد ﷺ خير قيام، وكان ربما قدّمه على ولده.

❊ ❊ ❊

حادثة النبي ﷺ مع الراهب بحيرى

ولما بلغ رسول اللَّه ﷺ اثنتي عشرة سنة، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة له، فمرَّ الركب على راهب يقال له بحيرى، في مكان يقال له بصرى ولما نزل به أبو طالب ومن معه أكرم ضيافتهم ثمّ قال: من معكم؟ قالوا: نحن. قال: ما معكم أحد آخر؟. قالوا: معنا صبي عند متاعنا. قال: ائتوني به، فلما جاء النبي ﷺ ورآه بحيرى الراهب نظر في وجهه، وكان يعرف أن هذا الوقت وقت خروج نبي ثمّ بحث فوجد خاتم النبوة (وخاتم النبوة عبارة عن ورمة في كتف النبي ﷺ من خلف بحجم البيضة) .

فقال بحيرى لأبي طالب: إنكم حينما أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجداً، ولا تسجد هذه إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه، مثل التفاحة وقد وجدناه في كتبنا فارجع به فإني أخاف عليه اليهود[١]، فرجع به إلى مكة أخرجه الترمذي[٢].

*** * ***

(١) في الشام.
(٢) (٣٦٢٠).

حلف الفضول

وحضر ﷺ حلف الفضول وذلك حين بلغ الخامسة عشرة من عمره.

وهذا الحلف تداعت إليه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، اجتمعوا في دار عبداللَّه بن جدعان التيمي، وذلك لسنه وشرفه، وتعاقدوا على ألّا يجدوا مظلوماً بمكة سواءً كان من أهلها أو من غيرهم إلا نصروه، وأخذوا له حقه.

وكان النبي ﷺ يقول بعد ذلك: «حضرت حلف الفضول ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت وما أحب أن لي به حمر النعم»[(١)]، هي الإبل الحمراء التي تشتاق إليها نفوس العرب وتحبها.

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن إسحاق انظر ابن هشام (١/ ١٨٢).

قبل البعثة

كان النبي ﷺ في تلك الفترة يرعى الغنم مقابل قراريط أي أموال قليلة لأهل مكة فعن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران[١] ونحن نجني الكباث[٢]، فقال النبي ﷺ: «عليكم بالأسود منه». قال: فقلنا يا رسول اللَّه كأنك رعيت الغنم؟ قال: «نعم» أخرجه البخاري ومسلم[٣].

وقال ﷺ: «ما بعث اللَّه نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ قال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه[٤].

قال أهل العلم لعل الحكمة من إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يتلقونه من القيام بأمر أمتهم في مخالطة الغنم، ما يحصل لهم من الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ودفع عدوها عنها، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وخصّ الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر.

وبعد رعي الغنم اشتغل النبي ﷺ بالتجارة.

* * *

---

(١) مكان قريب من مكة.

(٢) الكباث ثمر الأراك وهو السواك.

(٣) رواه البخاري (٣٤٠٥، ٥٤٥٣)، ومسلم (٢٠٥٠).

(٤) (٢٢٦٢).

زواجه

بلغ خديجة بنت خويلد ما وُصف به النبي ﷺ من كريم الأخلاق والأمانة، فبعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام.

وخديجة من أشراف قومها من بني مخزوم، وأرسلت معه غلاماً لها يقال له ميسرة، فخرج النبي ﷺ بمالها وتاجر لها، ولما رجع إلى مكة أخبرها ميسرة بما وقع من النبي ﷺ من كريم خلقه وحسن تعامله، وما كانت من بركة وقعت له صلوات اللّه وسلامه عليه، كل هذا جعلها تُعجب به فتحدثت عن إعجابها به مع صديقاتها، وكان ممن تحدثت معها صديقة لها يقال لها نفيسة عندها ذهبت نفيسة إلى النبي ﷺ وعرضت عليه أن يتزوج خديجة فقبل ﷺ وذهب مع أعمامه إلى عم خديجة وتمّ الزواج.

وكانت سنها على المشهور أربعين سنة وكان سن النبي ﷺ الخامسة والعشرين.

وقد أحبها النبي ﷺ حباً شديداً ولم يتزوج عليها في حياتها أبداً.

أولاده ﷺ من خديجة: رزقه اللّه تبارك وتعالى من خديجة الولد فولدت له عبداللّه والقاسم وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم رضي اللّه تبارك وتعالى عنهم أجمعين.

❊ ❊ ❊

إعادة بناء الكعبة

لما بلغ النبي ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره وقع أمر مهم وهو أن قريشاً قررت إعادة بناء الكعبة وذلك أن الكعبة قد تساقطت بعض حجارتها وكان قد جاءها سيل شديد أثر في بنيانها كثيراً، واختلفوا هل يرممون البيت أو يهدمونه ويبنونه من جديد؟ فمن قائل: يُهدم ويُبنى من جديد. ومن قائل: بل يُرمم وذلك أنهم خشوا إذا هدموا البيت أن يصابوا بأذى، وذلك أن ما حدث لأبرهة قريب جداً وكثير منهم قد عاصر ونظر ما وقع لأبرهة وجيشه حين أرادوا ذلك البيت المقدس عند اللَّه تبارك وتعالى.

فقام الوليد بن المغيرة وقال: واللَّه لنهدمنّه ولنبنينّه من جديد. فقالوا: إنّا نخاف أن نُصاب بأذى. فقال: وأي أذى وأنتم إنما أردتم الخير؟ قالوا: فابدأ أنت. قال: نعم، فجاء الوليد إلى الكعبة ورفع الفأس وقال: اللَّهم لن ترع (يعني لا تخف يا رب لا نريد إيذاءك وإنما نريد الخير وهذا لا شك يدل على جهلهم باللَّه تبارك وتعالى).

فضرب ثمّ انتظر فلم يصب بأذى فقال: أيها الناس اهدموا فقالوا: لا، حتى تصبح وأنت سليم.

قال: نعم فلما أصبح، وإذ لم يصب بأذى، قاموا جميعاً فهدموا بيت اللَّه الحرام.

ولكنهم لما أرادوا إعادة بنائه قالوا: لا يدخل في بنائه إلا مال طيب، فلا يقبل مال ربا، ولا ميسر، ولا مهر بغي، ولا مال مسروق، (وهذا شيء عجيب هم على كفرهم يعرفون المال الحلال من المال الحرام).

وقدّر اللَّه أن المال الحلال الذي جمعوه كان قليلًا لم يكف لبناء الكعبة فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن، ثمّ جعلوا هذا القوس الذي نراه والذي يسميه كثير من الناس حِجْر إسماعيل وليس لإسماعيل عليه الصلاة والسلام حجر.

بل هو الحجر أو الجَدْر كما كان يسميه أهل مكة أو الحطيم وهذا الحجر ستة أذرع منه تعتبر من الكعبة ولذلك إذا أردنا أن نطوف حول الكعبة لا يجوز لنا أن نطوف من داخل الحِجْر لأننا مطالبون أن نطوف حول الكعبة لا أن نطوف في الكعبة.

وكان للكعبة بابان فجعلوا لها باباً واحداً، وكان الباب ملاصقاً للأرض فرفعوه، حتى يدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا وقد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول اللَّه ﷺ عن الجَدْر أمن البيت هو؟ قال: «نعم».

قالت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟

قال: «إنّ قومك قصّرت بهم النفقة».

قالت: فما شأن بابه مرتفعاً؟.

قال: «فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض»، أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما(١).

وذلك من النبي ﷺ عين الحكمة إذ إن قريشاً ستقول: انظروا إلى محمد

---

(١) البخاري (١٥٨٤، ٧٢٤٣)، مسلم (١٣٣٣).

ﷺ يدّعي أنه مرسل من اللَّه، أول ما فتح مكة هدم بيت اللَّه؟! ولذا رأى النبي ﷺ من الحكمة أن يؤخر هذا الأمر.

ولكن هل تأخر هذا الأمر كثيراً؟ كلا إنه لم يتأخر كثيرا وذلك أنهم في خلافة أمير المؤمنين عبداللَّه بن الزبير رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه سنة خمس وستين من هجرة النبي ﷺ، أو سنة أربع وستين، قام عبداللَّه بن الزبير فأدخل الحجر في الكعبة، ووسع الكعبة وأطال بنيانها وأنزل الباب إلى الأرض وجعل للكعبة بابين، كل ذلك كما أراده النبي ﷺ أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(١).

قال عطاء: إن عبداللَّه بن الزبير جمع الناس فقال: يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثمّ أبني بناءها أو أصلح ما وَهِي منها؟ فقال ابن عباس: فإني قد فُرق لي رأي فيها، أرى أن تصلح ما وَهِي منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها وبُعث عليها النبي ﷺ.

[فابن عباس كان رأيه أن تُترك الكعبة ولا يدخل الحِجْر فيها وأن ترمم فقط]، فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجدّه(٢) فكيف بيت ربكم؟ إني مستخير ربي ثلاثاً ثمّ عازم على أمري فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد إليها أمر من السماء.

فصعد رجل وألقى من البيت حجارة، فلما لم ير الناس أنه أصابه شيء تتابعوا فنقضوا البيت حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة فستر

---

(١) (١٣٣٣/٤٠٢).
(٢) يجدده.

عليها الستور حتى ارتفع بناؤه وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول إن النبي ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع[١]، ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه، قال عبداللَّه بن الزبير: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع كما أراد النبي ﷺ من الحجر حتى أبدى أُسّاً[٢] نظر الناس إليه أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام فبنى عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع فابن الزبير زادها طولًا وعرضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعل للكعبة بابين أحدهما يُدخل منه والآخر يُخرج منه فلما قُتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين من الهجرة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك[٣] ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك: إنّا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد من طوله فأقره (أي من ارتفاع الكعبة) وأما ما زاد فيه من الحِجْر فردّه إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه. [وهذا أمر عجيب عبد اللَّه بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفذ وصية النبي ﷺ. وعبد الملك بن مروان لما استُخلف ظن أن عبداللَّه بن الزبير إنما زاد هذا من عند نفسه فأمر بنقضه، وأعاد الكعبة كما كانت زمن النبي ﷺ، وقد وفد الحارث بن عبداللَّه على عبد الملك بن مروان فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب (يعني عبداللَّه بن الزبير) سمع من عائشة ما كان

(١) هكذا قال، وقال غيره: ستة أذرع.
(٢) يعني الأساس.
(٣) بما فعل ابن الزبير ببيت اللَّه تبارك وتعالى.

يزعم أنه سمعه منها فقال الحارث: بلى أنا سمعته منها. فقال عبد الملك: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع وأنه كذلك، ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً وهل تدرين لم كان قومك رفعوا الباب؟ قالت: قلت: لا. قال: «تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا» فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقي حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط. قال عبد الملك للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم. قال: فنكت عبد الملك ساعة بعصاه(١) ثم قال: وددت أني تركته وما تحمّل أخرجه مسلم(٢) لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير رضي الله عنه.

وفي عهد الدولة العباسية في خلافة المهدي أراد الخليفة أن يعيد بناء الكعبة وأن يُدخل الحجر فيها مرة ثانية، فسأل الإمام مالكاً قال: ما تقول؟ فقال الإمام مالك: لا تفعل.

قال: لِمَ؟ قال: أخشى أن يتخذه الملوك لعبة، هذا يهدم وهذا يبني.

فتركه الخليفة وبقي البيت على حاله إلى يومنا هذا.

فإن قال قائل: فهل نعيده الآن ونبنيه كما أراد النبي ﷺ فنقول هذا مصيره إلى العلماء يجتمعون ثمّ ينظرون الأمر فإن رأوا ذلك فالأمر إليهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) صار يضرب بالعصا في الأرض.
(٢) (١٣٣٣).

ذكاء وفطنة

بعد أن بنت قريش الكعبة تنازعوا كل يريد أن يتشرف بوضع الحَجَرَ الأسود في مكانه فقالوا: نُحَكِّم فينا أول داخل علينا فقدّر اللَّه تبارك وتعالى أن يكون أول داخل عليهم هو رسول اللَّه ﷺ. فقالوا: هذا الأمين. فنزع رداءه وطلب من رؤساء القبائل أن يحمل كل واحد منهم من طرف، حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة فحمله النبي ﷺ بيده الشريفة ووضعه في مكانه، وقد جاء في الحديث أن الحجر الأسود نزل من الجنة وهو أشدّ بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم، أخرجه الإمام الترمذي في جامعه[١].

❊ ❊ ❊

(١) (٨٧٧).

بعثته

ولمّا بلغ النبي ﷺ الأربعين من عمره امتنّ اللّه تبارك وتعالى على الإنسانية أجمع بمبعثه ﷺ هادياً ومبشراً ونذيرا، وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيرا، وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحدثنا عن قصة مبعثه ﷺ.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أول ما بُدء به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(١).

ثمّ حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه(٢)، الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها وهكذا حتى جاءه الحق(٣)، فقال: اقرأ.

فقال ﷺ: «ما أنا بقارئ(٤)».

قال: فأخذني فغطّني(٥) حتى بلغ منّي الجَهد ثمّ أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة ثمّ أرسلني فقال:

---

(١) كضوء النهار.

(٢) يعني يتعبّد.

(٣) والحق هنا يحتمل أن يكون جبريل ويحتمل أن يكون الأمر الحق وهو بعثة النبي ﷺ.

(٤) لا أعرف القراءة وذلك أن النبي ﷺ أمّي لا يستطيع القراءة ولا يعرفها صلوات اللّه وسلامه عليه وقد أخبر اللّه تبارك وتعالى عنه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وأخبر النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إنّا أمّة أمّية لا نكتب ولا نحسب» رواه البخاري (١٩٠٨، ١٩١٣، ٥٣٠٢) ومسلم (١٠٨٠/ ١٥).

(٥) ضمّني ضمّاً شديداً

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

فرجع بها رسول اللّه ﷺ يرجف فؤاده(١) ﷺ.

[أمر غريب يأتيه الملك في هذا المكان الموحش المظلم في الليل، ويضمّه هذا الضم الشديد، فأوقع هذا في قلب النبي ﷺ الخوف، وهذا خوف فطري لا يضره شيئاً، كما خاف موسى ﷺ من الحية وخرج من مصر خائفاً يترقب].

فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني، زملوني(٢)، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. قالت خديجة [وهي المثبّتة وهي التي اختارها اللّه لنبيه ﷺ]: كلا واللّه ما يخزيك اللّه أبداً.

[هذا الكلام من خديجة تبدأه بالنفي، ثمّ بالقسم واللّه ما يخزيك اللّه أبداً، وتؤكده بقولها أبداً، كل هذا دليل على ثقة هذه المرأة بربها تبارك وتعالى، ومعرفتها الحقّة بمحمد ﷺ، والسبب الذي من أجله بنت هذا الكلام هو ما ذكرته بعد ذلك].

قالت: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل(٣)، وتُكسب المعدوم(٤)، وتقري

---

(١) من الخوف.
(٢) وذلك أن الخائف يشعر بالبرد والرعشة، فيحتاج إلى أن يتلحّف ويتغطى حتى يذهب عنه ما يجد من الرجفة.
(٣) والكَلّ هو الذي لا يستطيع أن يستقل بأمره يعني يساعده.
(٤) الذي لا يملك شيئاً.

الضيف(١)، وتعين على نوائب الحق(٢).

[كأنها تقول للنبي ﷺ من كانت هذه صفاته لا يمكن أن يقع الخزي من اللَّه عليه أبداً، لأن هذه الصفات صفات كمال]. ثمّ انطلقت به حتى أتت به ورقة ابن نوفل وهو ابن عم لها وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني(٣)، ما شاء اللَّه أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول اللَّه ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله اللَّه على موسى(٤) يا ليتني فيها جذعاً(٥)، إذ يُخرجك قومك، [عندها استبعد الرسول أن يخرجه قومه، وذلك أنه يرى أن قومه يحبونه حباً شديداً، ولا يسمونه إلا الصادق الأمين صلوات اللَّه وسلامه] عليه، قال: أوَ مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي.

[وهذه قاعدة مهمة وأصل عظيم بنى عليه ورقة بن نوفل رأيه وذلك أن كل الأنبياء أوذوا وعودوا، فمنهم من قُتل، ومن من طرد، ومنهم من أُوذي، ومنهم من خُوّف، وهذا كثير] وأن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرا ثمّ لم ينشب ورقة أن توفي.

---

(١) تكرم الضيف.
(٢) على مصائب الدنيا.
(٣) يعني التوراة والإنجيل، وسميت اللغة باللغة العبرانية نسبة إلى عبورهم النهر.
(٤) هذا الشيء هو الذي أنزله اللَّه تبارك وتعالى على موسى صلوات اللَّه وسلامه عليه.
(٥) شاباً قوياً.

وفتر الوحي بعد ذلك[١]. أخرجه البخاري[٢].

وهذه المدة قدرها أهل العلم بستة أشهر وقال بعضهم: إنها بلغت ثلاث سنين.

وورقة بن نوفل رحمه اللَّه تبارك وتعالى يعتبر مسلماً وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أخبر أنه من أهل الجنة[٣].

ولكن هل كان صحابياً؟ الصحيح أنه لم يكن صحابياً وذلك أنه لم يدرك الرسالة لأنه مات بعد مبعث النبي ﷺ وقبل تبليغه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

* * *

---

(١) انقطع الوحي.
(٢) (رقم ٣).
(٣) انظر حديث (لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين) قال ابن كثير: رواه البزار عن طريق عائشة وقال: وهذا إسناد جيد. وحسنه الألباني بمجموع طرقه. صحيح الجامع

أنواع الوحي

أنواع الوحي ستة كما قال أهل العلم:

الأول: الرؤيا الصادقة، وهي كانت مبدأ الوحي للنبي ﷺ كما قالت عائشة: فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثاني: ما كان يلقيه الملك في روع النبي وقلبه ﷺ.

كقوله صلوات اللّه وسلامه عليه: إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا اللّه وأجملوا في الطلب.

الثالث: أنه كان يتمثل الملك رجلًا، فيخاطب النبي ﷺ حتى يعي عنه كما في حديث جبريل لما جاء للنبي ﷺ وهو بين أصحابه.

الرابع: أنه كان يأتيه كمثل صلصلة الجرس وكان هذا أشده عليه حتى إن جبين الرسول ﷺ ليتفصّد عرقاً في اليوم الشديد البرد.

الخامس: أن يرى الملك في صورته التي خلقه اللّه تبارك وتعالى عليها فيوحي إليه ما شاء مثل ما جاءه جبريل في الغار.

السادس: ما يوحيه اللّه تبارك وتعالى لنبيه ﷺ مباشرة بدون واسطة ملك كما في الإسراء وفرض الصلاة عليه هناك.

❊ ❊ ❊

كيف وصل الشرك إلى مكة؟

كانت خزاعة هم ولاة البيت الحرام قبل قريش، وكانوا يتوارثون الولاية على البيت كابراً عن كابر، واستمرت على ولاية البيت ثلاثمئة سنة وقيل خمسمئة سنة، وفي زمانهم جُلبت الأوثان إلى مكة على يد زعيمهم عمرو بن لُحي، وكان قوله فيهم كالشرع المتبع لمكانته عندهم، وكان عمرو بن لحي هذا قد خرج إلى الشام فرأى أهل الشام يعبدون الأصنام فقال: ما هذه الأصنام التي تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا. فقال: ألا تعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته فأطاعوه. قال رسول اللَّه ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يجر قُصبه[١] في النار»، أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما[٢].

وقد كانت العرب على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولكن لطول العهد نسوا كثيراً من تفاصيل الشرع، واستمر هذا الأمر وهو رئاسة خزاعة على البيت الحرام حتى قام قصي بن كلاب بالزواج من ابنة رئيس خزاعة، ثمّ بعد ذلك استعان بالعرب على قتال خزاعة فهزمهم وأجلاهم عن مكة، وتسلم قصي الرئاسة وقصي من قريش.

وكان مما بقي عند العرب من العبادات التي كانت على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام الحج، فكانوا يطوفون ويسعون ويقفون في عرفات ومزدلفة

---

(١) يجر أمعاءه في النار.
(٢) البخاري (٣٥٢١)، (٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦).

ويُهدون البُدن، ولكنهم صاروا يقولون في تلبيتهم لما بَعُدَ العهد: لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ملكته وما ملك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] قال ابن كثير: من ذلك ما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنها كبيرهم عمرو بن لُحي قبَّحه اللَّه مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم وهو كاذب مفتر في ذلك، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] [والبحيرة هي التي كانوا يبحرون أذنها أي يشقونها ويجعلون لبنها للطواغيت ويمنعون الناس منها، وأما السائبة فهي البعير يسيب فلا يحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد ويكون للآلهة، وأما الوصيلة فهي الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى فتكون لها وإن ولدت ذكراً فهي للآلهة، وأما الحام فهو الفحل إذا أنتج من ظهره عشرة ترك فلا يُركب ولا يُمنع من رعي]، قال الحافظ ابن كثير رحمه اللَّه تبارك وتعالى: بل قد تابعوه في ما هو أطمّ من ذلك وأعظم بكثير، وهو عبادة الأوثان مع اللَّه عز وجل، وبدلوا ما كان اللَّه بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم، من توحيد اللَّه وعبادته وحده لا شريك له، وتحريم الشرك، وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين، بغير علم ولا برهان ولا دليل صحيح ولا ضعيف، واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من أمم المشركين.

انتهى كلامه رحمه اللَّه تعالى.

وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وهم الخدم وحجّاب يذبح لها ويطاف حولها ومع هذا كله يعرفون فضل الكعبة.

أمّا تلك الآلهة فكانت لقريش العزى وهبل وكانت اللات لثقيف وكانت مناة للأوس والخزرج، وكان ذو الخُلصة لدوس.

❊ ❊ ❊

بدء الدعوة

أُوحي للنبي ﷺ وبُشر صلوات اللَّه وسلامه عليه، ثم انقطع الوحي مدة ثم عاد إليه مرة ثانية بعد ثلاثة أعوام وتسمى هذه الفترة فترة النبوة قبل الرسالة وصار صلوات اللَّه وسلامه عليه يدعو المقربين منه إلى دين اللَّه تبارك وتعالى، فكان أول من أسلم مع النبي ﷺ من النساء خديجة ومن الموالي زيد بن حارثة ومن الغلمان علي بن أبي طالب ومن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق ومن العبيد بلال بن رباح.

جاء في صحيح البخاري[١] من حديث همّام بن الحارث عن عمّار بن ياسر قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر وأسلم على يدي أبي بكر الصديق: الزبير بن العوام، عثمان بن عفان، طلحة بن عبيد اللَّه، سعد بن أبي الوقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي اللَّه تبارك وتعالى عنهم أجمعين.

وجاء كذلك في صحيح مسلم[٢] من حديث أبي أمامة عن عمرو بن عبسة السلمي رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه قال: أتيت رسول اللَّه ﷺ في أول ما بعث وهو في مكة وهو حينئذ مُستَخْفٍ فقلت: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» قلت: وما النبي؟ قال: رسول اللَّه .

قلت: آللَّه أرسلك؟ قال: «نعم». قلت: بم أرسلك؟ قال: «بأن تعبد اللَّه وحده لا شريك له وتكسر الأصنام وتصل الأرحام». قال: قلت: نِعْمَ ما

(١) (٣٨٥٧، ٣٦٦٠).
(٢) (٨٣٢).

أرسلك به، فمن اتبعك على هذا؟ قال: «حر وعبد» قال: فكان عمرو بعد ذلك يقول: لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام. قال: فأسلمت. قلت: فأتبعك يا رسول اللَّه؟ قال: «لا، ولكن الحق بقومك فإذا أُخبرت أني قد خرجت فاتبعني».

وروى الإمام أحمد[١] عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة فأتى عليَّ رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وقد استخفيا من المشركين فقالا: عندك يا غلام لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما. فقال: «هل عندك من جَذَعة لم يَنْزُ عليها الفحل بعد؟»[٢] قلت: نعم فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول اللَّه ﷺ الضرع ودعا فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فحلب فيها ثمّ شرب هو وأبو بكر ثمّ شربت ثمّ قال للضرع: أقلص. فقلص[٣] كما كان، فلما كان بعد أتيت رسول اللَّه ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب[٤] فقال: إنك غلام معَلّم فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد.

---

(١) (١/ ٤٦٢).
(٢) لم يجامعها الفحل فليس فيها لبن.
(٣) رجع.
(٤) يعني القرآن.

إسلام أبي ذر الغفاري

وكذلك ممن أسلم في أول الأمر أبو ذر الغفاري وقصته كما يأتي: أخرج الإمام مسلم في صحيحه[١] عن أبي ذر الغفاري قال: خرجنا من قومنا غفار وهم يُحِلُّون الشهر الحرام، وخرجت أنا وأخي أُنَيس وأُمُّنا فنزلنا على خال لنا، فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا، فحسدنا قومه فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس[٢]، فجاء خالنا فنثا علينا الذي قيل له فقلت له: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ولا جماع لك فيما بعد، فقربنا صِرمتنا[٣] فاحتملنا عليها فتركنا خالنا وسرنا فتغطى خالنا ثوبه فجعل يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة فنافر أنيس عن صرمتنا وعن مثلها، فأتيا الكاهن فخيّر أنيساً، فأتانا أنيس بصرمتنا ومثلها معها[٤]، قال أبو ذر للراوي عنه عبداللّه بن الصامت: وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول اللّه ﷺ بثلاث سنين قلت: (يعني عبداللّه بن الصامت) لمن؟ قال: للّه. قلت: فأين توجهت؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي أصلي عشاءً، حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خفاء، حتى تعلوني الشمس[٥]، قال أبو ذر: فقال لنا أخي أنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني مع أمي حتى أذهب وأرجع .

فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث عليَّ (أي تأخر) ثمّ جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت بمكة رجلًا على دينك يزعم أن اللّه أرسله قال أبو ذر:

(١) (٢٤٧٣).
(٢) يعني أنه يخونه في أهله.
(٣) ناقتنا.
(٤) يعني أن أنيساً كان شاعراً فجاء إلى قريب من مكة ففاخر الناس بالشعر على ناقة مقابل ناقة ثمّ احتكموا إلى الكاهن فحكم لأنيس أنه أشعر فأخذ (الناقتين).
(٥) يعني كأني كساء أو ثوب من ضعفي وتعبي سقطت ونمت لا حركة فيَّ.

فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشّعر(١) فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، واللّه إنه لصادق وإنهم لكاذبون. قال أبو ذر: قلت لأنيس: فاكفني حتى أذهب فأنظر، فأتيت مكة فتضعّفت رجلًا منهم(٢) فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ(٣)، فأشار إليّ وقال: الصابئ، الصابئ فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم(٤)، حتى خررت مغشياً عليّ من الضرب فارتفعت حين ارتفعت كأني نصب أحمر(٥)، فأتيت زمزم فغسلت عني الدماء وشربت من مائها ولقد لبثت يا ابن أخي (يقول لعبد اللّه بن الصامت) ثلاثين بين ليلة ويوم ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عُكَن بطني (يعني لحم البطن صار على بعضه)، وما وجدت على كبدي سُخفة جوع، فبينا أهل مكة في ليلة قمراء أضحيان(٦) إذ ضُرب على أصمختهم(٧)، فما يطوف بالبيت أحد وامرأتان تدعوان إسافاً ونائلة(٨)، فأتتا عليّ وهما في طوافهما فقلت أنكحا أحدهما الآخر(٩) فما تناهتا عن قولهما قال فأتتا عليَّ فقلت: هَن مثل الخشبة غير أني لا أكْني فانطلقتا تولولان وتقولان: لو كان هاهنا أحد من أنفارنا فاستقبلهما رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وهما هابطان قال: ما لكما؟ قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها. قال رسول

(١) على أنواع الشعر وأوزانه

(٢) ذهبت إلى رجل أرى أنه ضعيف فيهم.

(٣) يعني النبي ﷺ.

(٤) المدرة هي حجارة من الطين.

(٥) عندما وعيت من هذا الضرب، وقفت كأني علامة حمراء من كثرة الدماء التي على جسدي.

(٦) يعني مضيئة.

(٧) آذانهم.

(٨) وهما صنمان.

(٩) يستهزئ بآلهتهما.

اللَّه ﷺ : ما قال لكما؟ قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأ الفم فجاء رسول اللَّه ﷺ حتى استلم الحجر وطاف بالبيت هو وصاحبه، ثمّ صلى فلما قضى صلاته صلوات اللَّه وسلامه عليه فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام فقلت له: السلام عليك يا رسول اللَّه فقال: وعليك ورحمة اللَّه ثمّ قال: من أنت؟ قلت: من غفار. قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار فذهبت آخذ بيده عن جبهته فقدعني صاحبه، وكان أعلم به مني ثمّ رفع رأسه ثمّ قال: متى كنت هاهنا؟ قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: فمن كان يطعمك؟ قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما أجد على كبدي سخفة جوع فقال له النبي ﷺ : «إنها مباركة إنها طعام طُعم» فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه ائذن لي في إطعامه الليلة فانطلق رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وانطلقت معهما ففتح أبو بكر باباً فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف وكان ذلك أول طعام أكلته بها ثمّ غَبَرْت ثمّ أتيت رسول اللَّه ﷺ فقال: «إني قد وجهت لي أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب أهاجر إليها فهل أنت مبلّغ عني قومك؟ عسى اللَّه أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم» فأتيت أنيساً فقال لي: ما صنعت؟ قلت: صنعت أني قد أسلمت وصدقت. قال: ما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت فأتيت أمنا فقالت: ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم وكان يؤمهم إماء بن رحضة الغفاري وكان سيدهم وقال نصفهم: إذا قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة أسلمنا فقدم رسول اللَّه ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي وجاءت أسلم(١) فقالوا: يا رسول اللَّه إخوتنا نسلم على الذي أسلموا عليه. فأسلموا فقال رسول اللَّه ﷺ : «غفار غفر اللَّه لها وأسلم سالمها اللَّه».

---

(١) قبيلة أسلم.

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

كان سيداً مطاعاً شريفاً في دوس، ودوس في اليمن، وكان قد قدم مكة فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول اللَّه ﷺ ونهوه أن يجتمع به أو أن يسمع كلامه قال الطفيل بن عمرو: فواللَّه ما زالوا بي حتى أجمعت (أي قررت) على أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً[١] فرقاً فغدوت إلى المسجد فإذا رسول اللَّه ﷺ قائم يصلي عند الكعبة فقمت منه قريباً فأبى اللَّه إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثُكل أمي واللَّه إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف رسول اللَّه ﷺ إلى بيته فدخلت عليه وقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي: كذا وكذا فواللَّه ما برحوا بي يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثمّ أبى اللَّه إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولًا حسناً، فاعرض عليّ أمرك. فعرض عليّ رسول اللَّه ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا واللَّه ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي اللَّه إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع اللَّه أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال: اللَّهم اجعل له آية. قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع بين عيني

---

(١) وضع قطناً في أذنيه.

نور مثل المصباح، فقلت اللَّهم في غير وجهي فإني أخشى أن يُظن بها مُثْلة فتحول فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور من رأس سوطي كالقنديل يضيء، وأنا أتهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً فقلت: إليك عني يا أبت فلست منك ولست مني. قال: لم يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ قال: أي بني فدينك ديني قلت فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثمّ ائتني حتى أعلمك مما عُلّمت فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثمّ جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

ثم أتتني صاحبتي فقلت: إليك عني فلست منك ولست مني قالت: ولم بأبي أنت وأمي؟ قلت: فرّق بيني وبينك الإسلام وتابعت دين محمد ﷺ. قالت: فديني دينك. فقلت: فاذهبي إلى حمى ذي الشرا، وتطهري منه[1]، قالت: بأبي أنت وأمي أتخشى على الصبية من ذي الشرا شيئاً؟ قلت: لا، أنا ضامن لذلك قال: فذهبت فاغتسلت ثمّ جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت.

ثمّ دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطأوا عليّ ثمّ جئت رسول اللَّه ﷺ بمكة فقلت يا رسول اللَّه أبطأوا عليّ فادع عليهم .

فقال ﷺ: «اللَّهم اهد دوساً ارجع إلى قومك وادعهم وارفق بهم» قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق ثمّ قدمت على رسول اللَّه ﷺ بمن أسلم

(١) ذو الشرا هذا صنم لدوس وكان الحمى الذي حموه حوله به نقاط من ماء تهبط من جبل.

معي من قومي ورسول اللَّه ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين صلوات اللَّه وسلامه عليه.

❊ ❊ ❊

جهر النبي ﷺ بالدعوة

لما نزل قول اللَّه تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١ - ٧] جهر النبي ﷺ بالدعوة إلى التوحيد وذلك أن اللَّه تبارك وتعالى انتزعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ كأنه قيل له إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً وأما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم وما لك والراحة وما لك والفراش الدافئ قم للأمر العظيم الذي ينتظرك والعبء الثقيل المهيأ لك قم للجَهد والنَّصَب والكد والتعب قد مضى وقت النوم والراحة وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل والجهاد الطويل الشاق قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد)[(١)].

هكذا أمر اللَّه تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقوم ويجهر بالدعوة إلى اللَّه تبارك وتعالى.

وقد روى لنا أبو هريرة رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه بداية دعوة النبي ﷺ وجهره بها فقال لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول اللَّه ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار،

(١) بتصرف من كتاب الرحيق المختوم.

يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من اللَّه شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها» أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[١].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خرج رسول اللَّه ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه»[٢] فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه فقال: يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب. فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟». وفي رواية: «لو حدثتكم أن خلف هذا الوادي جيش مصبّحكم أكنتم مصدقي؟» [واللَّه لو قالوا له نصدقك لكفى ولكن أبى اللَّه تبارك وتعالى إلا أن يشهدوا بالحق وإلا أن يقولوا الكلمة التي تكون شاهدة عليهم وعلى تكبرهم وعنادهم وإعراضهم عن الحق الذي عرفوه]، قالوا ما جرّبنا عليك كذباً قط، [هكذا يشهد أهل مكة للنبي ﷺ على المشهور بعد ثلاث وأربعين سنة بأنهم ما جرّبوا عليه الكذب أبداً ولذلك سيأتينا من قصة أبي سفيان لمّا يسأله هرقل في بداية السنة السابعة من الهجرة هل كان محمد يكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: لا]. فقال: «إنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقام عم النبي ﷺ أبو لهب فقال: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا؟![٣]. اهـ ثمّ قام، فأنزل اللَّه تبارك وتعالى آيات يدافع فيها عن نبيه ﷺ فقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن

---

(١) (٢٠٤).

(٢) وهذه جملة كان يستعملها الناس في ذلك الوقت للمناداة لأمر مهم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠).

مَّسَدِۭ ﴾ [سورة المسد].

ثمّ كانت بعد ذلك الدعوة الجهرية قال ابن إسحاق: ثمّ أمر اللَّه تبارك وتعالى رسوله بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أُمر وأن يصبر على أذى المشركين وكان أصحاب رسول اللَّه ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب استخفوا بصلاتهم من قومهم فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون في شعاب مكة إذ ظهر عليهم بعض المشركين فناكروهم(١) حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص رجلًا من المشركين بلحى جمل فشجّه فكان أول دم أهريق في الإسلام.

وبدأ الناس يدخلون في دين اللَّه تبارك وتعالى وكان قد أسلم أبو بكر، وعلي، وزيد، وبلال، وخديجة، ثمّ أسلم عمّار بن ياسر وأسلم كذلك عثمان، والزبير، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد اللَّه، ثمّ أسلم أبو عبيدة، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وخباب بن الأرت، وعبد اللَّه بن مسعود، وفاطمة بنت الخطاب، وكل هؤلاء كان إسلامهم سراً.

فبعد أن أنزل اللَّه قوله جلّ وعلا: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] قام رسول اللَّه ﷺ ينكر خرافات الشرك وترّهاته ويذكر حقائق الأصنام، وحقائق عَبَدَتِها، وأنها لا تستحق أن يُسجد لها، وأن تُعبد من دون اللَّه تبارك وتعالى، وبدأ يُسفّه الأحلام، ويبين الضلال صلوات اللَّه وسلامه عليه.

---

(١) أنكروا عليهم وعابوا عليهم ما يصنعون.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: كنت رجلًا قيناً (أي عبداً) وكان لي على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه، فقال: لا واللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ. فقلت: لا واللّه لا أكفر بمحمد حتى تموت ثمّ تبعث. قال: فإني إذا مت ثمّ بُعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك فأنزل اللّه تبارك وتعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[1].

ولما بدأ النبي ﷺ بالدعوة إلى اللّه تبارك وتعالى مشى رجال من أشراف مكة إلى أبي طالب عم النبي ﷺ فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وسفّه أحلامنا، وعاب ديننا، وضلل آباءنا، فإما أن تَكُفَّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب: قولًا رقيقاً وردهم رداً جميلًا فانصرفوا عنه، ومضى أبو طالب إلى النبي ﷺ يكلمه، فلم يستجب له واستمر ﷺ على ما هو عليه.

ولما قرب موسم الحج، اجتمع كفار مكة وكبراؤها إلى الوليد بن المغيرة وقالوا: ما نقول إذا جاء الناس؟ فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا له: بل أنت قل ونسمع. قال: لا قولوا أنتم وأنا أسمع. قالوا: نقول كاهن قال: لا واللّه ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: نقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخنقه

---

(١) البخاري ٢٠٩١، ٢٤٢٥، ٢٢٧٥، مسلم ٢٧٩٥ .

ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله هزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول؟ فقال لهم: واللَّه إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك ولكن هل بقي الأمر هكذا؟ لا لقد دافع اللَّه تبارك وتعالى عن نبيه فقال عن الوليد بن المغيرة ومن معه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر: ١١ - ٢٧].

واتبعت قريش أساليب عدة في محاربة دعوة النبي ﷺ فمن هذه الأساليب التي استخدموها مع النبي ﷺ:

أولًا: السخرية والاحتقار: رُمي النبي ﷺ وصحابته بِتُهم وشتائم وتألفت جماعات للاستهزاء بالإسلام ورجاله فرسولهم يُنادى عليه بالجنون قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ووصم بالسحر والكذب قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وكذلك صاروا ينظرون إليه نظراً يريدون بهذا النظر أن يزلقوه بأبصارهم فيوقعونه في مهلكة من حسدهم قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] وسخروا

أيضاً من أصحابه قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

وقالوا عن القرآن الكريم: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، وقالوا: إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وأرادوا لجهلهم أن يعارضوا القرآن الكريم بأساطير الأولين، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا حدّث الناس ودعاهم إلى اللَّه تبارك وتعالى، وقرأ عليهم القرآن، ثمّ قام، جاء النضر بن الحارث فجلس مجلس النبي ﷺ ثمّ يقول: واللَّه ما محمد بأحسن حديثاً منّي ثمّ يحدثهم عن ملوك فارس ثمّ يقول بماذا محمد أحسن حديثاً منّي؟ وحاولوا المساومة كما قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨ -٩].

ثانياً: الإيذاء: وهو نوعان:

النوع الأول: الإيذاء النفسي: فأول هذا الإيذاء ما وقع من أبي لهب (قبّحه اللَّه) وذلك أنه قد زوّج ولديه عتبة وعتيبة من بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما بُعث النبي ﷺ ودعا إلى اللَّه تبارك وتعالى، وجهر بالدعوة، أمر أبو لهب ولديه أن يطلقا بنتي النبي ﷺ فطلقاهما.

وكانت امرأة أبي لهب أم جميل (أروى بنت حرب) لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة اللسان، ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ

﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أتت رسول اللَّه ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفي يدها حجارة فوقفت عليهما فأخذ اللَّه بصرها فلم تر النبي ﷺ، لم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك، قد بلغني أنه يهجوني واللَّه لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه (أي الحجر) أما واللَّه إني لشاعرة ثمّ قالت:

مـذمـمـاً عـصـيـنـا ودينـه قـلـيـنـا

ثمّ انصرفت فقال أبو بكر يا رسول اللَّه أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني فقد أخذ اللَّه ببصرها عني والعجيب أن اللَّه جل وعلا كما صرف بصرها عن نبيه ﷺ كذلك صرف لسانها فقالت مذمما ولم تقل محمداً.

النوع الثاني: الإيذاء الجسدي: عن عبداللَّه بن مسعود أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابه جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يأتي بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد[١]، فانبعث أشقى القوم وهو عقبة بن أبي معيط فجاء به، فنظر (أي انتظر) حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، يقول عبداللَّه: وأنا أنظر لا أغني شيئاً لو كانت لي منعة قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض[٢] ورسول اللَّه ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره فرفع النبي ﷺ رأسه ثمّ قال: «اللَّهم عليك بقريش» ثلاث مرات يدعو عليهم فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد

(١) سلا الجزور المكان الذي يكون فيه الولد وهي المشيمة بالنسبة للإنسان ويقصدون بذلك سلا ناقة ميتة.
(٢) يتمايلون على بعضهم.

مستجابة، [كيف وهم يعلمون أن النبي ﷺ صادق وأنه نبي حقاً صلوات اللّه وسلامه عليه كما قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]] قال: اللّهم عليك بأبي جهل، اللّهم عليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعد السابع يقول عبد اللّه: ولم أحفظه، والذي نفسي بيده لقد رأيت الذي عدّ رسول اللّه ﷺ صرعى في القليب قليب بدر[١]، أخرجه البخاري[٢].

وكذلك أخرج مسلم[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ [يعني يسجد بين أظهركم وأنتم سكوت]؟ قالوا: نعم. قال: واللات والعزى لإن رأيته لأطأنّ على رقبته ولأعفرنّ وجهه، فأتى أبو جهل رسول اللّه ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبته فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقيه بيديه. فقال له الناس: ما لك يا أبا الحكم؟ ما الذي حدث؟[٤] قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولًا وأجنحة.

قال أبو هريرة: فقال رسول اللّه ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضوا».

وروى البخاري في صحيحه[٥] عن عروة بن الزبير قال: سألت عبداللّه بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ. فقال

---

(١) في معركة بدر كلهم قد صرعوا.
(٢) (٢٤٠، ٥٢٠).
(٣) (٢٧٩٧).
(٤) أبو جهل كان يكنى بأبي الحكم لما يرونه من رجاحة عقله.
(٥) (٣٦٧٨، ٣٨٥٦).

عبداللَّه: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ وهو يقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه؟!

هذا ما وقع للنبي ﷺ وأما ما وقع لأصحابه فكثير ومنه:

* **عثمان بن عفان**: كان عمّه يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته.

* **مصعب بن عمير**: لما علمت أمه بإسلامه طردته من بيتها وأجاعته وكان من أنعم الناس عيشاً.

* **بلال بن رباح**: كان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثمّ يقول: لا واللَّه لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ﷺ وتعبد اللات والعزى فيقول بلال: أحد، أحد.

هذا عذاب أمية لبلال، وأمّا أمية فكان ينال عذاباً أكثر من هذا العذاب وهو بقول بلال: أحد، أحد، إذ كانت أشد على أمية من عذاب بلال رضي الله عنه فمر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه رضي الله عنه وقيل: إن أبا بكر لما جاء ليشتريه قال: بكم تبيعونه؟ قالوا: قل أنت. قال: تبيعونه بخمسمئة؟ قال أمية: بعتك. فاشتراه أبو بكر فقال: أمية لو دفعت أقل من هذا لأعطيناكاه. فقال أبو بكر - يُظهر قيمة بلال عند اللَّه تبـــارك وتعالى-: لو طلبت أكثر من هذا لدفعت.

عمار بن ياسر وأمه وأبوه: كانوا يخرجونهم إلى البطحاء ويعذبونهم وكان النبي ﷺ يمر بهم ويقول: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. فمات ياسر،

وماتت سمية أم عمار في العذاب، وهي كما يقال: أول شهيدة في الإسلام .

وبلغ الاضطهاد أشدّه حتى إن خباب بن الأرت ﵁ يقول: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين فقلت: ألا تدعو اللَّه؟ فقعد وهو محمر وجهه وقال: «قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعظم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه يشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ولَيُتِمَّن اللَّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا اللَّه عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه[1] .

ومع هذه الاضطهادات كلها كان اللَّه تبارك وتعالى مع أوليائه كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨].

عودة إلى الدعوة السرية: لما زاد الإيذاء رجع النبي ﷺ إلى الدعوة السرية وذلك في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وكانت دار الأرقم على الصفا بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها النبي ﷺ لتكون مكاناً لاجتماعه بأتباعه صلوات اللَّه وسلامه عليه وقد كانت هذه الاضطهادات في بداية السنة الرابعة من دعوة النبي ﷺ .

❊ ❊ ❊

---

(١) (٦٩٤٣).

الهجرة إلى الحبشة

كان من حرص النبي ﷺ على أصحابه أنه لما رأى كثرة الاضطهاد أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وكان ملك الحبشة حينئذ يقال له أصحمة، وقد ذُكر بالعدل، فقال النبي ﷺ لبعض المسلمين: اذهبوا إلى أصحمة فإنه ملك عادل لا يُظْلم عنده أحد(١).

وكانت الهجرة الأولى سنة خمس من النبوة فهاجر اثنا عشر رجلًا وأربع نسوة وكان رئيسهم عثمان بن عفان رضي اللَّه تبارك وتعالى عنهم ومعه بنت النبي ﷺ رقية رضي اللَّه تبارك وتعالى عنها.

وحدث في تلك السنة في رمضان أن النبي ﷺ خرج إلى الحرم، وهناك جمع كبير من قريش في نواديهم كما هي عادتهم فقام فيهم وأخذ يتلو سورة النجم ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [سورة النجم: ١ - ٥] هذه السورة بما احتوته من معان وألفاظ عجيبة لم يسمعوا مثلها أبداً فلما وصل ﷺ إلى هذه الآية ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ سجد صلوات اللَّه وسلامه عليه، فلم يتمالك أحد منهم نفسه حتى خروا ساجدين، كل أهل مكة، وذلك أن روعة هذه الآيات أخذت بألبابهم فظن بعض الناس أنهم آمنوا، وأنهم تابعوا النبي ﷺ، ووصل الخبر إلى أهل الحبشة أن قريشاً كلها دخلت في الإسلام، فرجعوا إلى مكة في السنة نفسها في شوال، فلما وصلوا تبين لهم أن الأمر ليس كذلك، وأن ذلك السجود إنما وقع منهم اعترافاً وإقراراً من داخل نفوسهم

(١) سيرة ابن كثير (٢/ ١٧٢) وإسناده صحيح.

بصحة نسبة هذا القرآن إلى اللَّه تبارك وتعالى لا اتباعاً للنبي ﷺ.

المهاجرون إلى الحبشة:

جعفر بن أبي طالب، عثمان بن عفان، خالد بن سعيد بن العاص، عبد الله بن جعفر ولد بالحبشة، أبو سلمة بن عبد الأسد، حاطب بن الحارث، ابن وهب عبد الله بن شهاب بن الحارث، معمر بن عبد الله من بني عدي، المطلب بن أزهر، سفيان بن معمر، شرحبيل بن حسنة، عمرو بن سعيد بن العاص، عبيد الله بن جحش.

المهجرات إلى الحبشة:

أسماء بنت عميس، رقية بنت النبي، همينة بنت خالد، أمة بنت خالد بن سعيد، أم سلمة، أم حبيبة بنت أبي سفيان.

قصة الغرانيق

جاء في بعض الروايات قصة يقال لها قصة الغرانيق وهذه القصة مجملها أن النبي ﷺ لما قرأ سورة النجم وبلغ قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] سمعت قريش النبي ﷺ بعد ذلك يقول: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى فتكون هكذا أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى فسجد أهل مكة مع النبي ﷺ لأنه مدح أصنامهم وأثنى عليها.

وهذه القصة باطلة ليس لها سند صحيح وإن ذكرها بعض أهل العلم والدليل على بطلانها:

أولًا: أن النبي ﷺ لا يمكن أبداً أن يقول مثل هذا الكلام وذلك أن هذا الكلام كفر كيف يثني النبي ﷺ على اللات والعزى.

ثانياً: هذه الرواية تخالف رواية صحيحة في البخاري والتي ذكرناها قبل قليل أن النبي ﷺ إنما قرأ سورة النجم كاملة. فسجدت قريش لهذه السورة لا لأجل ما ذكر أنهم سمعوه من الثناء على أصنامهم.

ثالثاً: ذكر بعض الرواة أن الشيطان ألقاها (أي هذه الكلمات) على النبي ﷺ ولم يشعر وهذا باطل إذ إن النبي ﷺ لا يمكن أبداً أن يخلط بين قول اللّه وقول الشيطان.

رابعاً: سند هذه القصة ضعيف.

فلا شك إن هذه الدلائل كلها تؤكد على بطلان هذه القصة، وعلى فرض

صحتها وأنها وقعت كذلك فإنما يكون الشيطان هو الذي قال هذا لكفار مكة ولم يسمعوا ذلك من النبي ﷺ، فيكون النبي ﷺ إنما قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فقام الشيطان وقال مقلداً صوت النبي ﷺ: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى. فظن أهل مكة أن النبي ﷺ هو الذي مدح آلهتهم وليس الأمر كذلك. وذلك أن الشيطان قلد صوت النبي ﷺ.

❊ ❊ ❊

الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما رجع المهاجرون من الحبشة إلى مكة ورأوا حقيقة الأمر وجليته، وهو أن كفار مكة ما دخلوا في الإسلام، وأن تلك كانت إشاعة، هاجروا مرة ثانية إلى الحبشة ولم يهاجر الجميع وإنما بقي بعضهم، كعثمان رضي الله عنه وزوجه رقية بنت النبي وبعضهم هاجر مرة ثانية وتبعهم آخرون، فكانت الهجرة الثانية وكان فيها ثلاثة وثمانون رجلًا من أصحاب النبي ﷺ وثماني عشرة أو تسع عشرة امرأة.

* * *

نصرة أبي طالب للرسول ﷺ

ذهب سادات قريش إلى أبي طالب عم الرسول ﷺ مرة ثانية فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك ولم تنهه، وإنّا واللَّه لا نصبر على هذا، يأتي ويقرأ القرآن بين أظهرنا هذا ما لا نتحمله أبداً، من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تَكُفَّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. وهذا تهديد شديد من قريش لأبي طالب عم النبي ﷺ، فلما رأى أبو طالب هذا الأمر قد اشتد بعث إلى رسول اللَّه ﷺ وقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني وقالوا لي: كذا وكذا وذكر له ما قالوا، فأَبقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن النبي ﷺ أن عمه سيخذله وأنه ضعف عن نصرته، فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «يا عم واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك دونه ما تركته»، ثمّ استعبر صلوات اللَّه وسلامه عليه وبكى وقام وترك أبا طالب عمه واجماً من هذا الكلام الذي قاله ﷺ.

وهذه الرواية وإن كانت لا تصح سنداً وهي قول النبي ﷺ واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري . . . إلخ كما ذكر أهل العلم أن السيرة يتسامح بها، ولا بأس بذكرها لأن النبي ﷺ ثبت أنه لم يتنازل، ولكن هل قال هذه الكلمة بذاتها أو قال غيرها العلم عند اللَّه تبارك وتعالى.

فلما مشى النبي ﷺ وترك أبا طالب واجماً انتبه أبو طالب ثمّ نادى النبي ﷺ فرجع إليه ﷺ فقال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت

واللَّه لا أسلمك لشيء أبدا، وذكر أبياتاً طيبة يبين فيها صدقه مع رسول اللَّه ﷺ وإنه ناصره وإنه لن يسلمه إلى كفار مكة أبداً قال:

واللَّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوَسّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر وقَرّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت إنك ناصحي فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفتُ بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وفي هذه الأبيات يبين أبو طالب أنه لن يخذل النبي ﷺ ولكنه أيضاً أبى أن يدخل في الإسلام ولعل من الحكمة في ذلك أنه لو دخل في الإسلام لاجترأ عليه كفار مكة كما اجترؤوا على غيره. ولكنه بقي على دينهم فلم يتجرؤوا عليه.

قال هذه الأبيات فانصرف النبي ﷺ فرحاً بما سمع من أبيات ومن كلام أثلج صدره من عمه أبي طالب، فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى أن يخذل النبي ﷺ وأنه مجمع على فراقهم، ذهبوا إلى عمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا عمارة نعطيك أبا طالب فتكون ولداً له ونأخذ محمدا بدلًا منك ثم نقتله وجاؤا أبا طالب وقالوا: يا أبا طالب إن هذا الفتى (أي عمارة بن الوليد بن المغيرة) أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه لك عقله ونصره[١]، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرّق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل. فقال أبو طالب: واللَّه لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم

(١) والعقل يعني ما تتحمله العاقلة في القتل وما شابه ذلك وهم الأقارب.

وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا واللَّه ما لا يكون أبدا.

والملاحظ من موقف أبي طالب من النبي ﷺ ومن كفار مكة يستغرب كيف أن أبا طالب لم يسلم ولم يتابع النبي ﷺ ولو وقفنا مع قول أبي طالب: لولا الملامة أو حُذاري سُبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا هذا الذي منع أبا طالب من اتباع النبي ﷺ فهو يعلم أن النبي ﷺ حق ولذلك قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فهم يعلمون الحق ويعلمون أن ما جاء به النبي ﷺ حق وأنه رسول من عند اللَّه وأن الذي يتلوه ليس شعراً ولا سحراً ولا كهانة ولكنه الكبر والعياذ باللَّه تعالى.

❊ ❊ ❊

إسلام حمزة

جاء نصر من اللَّه تبارك وتعالى بإسلام رجلين أما الأول فهو حمزة عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب وسبب إسلامه أن أبا جهل عدو اللَّه مرّ برسول اللَّه ﷺ وهو عند الصفا، فآذاه وسبه، ورسول اللَّه ﷺ ساكت لا يكلمه، ثمّ قام أبو جهل فحمل حجراً فضرب به رأس النبي ﷺ فشجه حتى نزف منه الدم ثمّ انصرف عنه إلى نادي قريش فجلس معهم، وكانت مولاة لعبد اللَّه بن جدعان رأت ذلك فلما أقبل حمزة من القنص متوشحاً قوسه، جاءته هذه الأمة فأخبرته بما رأت، وبما فعل أبو جهل بالنبي ﷺ، فغضب حمزة رضي الله عنه وكان رجلًا شديداً، وكان في عنفوان شبابه، ومن أشجع قريش في ذلك الوقت، ومحمد ابن أخيه فخرج يسعى حتى جاء أبا جهل فلما دخل قام على رأسه وقال له: تشتم ابن أخي وأنا على دينه ثمّ سبه وضربه بالقوس فشجّ وجهه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم قوم أبي جهل وثار رجال من بني هاشم لحمزة حتى كادت أن تكون معركة بين الحيين، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحا.

قال حمزة رضي الله عنه : فلما خرجت فكرت في الأمر فقلت: كيف قلت أنا على دينه وأنا لم أسلم بعد! فما هو إلا أن شرح اللَّه تبارك وتعالى صدري للإسلام وذلك أنه ذهب للنبي ﷺ فقال: يا ابن أخي إني قلت كذا وكذا فماذا أصنع؟ فدعا له النبي ﷺ أن يشرح اللَّه تبارك وتعالى صدره للإسلام فشرح اللَّه جل وعلا صدره للإسلام وأسلم وكان إسلامه نصراً للمؤمنين.

إسلام عمر

وأما إسلام عمر وهو النصر الثاني فإن النبي ﷺ قد ثبت عنه أنه قال: «اللَّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام» (هو أبو جهل) .

وقصة إسلامه فيها أكثر من رواية ولكن أقرب الروايات إلى الصحة هي أن عمر رضي الله عنه قال: خرجت يوماً إلى البيت فدخلت في ستر الكعبة والنبي ﷺ قائم يصلي وقد استفتح سورة الحاقة فجعل النبي ﷺ يقرأ وأنا أستمع وأعجب من تأليفه[1] فقلت في نفسي هذا واللَّه شاعر كما قالت قريش فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤١] فقلت في نفسي كاهن فقرأ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٢ - ٤٣] فوقع الإسلام في قلبي.

ولما أسلم عمر جاء إلى رجل يقال له جميل بن معمر وهذا الرجل نقالة للحديث لا يحفظ سراً، فقال له: أريد أن أخبرك شيئاً. قال: وما هو؟ فقال له: أسلمت. فقام هذا الرجل فنادى بأعلى صوته إن ابن الخطاب قد صبأ، إن ابن الخطاب قد صبأ، ويسير فيها إن ابن الخطاب قد صبأ، وعمر بن الخطاب يجري خلفه ويقول: كذب ولكني أسلمت فقاموا إلى عمر رضي الله عنه فصاروا يضربونه وهو يضربهم ويضربونه هكذا حتى ارتفعت الشمس وذكرت بعض الروايات أنهم ضربوه حتى سقط مغشياً عليه من شدة ضربهم.

---

(١) من تأليف هذا القرآن.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، وقال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر.

شهادة الأعداء

دخل الأخنس بن شريق على أبي جهل فقال له: إني سائلك فاصدقني وليس هاهنا أحد يسمعنا؟ قال: سَلْ عما بدا لك.

فقال: هل محمد صادق أم كاذب؟

قال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهبت بنو قصي بالسقاية والرفادة والنبوة فما يكون لسائر قريش.

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وأعطوا فأعطينا وحملوا فحملنا[١] حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نَبِيٌّ. فأنَّا يدرك هذا؟ لا والله لا نصدقه أبداً.

والأمر كما قيل: الفخر ما شهدت به الأعداء.

* * *

(١) أي حملوا الديات.

عتبة بن ربيعة يحاول مع النبي ﷺ

كان عتبة بن ربيعة في نادي قريش ورسول اللَّه ﷺ في المسجد وحده فقال عتبة: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنّا؟ وذلك أنه بعد إسلام حمزة وعمر رأت قريش أن أصحاب النبي ﷺ يزيدون. فقالوا له: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة فجلس إليه فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمت وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فَرَّقت به جماعتهم، وسَفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً فانظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال النبي ﷺ: يا أبا الوليد قل أسمع. قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل(١) حتى يداوى منه، فصار يتكلم والنبي ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال له النبي ﷺ: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع أنت مني»، قال: أفعل، فقرأ النبي ﷺ بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾

(١) يعني الجني فيكون فيك صرع وجنون.

[فصلت: ١ - ٥] فلما وصل النبي ﷺ إلى موضع السجدة في سورة فصلت ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [٣٨]، سجد صلوات اللَّه وسلامه عليه ثمّ رفع رأسه فقال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

ما تكلم صلوات اللَّه وسلامه عليه من كلام البشر أبداً وإنما قرأ عليه كلام رب البشر سبحانه وتعالى وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ لما بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فقام عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ وقال: أنشدك اللَّه والرحم يعني لا تفعل لا تدع اللَّه علينا أن يأتينا بصاعقة.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض وهم يرونه قادماً: نحلف باللَّه لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي إني سمعت قولًا واللَّه ما سمعت مثله قط، واللَّه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها فيّ وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللَّه ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك واللَّه يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

المقاطعة

بعد أن خرج عتبة بن ربيعة من عند النبي ﷺ وقال ما قال رأت قريش أنه لا بد من حل لهذه المشكلة التي وقعت لهم، فرأوا أن تكون المقاطعة التامة لبني هاشم وذلك أنهم اجتمعوا فتحالفوا على بني هاشم على:

١- أن لا يناكحوهم.
٢- ولا يبايعوهم.
٣- ولا يجالسوهم.
٤- ولا يكلموهم.

وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموا لهم رسول اللّه ﷺ فيقتلوه، وتمّ هذا الميثاق وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم مؤمنهم وكافرهم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم، إلى النبي ﷺ، إلا أبا لهب عم النبي ﷺ وبعض بني المطلب، فخرج النبي ﷺ إلى شِعب يقال له شِعب أبي طالب وجميع من أسلم معه وجميع بني هاشم عدا أبى لهب، وجميع بني المطلب عدا ثلاثة أو أربعة فقط، واستمرت هذه المقاطعة ثلاثة أعوام، واشتد الحصار على النبي ﷺ ومن معه حتى بلغهم الجَهد وألجئوا إلى أكل الأوراق والجلود، والغريب في هذه المقاطعة أن كفار بني هاشم وكفار بني المطلب خرجوا مع النبي ﷺ! وهذا يبين لنا أن الحمية العربية كانت قوية ومؤثرة، ولو قال قائل: خرج بنو هاشم مع النبي ﷺ لأنهم من أبناء عمومته فما بال بني المطلب؟ ولِمَ لم يخرج بنو عبد شمس وبنو نوفل مع أن عبد شمس ونوفلًا وهاشماً والمطلب كل هؤلاء أخوةأبوهم عبد مناف.

والجواب: أن بني المطلب وبني هاشم علاقتهما مع بعضهما أقوى من علاقة بني هاشم مع بني عبد شمس أو بني نوفل وكذلك من علاقة بني المطلب مع عبد شمس أو نوفل وهذا من قديم ولذلك جاءت رواية عن جبير ابن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع النبي ﷺ سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس، فأتيت أنا وعثمان بن عفان (لأن جبير بن مطعم من بني نوفل وعثمان بن عفان من بني عبد شمس) رسول اللَّه ﷺ فقلنا: يا رسول اللَّه هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم بالموضع الذي وضعك اللَّه به منهم فما بال إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال النبي ﷺ: «إنّا (أي بنو هاشم وبنو المطلب) لم نفترق في جاهلية ولا إسلام، إنما نحن وهم شيء واحد و شبك بين أصابعه صلوات اللَّه وسلامه عليه»[(١)].

ولذلك كانت العرب في السابق في الجاهلية قبل الإسلام بل وقبل مولد النبي ﷺ يقولون عن هاشم والمطلب: البدران ويقولون عن عبد شمس ونوفل: الأبهران.

وكان أبو طالب خلال هذه السنوات الثلاث يخاف على النبي ﷺ من الاغتيال، فكان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام تركه أبو طالب فترة ثمّ أيقظه وغير مكانه لينام غيره مكانه.

* * *

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود (٢٩٨٠). وأصله في البخاري (٣١٤٠).

قصة نقض الصحيفة

وبعد ثلاث سنوات نُقِضت هذه الصحيفة، والذي أشعل فتيل نقضها رجل يقال له هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وكان هذا الرجل يصل بني هاشم في الشِعب يوصل إليهم بعض الأطعمة فذهب إلى زهير بن أبي أمية، وزهير هذا أمه عاتكة بنت عبد المطلب فهو ابن عمة النبي ﷺ فقال له: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك فما اصنع وأنا رجل واحد؟ أما واللّه لو كان معي رجل آخر.

قال: قد وجدت لك رجلًا آخر، قال: فمن؟ قال: أنا. قال له زهير: أبغنا رجلًا ثالثاً فذهب هشام بن عمرو إلى المطعم بن عدي والمطعم من بني المطلب فجاءه وذكَّره أرحام بني هاشم وبني المطلب ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم فقال المطعم: ويحك ماذا أصنع إنما أنا رجل واحد؟ قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال: فعلت، قال: من؟ قال: زهير بن أبي أمية قال: أبغنا رابعاً، فذهب هشام بن عمرو إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحواً مما قاله للمطعم فقال: فهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا معك قال أبغنا خامساً، وهذا يبين لنا أن الكثيرين ما كانوا يرضون بهذا ولكنها سلطة الكبار، اتخذ القرار أبو جهل وعتبة وأبو سفيان وأبو لهب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وغيرهم اتخذوا هذا القرار وكان على الجميع السمع والطاعة، فذهب هشام بن عمرو إلى زمعة بن الأسود بن المطلب ويقال إنه والد سودة بنت زمعة أم المؤمنين فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له زمعة: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: زهير بن

أبي أمية والمطعم بن عدي و أبو البختري بن هشام وأنا، فقال زمعة بن الأسود: وأنا معكم فاجتمعوا وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ولكن كيف؟ وكبار قريش هم الذين كتبوها وهم الذين اتفقوا عليها، كيف يستطيع هؤلاء الخمسة أن ينقضوا تلك الصحيفة؟ قال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم، فوافقوا على ذلك فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم (أي إلى أماكن اجتماعاتهم) حول الكعبة وغدا زهير فطاف بالبيت سبعاً ثمّ أقبل على الناس وقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاعون منهم واللَّه لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقام أبو جهل وقال: كذبت واللَّه لا تشق.

هنا قام زمعة بن الأسود فقال لأبي جهل: أنت واللَّه أكذب ما رضينا كتابتها حين كُتبت فقام أبو البختري فقال: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نَقِرُّ به فقام المطعم بن عدي فقال: صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى اللَّه منها ومما كتب فيها فقام هشام بن عمرو فقال: صدقتم وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى اللَّه منها، عندما تكلم هؤلاء الخمسة بهذه الصورة أمام الناس جميعاً، قال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تُشُوور فيه بغير هذا المكان وكان أبو طالب موجوداً فقال: إن اللَّه قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة وقد أخبرني ابن أخي أن اللَّه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ما فيه حق، فإن كان ابن أخي صادقاً فتنهوا هذه المقاطعة وإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه، قالوا: أنصفت. فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فوجدها قد أُكلت، ما بقي فيها إلا قولهم باسمك اللَّهم وما كان غير ذلك قد أكل كله، فرجع النبي ﷺ ورجع من معه إلى مكة مرة ثانية.

❋ ❋ ❋

العودة إلى الدعوة

رجع النبي ﷺ مرة أخرى إلى الدعوة إلى اللَّه تبارك وتعالى فلم يصبر كفار قريش وانطلقوا إلى أبي طالب قائلين له: ليكف عنا ابن أخيك لسانه. فجاء أبو طالب وجاء معه نفر من قريش فكلموا النبي ﷺ وقالوا له: ماذا تريد منا؟ قال: أريد كلمة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» قالوا: كلمة؟ قال: «كلمة». فقام أبو جهل وقال: وأبيك أعطيك مئة كلمة. فقال النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا اللَّه». فقال أبو جهل: أما هذه فلا.

هذه الكلمة لا نعطيكها أبداً، أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً يا محمد؟ فأنزل اللَّه تبارك وتعالى بسم اللَّه الرحمن الرحيم، ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ١ - ٧].

نرى أن كفار مكة امتنعوا عن قول لا إله إلا اللَّه، فلم لم يقولوا للنبي ﷺ: لا إله إلا اللَّه ثمّ بعد ذلك يبقون على دينهم الذي هم عليه؟ لأن أبا جهل، وعتبة، و عقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وأبا لهب، وغيرهم كثير، كل هؤلاء يعلمون علم اليقين معنى لا إله إلا اللَّه، وملايين المسلمين الآن في زماننا هذا لا يعرفون معنى هذه الكلمة، أبو جهل يعلم أنه إذا قال لا إله إلا اللَّه أنه سيلتزم بها، وأنه سيترك جميع الأصنام، وأنه لن يدعو

إلا اللَّه، ولن يذبح إلا للَّه، ولن ينذر إلا للَّه، ولن يخاف إلا من اللَّه، ولن يستغيث إلا باللَّه، ولن يصلي إلا للَّه، ولن يطوف إلا للَّه، ولن يطيع إلا اللَّه ورسوله . يعلم ما يترتب على هذه الكلمة ولكن الكثير من المسلمين الآن يقولون: لا إله إلا اللَّه ولكنهم يذبحون لغير اللَّه، وينذرون لغير اللَّه، ويخافون من غير اللَّه، ويستغيثون بغير اللَّه، ويسألون غير اللَّه تبارك وتعالى، وهذا كله بسبب الجهل .

❊ ❊ ❊

وفاة أبي طالب

سكتت قريش عن النبي ﷺ فترة من الزمن ثمّ كانت وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ وذلك سنة عشر من النبوة بعد خروجهم من الشعب بستة أشهر.

عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب رضي الله عنه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد اللَّه بن أبي أمية [أخو أم سلمة أم المؤمنين هند بنت أبي أمية]، فقال نبي اللَّه ﷺ لعمه أبي طالب: «أي عم قل لا إله إلا اللَّه كلمة أحاج لك بها عند اللَّه». فقال أبو جهل وعبد اللَّه بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فأعاد النبي ﷺ عليه وهما يعيدان والنبي يعيد وهما يعيدان فلم يزالا به حتى قال آخر كلمة: هو على ملة عبد المطلب ثمّ مات بعد ذلك. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك فنزل قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ونزل كذلك قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

وفي هذه القصة من الفوائد الشيء الكثير منها:

أن النبي ﷺ كان حريصاً على إسلام أبي طالب، وواللَّه لو قال أبو طالب تلك الكلمة لنفعته وذلك أنه قد ثبت عن النبي ﷺ عند البخاري[(٢)] وغيره أنه دخل على غلام يهودي وهو على فراش الموت فقال له: «قل لا إله إلا اللَّه»

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٥).
(٢) (١٣٥٦، ٥٦٥٧).

فالتفت الغلام إلى أبيه؟ فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه ثمّ مات. فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد للَّه الذي نجاه من النار» فواللَّه لو قالها أبو طالب لنجاه اللَّه من النار. وواللَّه تمنينا جميعاً أن يكون أبو طالب قالها، واللَّه ما حزنا أبداً ولن نحزن أبداً لو آمن أبو طالب. ونتمنى أن يؤمن جميع الناس ولكننا مع النصوص وهو أن أبا طالب عم النبي ﷺ لم يسلم، مع أنه ناصره، و دافع عنه، وحماه، وخرج معه إلى الشعب، بل ورباه في صغره، ومع هذا كله يموت على الشرك قال ابن كثير رحمه اللَّه تعالى: كان أبو طالب يصد الناس عن أذية رسول اللَّه ﷺ وأصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ونفس ومال، ولكن مع هذا لم يقدر اللَّه تبارك وتعالى له الإيمان لما له تعالى من الحكمة العظيمة والحجة القاطعة البالغة الدامغة، التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا اللَّه عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طلب وترحمنا عليه[1].

والغريب في هذه القضية أن عبداللَّه بن أبي أمية الذي شارك أبا جهل في منع أبي طالب من الاستجابة لأمر النبي ﷺ أسلم عام الفتح، وذكروا أنه استشهد في حنين، وقد ثبت أن العباس بن عبد المطلب[2] قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك (أي أبا طالب) فإنه كان يحوطك ويغضب لك: فقال النبي ﷺ: «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل في النار». نسأل اللَّه تبارك وتعالى الهداية والعافية.

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ١٢٤).
(٢) رواه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨، ٦٥٧٢).

وفاة خديجة رضي الله عنها

بعد أن حزن النبي ﷺ على موت عمه أبي طالب جاءته الصدمة الثانية بخبر موت خديجة أم المؤمنين رضي اللّه تبارك وتعالى عنها وأرضاها فتوفيت بعد عمه أبي طالب بأشهر وقد ثبت[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

* * *

(١) رواه البخاري (١٧٩٢) ومسلم (٢٤٣٢).

الدعوة في الطائف

بعد وفاة أبي طالب ووفاة خديجة رضي اللَّه تبارك وتعالى عنها وأرضاها، خرج النبي ﷺ من مكة إلى الطائف يدعو إلى اللَّه تبارك وتعالى، وذلك أن النبي ﷺ جلس تلك السنوات العشر في مكة يدعو إلى اللَّه تبارك وتعالى، ثمّ رأى صلوات اللَّه وسلامه عليه أن يخرج من مكة ويبدأ بالدعوة خارجها، فأول ما فكر صلوات اللَّه وسلامه عليه بالطائف، فخرج مشياً على قدميه معه زيد بن حارثة مولاه وخادمه، وكان النبي ﷺ قد تبناه في أول الأمر فكان يسمى بزيد بن محمد حتى نزل قول اللَّه تبارك وتعالى ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥] فصار ينادى بعد ذلك بزيد بن حارثة.

لما وصل النبي ﷺ إلى الطائف عمد إلى ثلاثة أخوة من رؤساء ثقيف وهم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي ودعاهم إلى اللَّه وإلى نصرة دينه فقال أحدهم عن نفسه: إنه يمزق ثياب الكعبة إن كان اللَّه أرسل محمداً ﷺ، وقال الآخر لنبي اللَّه ﷺ: أما وجد اللَّه أحداً غيرك؟ وقال الثالث: واللَّه لا أكلمك أبداً إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على اللَّه ما ينبغي أن أكلمك. هكذا عامل هؤلاء الثلاثة النبي ﷺ بتلك القسوة وذلك الاستهزاء، وهو قد خرج من بلده ودخل إلى بلد هو غريب فيها يدعو إلى اللَّه تبارك وتعالى، ولكنه ووجه بهذه الكلمات التي ملؤها الاستهزاء والسخرية .

وليت الأمر بقي على ذلك ولكن الطين زاد بلة وذلك أنهم قالوا له: اخرج من بلادنا، ثمّ أغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه السفهاء والعبيد

والصبيان يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس فوقفوا صفين، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه حتى أصابوا عراقيبه (أي قدميه) صلوات اللَّه وسلامه عليه واختضب النعال بالدم، وكان زيد ﵁ يقي النبي ﷺ بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، فصار النبي ﷺ يمشي وهؤلاء يضربونه صلوات اللَّه وسلامه عليه حتى التجأ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة في الطائف، فدخل رسول اللَّه ﷺ الحائط فجاء إلى حبلة من عنب[١] فجلس تحت ظلها إلى جدار، ودعا بدعاء ملؤه اللجوء والرغبة بما عند اللَّه تبارك وتعالى والذي من خلاله يظهر للمؤمن كيف أنه يجب عليه دائماً أن يصدق مع اللَّه، وأن يلتجأ إليه، في كل أمره فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة تحركت له الرحم وذلك أنهما من قريش فدعوا غلاماً لهما وهو نصراني يقال له: عدّاس وقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل فلما جاء عدّاس وضعه بين يدي النبي ﷺ فمدّ يده ﷺ وقال: بسم اللَّه ثمّ أكل.

* * *

(١) شجرة صغيرة.

من الدعوة إلى الهجرة

بعد رجوعه من الطائف ﷺ أراد اللَّه جل وعلا أن يخفف عنه وأن يبين أنه معه سبحانه وتعالى ولكنه يبتليه ليرفع درجته أخرج الإمامان البخاري ومسلم بسنديهما[(١)] عن عروة بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدثته أنها قالت للنبي ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال ﷺ: «لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب[(٢)]، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني وقال: إن اللَّه قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث اللَّه إليك ملَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلّم عليَّ ثمّ قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت[(٣)] فقال النبي الكريم الرحيم الحليم المشفق على أمته صلوات اللَّه وسلامه عليه [وهكذا يجب على الداعية إلى اللَّه تبارك وتعالى أن ينظر إلى العصاة وإلى الصادين النادين عن أمر اللَّه تبارك وتعالى نظرة المشفق عليهم] قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج اللَّه عز وجل من أصلابهم من يعبد اللَّه عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً».

وسلَّاه اللَّه تبارك وتعالى بأمر آخر وهو أنه في طريق عودته بعث إليه نفراً

---

(١) البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).
(٢) الذي الآن يقال له قرن المنازل الذي هو السيل.
(٣) والأخشبان هما جبلا مكة أبو قبيس وقعيقعان

من الجن، والجن كالإنس مكلفون مأمورون بالإيمان منهيون عن الكفر من أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار فبعث اللّه إلى النبي ﷺ جماعة من الجن ذكرهم اللّه تبارك وتعالى فقال ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١] هكذا أرسل اللّه تبارك وتعالى نفراً من الجن[١] كأنه يقول لنبيه ﷺ إن كان أحزنك كفر أهل مكة وكفر أهل الطائف، وإيذاؤهم لك فقد أرسل اللّه تبارك وتعالى إليك من آمن بك من الجن، وهذه لا شك تُفرح النبي ﷺ وتسعده، وسار رسول اللّه ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء وبعث رجلًا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره حتى لا يُؤذى بعد وفاة عمه أبي طالب فقال الأخنس بن شريق: أنا حليف أي لست من أهل مكة والحليف لا يجير. فبعث النبي ﷺ إلى سهيل ابن عمرو يطلب منه الجوار فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب أي لا أستطيع أن أجيرك عن كل أهل مكة فبعث النبي ﷺ إلى المطعم بن عدي فقال المطعم: نعم. ثمّ تسلّح ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً، ثمّ بعث إلى رسول اللّه ﷺ أن ادخل فدخل الرسول ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إنّي قد أجرت محمدا فلا يهجه منكم أحد. وانتهى رسول اللّه ﷺ إلى الركن

---

(١) انظر البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩).

فاستلمه وصلى ركعتين ثمّ انصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وأولاده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته، وقام أبو جهل إلى المطعم بن عدي فقال أمجير أنت أم متابع؟ قال: بل مجير. فقال أبو جهل: قد أجرنا من أجرت. وهذا التصرف من المطعم بن عدي يظهر لنا أمراً مهماً يجب علينا أن نقف عنده قليلًا ألا وهو أن اللَّه تبارك وتعالى لما بعث النبي ﷺ إنما بعثه من العرب، وذكر أهل العلم في ذلك حكماً كثيرة فمن أعظم هذه الحكم أن العرب لهم من الصفات ما ليس لغيرهم فنجد أن العربيّ كريم يضرب في كرمه المثل، شجاع لا يهاب شيئاً، يحافظ على حق الجار ألم يقل عنترة ذاك الجاهلي:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مثواها

وهم أهل صدق باللسان وسيأتينا في قصة أبي سفيان مع هرقل قول أبي سفيان: واللَّه لولا أن العرب تحسب عليّ كذبة لكذبت يقول هذا وهو في جاهليته، ثمّ الجوار هذا الذي قام به المطعم بن عدي، وفيهم الأنفة، والأخوة، والأمانة يموت الرجل في سبيل أن يدافع عن أمانته و قصة السموأل مع امرئ القيس مشهورة جداً لما جعل عنده ابنته أمانة مات في سبيل الدفاع عنها، وصفات أخرى لأجلها جميعاً ولغير ذلك من الحكم اختار اللَّه تبارك وتعالى العرب دون غيرهم.

فهذا المطعم بن عدي على الشرك متابع لقومه، معاد للنبي ﷺ، يبغض دينه، قاطع النبي ﷺ مع من قاطع، مع هذا كله يأتيه النبي ﷺ فيقول له: أجرني حتى أدخل إلى بلدي. فيقول: نعم ثمّ ماذا يفعل؟ يأمر أولاده أن يتسلحوا دفاعاً عن النبي ﷺ لأنه أجاره فيدخل النبي ﷺ في جوار المطعم بن عدي، ثمّ هذا أبو جهل يسأل المطعم بن عدي أمجير أم متابع؟ قال: بل

مجير. قال: قد أجرنا من أجرت كما قال ابن خلدون رحمه اللَّه تبارك وتعالى: إن العرب قد اجتمعت فيهم صفات كثيرة من الحُسن وإنما كانوا يحتاجون إلى دين يربطهم ويقوِّم من سلوكهم.

فبعث اللَّه تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بهذه الشريعة السمحة وبهذا الدين القيم فلما اختارت العرب هذا الدين نصر اللَّه بهم الدين ونشره في المعمورة وحُق لهم ذلك.

والنبي ﷺ ما نسي هذا للمطعم بن عدي وذلك أن النبي ﷺ في قضية أسرى بدر لما خُيِّر بين القتل والمنّ والفداء قال: لو كان المطعم بن عدي حياً ثمّ سألني أولئك النتنى لأعطيتهم إياه أو لتركتهم له.

❊ ❊ ❊

بدء استجابة أهل المدينة

دخل النبي ﷺ إلى بلده مرة ثانية إلى مكة، إلى البيت الحرام، إلى مصدر النور الذي ابتدأه النبي ﷺ إلى حيث قومه ودعوته في ابتدائها، فلما كان موسم الحج في السنة الحادية عشرة من النبوة مر النبي ﷺ بمنى فسمع أصوات رجال من الحجاج وكانوا ستة نفر من أهل يثرب وكلهم من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة وعوف ابن الحارث ورافع بن مالك وقطبة بن عامر وعقبة بن عامر وجابر بن عبد اللَّه، وكان من سعادتهم أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من اليهود أن نبياً مبعوث في هذا الزمان إذ كانت اليهود دائماً تقول للأوس والخزرج هذا أوان خروج نبي وسنتابعه ونقتلكم شر قِتلة، فلما جاءهم النبي ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: من الخزرج. قال: من موالي اليهود؟ [يعني بينكم وبين اليهود حلف] قالوا: نعم قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فذكر لهم دعوته والدين الذي يدعو إليه وقرأ عليهم بعض آيات من كتاب اللَّه تبارك وتعالى فقال بعضهم لبعض تعلمون واللَّه يا قوم إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنّكم إليه فأسرعوا إلى إجابته وأسلِموا فأسلَموا وتابعوا النبي ﷺ.

وفي هذه السنة تزوج النبي ﷺ من عائشة رضي الله عنها ابنة أبي بكر واختلف أهل العلم في سودة فقيل: تزوجها قبل عائشة وقيل بعد عائشة رضي اللَّه تبارك وتعالى عنهما جميعاً.

❊ ❊ ❊

الإسراء والمعراج

قيل في السنة الثانية عشرة من البعثة وقيل غير ذلك ولكن هذا هو المشهور أنه قبل هجرته بسنة وشهرين كان الإسراء والمعراج وذلك في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، قال صلوات اللَّه وسلامه عليه مبيناً حادثة الإسراء التي وقعت له: إنه بينما كان في الحطيم[(١)] بين النائم واليقظان عند البيت إذ سمع قائلًا: أحد الثلاثة بين الرجلين وذلك بعدما صلى لأصحابه صلاة العتمة بمكة. قال رسول اللَّه ﷺ: «فإذا جبريل وهو أقرب الناس شبهاً بدحية بن خليفة الكلبي فأخذوني وانطلقوا بي إلى زمزم فلم يكلموني حتى وضعوني عند بئر زمزم وأتاني جبريل ففرج صدري فشق ما بين هذه إلى هذه[(٢)] إلى مراقي البطن[(٣)] حتى فرغ من صدري وجوفي فغسله بماء زمزم بيده حتى أنقى جوفي فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أُتيت بطست من ذهب فيه تور من ذهب مملوءة حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري فغسل قلبي ثمّ حشا به صدري ولغاديدي[(٤)]، ثمّ أطبقه وقال: قلب وكيع[(٥)] فيه أذنان سميعتان وعينان بصيرتان محمد رسول اللَّه المقفّي الحاشر، خلقك قيّم، ولسانك صادق، ونفسك مطمئنة قال النبي ﷺ ثمّ أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته حتى أتيتُ بيت

---

(١) هو الحِجْر.
(٢) يعني من ثغرة نحره إلى شِعْرته.
(٣) آخر البطن.
(٤) اللغاديد ما بين الحنك إلى العنق.
(٥) يعني شديد.

المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثمّ دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثمّ أخذ بيدي فانطلق بي حتى أتى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل؟ قيل: من معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به وأهلاً به فنعم المجيء جاء يستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد اللّه به في الأرض حتى يُعلِمهم ففُتح لنا فلما خلصت علوت من السماء الدنيا فإذا فيها آدم رجل قاعد على يمينه أسوِدة وعلى يساره أسوِدة، إذا نظر قِبل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل يساره بكى، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم ﷺ وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فسلّم عليه، فسلمت عليه فرد السلام فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح نعم الابن أنت ودعا لي بخير، ثمّ صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقال لخادمها: افتح فقالت الملائكة له مثل ما قالت له في السماء الأولى فلما خلصت[1] إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة فقلت: من هذان؟ قال: هذان يحيى وعيسى فسلّم عليهما فسلّمت عليهما فردا السلام ثمّ قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعوا لي بخير، ثمّ صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا له مثل ما قالوا في الأولى والثانية فلما خلصت إذا أنا بيوسف ﷺ وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن[2] فقال لي: هذا يوسف فسلّم عليه فسلّمت عليه فرد السلام ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا لي بخير، ثمّ صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح

(١) يعني إلى السماء الثانية.

(٢) نصف الجمال وهذا هو مصداق قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فقالوا له مثل ذلك فلما خلصت فإذا أنا بإدريس قلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس فسلّم عليه، فسلّمت عليه فرد عليّ ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ودعا لي بخير قال اللَّه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثمّ صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح فقالوا له مثل ذلك فلما خلصت فإذا أنا بهارون ﷺ قال: هذا هارون فسلّم عليه فسلّمت عليه فرد ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا لي بخير، قال: ثمّ صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقالوا له مثل ذلك فلما خلصت فإذا أنا بموسى ﷺ وذلك بتفضيل كلام اللَّه له، فقال موسى: رب لم أظن أن يرفع عليَّ أحد. قلت: من هذا؟ قال: موسى فسلّم عليه فسلّمت عليه فرد ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ودعا لي بخير، فلما تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي[١]. ثمّ صعد بي حتى أتى السماء السابعة فاستفتح فقالوا له مثل ذلك فلما خلصت فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور شيخ جليل مهيب، قلت: من هذا؟ قال: هذا أبوك إبراهيم ﷺ فسلّم عليه فسلّمت عليه فرد السلام ثمّ قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثمّ رفع لي البيت المعمور في السماء السابعة والذي يقال له الضُراح وهو بحيال الكعبة فوقها حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم يصلي فيه سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه أبدا[٢]، ثمّ علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا اللَّه عز وجل حتى جاء سدرة المنتهى، قال: ثمّ رُفعت لي سدرة

(١) وهذا يبين لنا أن كل نبي حريص على أمته.
(٢) وهذا يدلنا على أن عدد الملائكة عظيم جداً سبعون ألف ملك كل يوم يخلقهم اللَّه تعالى يطوفون في البيت المعمور وذلك حتى تقوم الساعة.

المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيُقبض منها فإذا نبقها مثل قلال هجر(١)، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظل الفنن منها(٢)، مئة سنة يستظل بالفنن منها مئة راكب، فقال: هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار تخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران، قلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما النهران الظاهران فالنيل والفرات. ثمّ أُتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن، فقال: أصبت. أصاب اللّٰه بك الفطرة التي أنت عليها وأمتك ثمّ أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ(٣) وإذا ترابها المسك فسمع من جانبها وجساً(٤) قال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال. قال: فسمعت خشفة(٥) فقلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: هذه الرميصاء بنت ملحان امرأة أبي طلحة. قال: بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بقصر أبيض فقلت: لمن هذا يا جبريل؟ ورجوت أن يكون لي فقال: لعمر بن الخطاب ثمّ سرت هنيهة فرأيت قصراً هو أحسن من القصر الأول من ذهب مربع يسمع فيه ضوضاء، بفنائه جارية تتوضأ إلى جانب القصر فقلت: لمن هذا القصر يا جبريل؟ ورجوت أن يكون لي فقال: هو لرجل من أمة محمد. قلت: فأنا محمد لمن هذا القصر؟ قال: لرجل من العرب. قلت: أنا عربي لمن هذا القصر؟ قال: لشاب من قريش. قال: فظننت أني أنا هو فقلت: أنا قرشي لمن هذا القصر؟ قال: لعمر بن الخطاب

(١) النبق هو ثمر السدر، والقلال هي القُلة التي يحمل فيها الماء.
(٢) والفنن هو الغصن.
(٣) يعني قبب من اللؤلؤ.
(٤) الوجس هو الصوت الخفي.
(٥) والخشفة هي الحركة الخفيفة.

وإذا فيه من الحور العين فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرته فوليت مدبرا.

وإذا بنهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب بيده فإذا طينه مسك أذفر(١) فضربت بيدي إلى تربته في مجرى الماء فإذا مسكة مُذَفرة فإذا حصاه لؤلؤ، ومَرَّ برائحة طيبة فقال: ما هذه الرائحة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها قال النبي ﷺ لجبريل وما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون إذ سقطت المدرى من يدها(٢) فقالت: بسم اللَّه فقالت لها بنت فرعون: أبي(٣)؟ فقالت لها الماشطة: لا، ولكن ربي وربك ورب أبيك قالت: أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم ربي وربك ورب أبيك اللَّه.

قالت: أقول له إذاً.

قالت: قولي له، فدعاها فقال لها: يا فلانة أولك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك اللَّه عز وجل الذي في السماء.

قال جبريل: فأمر ببقرة من نحاس(٤) فأُحميت ثمّ أُمر بها لتلقى هي وأولادها فيها فقالت له الماشطة: إن لي إليك حاجة .

قال: وما هي؟ قالت: أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا .

(١) طيب الرائحة.
(٢) والمدرى مثل المشط.
(٣) لأن فرعون كان يدعي أنه هو اللَّه.
(٤) مصنوعة من النحاس.

قال: ذلك لك علينا لما لك علينا من الحق فأمر بأولادها فألقوا في البقرة بين يديها واحداً واحدا إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضَع وكأنها تقاعست من أجله فتكلم الرضيع بإذن اللَّه تبارك وتعالى وقال لها: يا أمه قعي ولا تقاعسي اصبري فإنك على الحق، اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ثم ألقيت مع ولدها.

[فكان هذا من الأربعة الذين تكلموا وهم صبيان وهم عيسى عليه الصلاة والسلام، وابن ماشطة بنت فرعون، وصاحب جريج، وولد المرأة التي ألقيت في الأخدود في قصة أصحاب الأخدود].

فنظر النبي ﷺ في النار فإذا قوم يأكلون الجيَف فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ورأى رجلًا أحمر أزرق جعداً شعثاً إذا رأيته، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة [أي ناقة صالح عليه الصلاة والسلام]. ومرّ على قوم تُقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمّتك الذين يقولون ما لا يفعلون الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون. وقال ﷺ: لمّا عرج بي ربي عزّ وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم. ورأى ﷺ الجنّة والنّار ووعد الآخرة أجمع، ثمّ عُرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ومررت بالملأ الأعلى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى فلمّا غشيها من أمر اللَّه ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق اللَّه يستطيع أن ينعتها من حسنها عليها السندس والإستبرق، وغشيها الملائكة فراش من ذهب وتحولت ياقوتاً أو زمرداً أو نحو ذلك،

وألوان ما أدري ما هي. ثمّ فُرضت علي الصلاة خمسون صلاةً كل يوم فأوحى اللَّه إليَّ ما أوحى ثم رفع جبريل رأسه ورأيته في خلقه الذي خُلق عليه عند سدرة المنتهى في صورته له ستمئة جناح في حُلة من رفرف قد سدّ الأفق ينفض من ريشه من التهاويل والدرّ والياقوت ما اللَّه به عليم، ووجد ﷺ اسمه مكتوباً في السماء محمد رسول اللَّه قال: فنزلت أي من السماء السابعة فرجعت فمررت على موسى ﷺ فاحتبسه موسى فقال: يا محمد بم أُمرت؟ قلت: أُمرت بخمسين صلاة في اليوم والليلة. فقال له موسى ﷺ: إنّي عالجت بني إسرائيل قبلك وإن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة في اليوم والليلة وإني واللَّه قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمتك. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فرجع به جبريل إلى ربه تبارك وتعالى، فقلت: يا رب خفف على أمتي فإن أمتي لا تستطيع فحطّ عني خمسا فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمسا. فقال موسى: إن أمتك لا تستطيع فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. وما زال النبي ﷺ بين ربه وموسى حتى أمره اللَّه تبارك وتعالى بخمس صلوات قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم قال: يا محمد. قال: لبيك وسعديك. قال: إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لديّ.

[ولو نظرنا الآن إلى أحوال المسلمين وكيف أنهم يتثاقلون عن هذه الصلوات الخمس كيف لو كان الأمر كما كان في أوله؟ كيف لو كانت خمسين صلاة؟ من سيؤديها؟ من سيحرص عليها؟ لاشك أن موسى صلوات اللَّه وسلامه عليه كان حكيماً عندما أمر النبي ﷺ أن يرجع إلى ربه ويسأله

التخفيف، وكان اللَّه تبارك وتعالى يعلم أن موسى سيطلب من محمد ﷺ أن يرجع إلى ربه، ولذلك فإن اللَّه تبارك وتعالى لرحمته جعلها خمساً في العمل ولكنه أبقى الأجر على خمسين فللَّه الحمد والمنة].

وفي رواية: ثمّ أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار الذي هو البراق مسرجاً ملجماً لأركبه يُسخر للأنبياء قبلي فاستصعب حين أراد أن يركبه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ أبمحمد تفعل هذا؟ فواللَّه ما ركبك أحد قط أكرم على اللَّه عز وجل منه فارفض عرقاً، فركبته فسار حيث أتيت بيت المقدس فقال جبريل بإصبعه فخرق بها الحجر وشدّ به البراق فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ثمّ دخلت المسجد حيث وضعت قدمي حيث توضع أقدام الأنبياء من بيت المقدس فرأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى ابن عمران عليه السلام قائم يصلي فإذا رجل آدم طوال أسحم(١) كثير الشعر شديد الخَلْق كأنه من رجال شنوءة(٢)، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي فإذا ربعة أحمر(٣) مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سَبْط الرأس(٤) كأنه خرج من ديْماس (أي من مكان الاستحمام) أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم(٥) فقال له إبراهيم: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء أرضها واسعة وأنها قيعان غراسها سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللَّه. [واجتماع

(١) يعني أسمر.
(٢) قبيلة من العرب عرفت بالطول.
(٣) الربعة الذي هو لا طويل ولا قصير.
(٤) يعني ناعم.
(٥) يعني نفسه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

الأنبياء مع النبي ﷺ هنا اللَّه أعلم كيف كان ولكننا نؤمن به وليس ذلك على اللَّه بعزيز] قال رسول اللَّه ﷺ: فحانت الصلاة فأذن مؤذن فأممتهم، فتقدمت إلى القبلة فصليت فيه ركعتين فالتفتُّ فإذا النبيون أجمعون يصلون، فلما فرغت من الصلاة رأيت من حائط بيت المقدس الشرقي جهنم في الوادي الذي بالمدينة ورأيت ملكاً يقلب جمراً كالقِطْف وإذا جهنم تنكشف مثل الزرابي قال جبريل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلّم عليه، فالتفت إليه فإذا رجل عابس يُعرف الغضب في وجهه فبدأني بالسلام فسلمت عليه فأُرِي مالكاً خازن النار والدجال في آيات أراهن اللَّه إياه ورأى الدجال في صورته ليس رؤيا منام ولكنها رؤيا عين، فيلمانياً[1] ضخم، أقمر، حجاناً[2] إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دريّ كأن شعر رأسه أغصان شجرة وقال ﷺ ورأيت عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة قلت: ما تحملون؟ قالوا: هذا عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام فمررنا بِعِير لقريش بمكان كذا وكذا فنفرت. فقالوا: يا هؤلاء ما هذا[3]؟ قالوا: ما نرى شيئاً إلا ريحاً فأضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان.

فهذه قصة الإسراء والمعراج، أما الإسراء فكان من مكة إلى بيت المقدس، وأما المعراج فهو من بيت المقدس إلى السماء.

والمعراج من العروج وهو الصعود، والإسراء ومن السري وهو المشي ليلًا.

فلما أصبح النبي ﷺ في مكة فُظع بأمره كيف يخبرهم وكيف سيصدقونه،

(١) والفيلماني هو عظيم الجثة.
(٢) يعني أبيض.
(٣) مر عليهم النبي ﷺ بسرعة من فوق البراق خطوه بمد النظر.

فأصبح وقد أخبر بما كان صلوات اللَّه وسلامه عليه وسعى الناس بذلك إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس . فقال لهم أبو بكر: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قد قال ذلك فقد صدق قالوا: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. وقعد النبي ﷺ معتزلًا حزيناً، فمرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له صلوات اللَّه وسلامه عليه: نعم. قال أبو جهل: وما هو؟ فقال ﷺ: إني أسري بي الليلة قال أبو جهل: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فقال أبو جهل وكأنه يرى النبي ﷺ لا يكذبه بعد ذلك وخاف أن يجحده فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ قال رسول اللَّه ﷺ: نعم. فقال أبو جهل: هيا يا معشر بني كعب بن لؤي هلم. فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما [أي إلى أبي جهل وسيده وسيدنا محمد ﷺ] فقال أبو جهل لرسول ﷺ: حدّث قومك بما حدثتني. فقال رسول اللَّه ﷺ: إني أُسري بي الليلة فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ أراد أهل مكة أن يختبروا النبي ﷺ وذلك أن بعض أهل مكة قد وصلوا إلى بيت المقدس ورأوه، وهم يعلمون أن النبي ما سافر إلى بيت المقدس أبداً فقال ﷺ: فلما كذبتني قريش ذهبت أنعت لهم فما زلت أنعت حتى سألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط فأثنيت على ربي وسألته أن يمثل لي بيت المقدس وهنا المؤمن إذا اشتد به الأمر لا ملجأ إليه إلا إلى اللَّه، لجأ إلى اللَّه جلّ

وعلا فماذا فعل اللَّه به؟ قال: فجلّى اللَّه لي بيت المقدس فرفعه إليّ أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أراه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه فقال القوم أما النعت فواللَّه لقد أصاب فقال لهم النبي ﷺ: وإن من آيتي أني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم جمعه فلان وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان اليوم الذي ذكر، أشرف فيه الناس ينتظرون حتى كان قريباً من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول ﷺ فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما قال، فضرب اللَّه رقابهم مع أبي جهل وهذا يبين لنا أنهم معاندون للنبي ﷺ، وإلا بعد هذا الوصف الدقيق من النبي ﷺ يصرون على استكبارهم وعلى ضلالهم والعياذ باللَّه؟.

وهذا الإسراء الذي وقع للنبي ﷺ له حِكَم كثيرة فمن حكمه:

١) أن اللَّه تبارك وتعالى أتاح لرسوله ﷺ الاطلاع على المظاهر الكبرى بقدرته سبحانه وتعالى حتى يزداد ثقة باللَّه تبارك وتعالى.

٢) وكذلك في قصة الإسراء والمعراج تظهر أواصر القربى بين الأنبياء إذْ أن الأنبياء جميعاً دينهم واحد كما قال النبي ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء إخوة لعلّات أبونا واحد وأمهاتنا شتى»[١].

إن الأنبياء بينهم من المودة الشيء العظيم وهذا ما وقع للنبي ﷺ مع إخوانه الأنبياء، في كل سماء يأتيها يرحب به أنبياء السماء.

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥).

وهذا مصداق قول النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلّا وضعت هذه اللبنة حتى يكتمل البناء ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين». متفق عليه[1].

٣) في الإسراء تحقق أن هذا الدين هو دين الفطرة في قول النبي ﷺ: «فاخترت اللبن فقيل لي اخترت الفطرة».

***

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦/ ٢١).

انشقاق القمر

ثمّ بعد هذه الحادثة وقعت حادثة أخرى للنبي ﷺ وهي حادثة عجيبة ذُكرت بالتواتر ألا وهي انشقاق القمر، وذلك أن قريشاً طلبت من النبي ﷺ علامة أو دلالة على صدقه صلوات اللّٰه وسلامه عليه، وكأنه ما أتاهم بشيء من ذلك! فطلبوا منه صلوات اللّٰه سلامه عليه أن يشق القمر نصفين فقال: «أرأيتم لو شق اللّٰه لكم القمر نصفين أتؤمنون؟» قالوا: وما لنا لا نؤمن. فدعى النبي ﷺ ربه تبارك وتعالى فشق اللّٰه لهم القمر نصفين فلما نظروا إلى القمر وهو نصفين بينهما جبل أبي قبيس قالوا: لقد جاء بسحر. فقال قائل منهم: إن كان قد سحركم فلا يستطيع أن يسحر الناس جميعاً فانتظروا السُفّار إذا جاؤوا فلما جاء السفّار قالوا لهم: ما أعجب ما رأيتم؟ قالوا في ليلة كذا رأينا القمر فلقتين. قالوا: لقد جاء بسحر عظيم سحر الناس أجمعين.

وهذا مصداق قول اللّٰه تبارك وتعالى في سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي سحر قوي.

❊ ❊ ❊

بيعة العقبة الأولى

قد مرّ بنا أن النبي ﷺ دعا بعض أهل المدينة وأنهم آمنوا به وتابعوه صلوات اللَّه وسلامه عليه فلما كان في الموسم في السنة الثانية عشرة من بعثة النبي ﷺ جاء الأنصار إلى النبي ﷺ وبايعوه والذين بايعوا النبي ﷺ هم معاذ بن الحارث، ذكوان بن عبد القيس، عبادة بن الصامت، يزيد بن ثعلبة، العباس بن عبادة، أبو الهيثم بن التيهان، عويم بن ساعدة وأبو الهيثم وعويم من الأوس والبقية كلهم من الخزرج بايعوا النبي ﷺ بيعة النساء. (وبيعة النساء هي التي ذكرها اللَّه تبارك وتعالى في قوله جل وعلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٢].

هكذا كان يبايع رسول اللَّه ﷺ الرجال، قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا باللَّه شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان لتفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على اللَّه، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره اللَّه فأمره إلى اللَّه إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه». قال: فبايعناه على ذلك أخرجه الإمام البخاري في صحيحه[١].

ثم أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه يعلمهم الإسلام ويدعو غيرهم

---

(١) (١٨، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣).

ونجح مصعب بن عمير نجاحاً باهراً في دعوته إلى اللَّه تبارك وتعالى.

وهاتان قصتان لرجلين أسلما على يد مصعب بن عمير فكان في إسلامهما خير عظيم.

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير:

إن أسعد بن زرارة خرج يوماً مع مصعب بن عمير يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظُفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين.

وسعد بن معاذ وأُسيد بن حضير كانا سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا على الشرك، فلما سمعا بذلك قال سعد بن معاذ لأُسيد بن حضير: اذهب إلى هذين، الذين قد أتيا يسفهان ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارنا فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق اللَّه فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه فجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً[1] وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت. ثمّ ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب وتلا عليه القرآن، وبيّن له دين اللَّه تبارك وتعالى وكيف أن اللَّه تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، من عبادة الأصنام إلى عبادة رب العباد سبحانه وتعالى،

---

(١) يسبهما.

قال راوي القصة: فواللَّه لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم وذلك في إشراقه وتهلُّله ثمّ قال لهم أُسيد: ما أحسن ذلك وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال له: اغتسل وطهر ثوبك ثمّ تشهّد شهادة الحق ثمّ تصلي ركعتين. فقام واغتسل وطهّر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين ثمّ قال: إن ورائي رجلا إن تبعكما لم يتخلف أحد من قومه ثمّ أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه وهم جلوس فقال سعد: أحلف باللَّه لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف أسيد على قومه قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين فواللَّه ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل إن أحببت وقد حُدثت أن بني حارث خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، بنو حارثة لن يقتلوا أسعد بن زرارة ولكن هكذا تصرف أسيد بن حضير رضي الله عنه ليثير سعد بن معاذ ليقوم ويدافع عن ابن خالته أسعد بن زرارة) فقام سعد مغضباً للذي ذكر له فأخذ حربته وخرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، كما عرف أنه لا أحد سيقتل أسعد ولا شيء، فوقف عليهما متشتماً، ثمّ قال لأسعد بن زرارة: واللَّه يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا مني تغشانا في دارنا بما نكره! قال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع إن رضيت أمراً قبلته و إن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال: أنصفت ثمّ ركز حربته وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قال راوي القصة: فعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ فقالا له كما قالا لأسيد. ففعل كما فعل أسيد، فلما رجع إلى قومه قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا باللَّه ورسوله فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة

إلا مسلم ومسلمة إلا رجل واحد يقال له الأصيرم وهو قد أسلم يوم أحد.

وظل مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

❊ ❊ ❊

بيعة العقبة الثانية (الكبرى)

بيعة العقبة الثانية كانت في السنة الثالثة عشرة من بعثة النبي ﷺ إذ حج من المسلمين من أهل المدينة بضع وسبعون نفساً ضمن حجاج قومهم من المشركين، وكان المسلمون يقولون حتى متى نترك رسول اللّه ﷺ يطرد في جبال مكة ويخوَّف صلوات اللّه وسلامه عليه.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول اللّه ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق وكانت الليلة التي واعدنا رسول اللّه ﷺ لها ومعنا عبداللّه بن عمرو بن حرام سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمنا عبداللّه بن عمرو بن حرام وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غدا، ثمّ دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بموعد رسول اللّه ﷺ فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً من النقباء.

قال كعب رضي الله عنه : فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول اللّه ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين القطا[1]، حتى اجتمعنا في الشِعْب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب وهي أم عمارة وأسماء بنت عمرو من بني سلمة فاجتمعنا ننتظر الرسول ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، والعباس يومئذ على دين قومه إلا أنه عم النبي ﷺ فأراد أن يعرف

(١) نوع من الحمام.

ماذا هم صانعون بابن أخيه؟ فلما اجتمع بهم النبي ﷺ كان أول المتكلمين عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج[١] قال: إن محمداً منّا حيث قد علمتم[٢] وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه[٣]، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، فقال كعب: قد سمعنا ما قلت تكلم يا رسول اللَّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فقال النبي ﷺ: تبايعوني. فقالوا: يا رسول اللَّه نبايعك على ماذا؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في اللَّه لا تأخذكم في اللَّه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

قال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وتلا القرآن ودعا إلى اللَّه ورغّب في الإسلام ثمّ قام البراء بن معرور فأخذ بيده ثمّ قال للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنّك مما نمنع أُزُرنا منه، فبايعنا يا رسول اللَّه فنحن واللَّه أبناء الحرب وأهل الحلقة (أي السلاح)، ورثناها كابراً عن كابر. فقام أبو الهيثم بن التيّهان فقال: يا رسول اللَّه إن بيننا وبين الرجال حبالًا[٤] وإنّا قاطعوها فهل

(١) قال الخزرج لأن عددهم أكثر من الأوس والعرب كانت تسمي الأوس والخزرج بالخزرج لكثرتهم.
(٢) من النسب والمكانة والمحبة.
(٣) يعني من الكفر.
(٤) يعني اليهود بيننا وبينهم عهود.

عسيت إن نحن فعلنا ذلك؟ ثمّ أظهرك اللَّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول اللَّه ﷺ وقال: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم». وفي رواية أن جابراً قال: فقمنا نبايع الرسول ﷺ فأخذ بيده أسعد بن زرارة فقال: رويداً يا أهل يثرب إنّا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول اللَّه وأنّ إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة، وفيه قتل خياركم وأن تعضكم السيوف فإن أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على اللَّه، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند اللَّه (يريد أسعد بن زرارة أن يثير فيهم محبتهم للنبي ﷺ) فقالوا: يا أسعد أمط عنّا يدك، فواللَّه لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها.

فبايعهم النبي ﷺ وصافحهم إلا المرأتين فإنه ما صافح امرأة قط صلوات اللَّه وسلامه عليه.

ثمّ جعل عليهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس أما نقباء الخزرج فأسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبداللَّه بن رواحة ورافع بن مالك والبراء بن معرور وعبداللَّه بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأما نقباء الأوس فأسيد بن حضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر.

بعد أن تمت هذه البيعة بين النبي ﷺ والمسلمين الذين بايعوه صاح الشيطان وقال: يا أهل الأخاشب[1] هل لكم في مذمم والصباة قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «هذا أُزَب العقبة أما واللَّه يا عدو اللَّه لأتفرغن لك». ثمّ أمرهم أن يرجعوا إلى رحالهم.

(١) يعني يا أهل المنازل.

لما سمعت قريش هذا الصوت جاؤوا إلى أهل يثرب فقالوا لهم: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه واللَّه ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن ننشب معه الحرب منكم، فقال مشركو يثرب: واللَّه ما وقع شيء من هذا ولا تمّ شيء من هذا وصاروا يحلفون باللَّه ما وقع شيء من هذا فأتى الناس عبداللَّه بن أبيّ بن سلول وكان من كبار الخزرج فجعل يقول: هذا باطل وما كان هذا وما كان قومي يفعلوا مثل هذا إلا وأخبروني، فاستمرت قريش تبحث وتستقصي الأخبار حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح والبيعة قد تمت فلما نفر الحجيج سارع فرسانهم إلى أهل يثرب ولكن بعد فوات الأوان، ولكنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما وفرّ منهم وأعجزهم المنذر وأمسكوا سعد بن عبادة فربطوا يديه إلى عنقه وجعلوا يضربونه ويشدون شعره حتى أدخلوه مكة فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب فخلصاه من أيديهم وذلك أن سعد بن عبادة من سادات أهل المدينة.

* * *

هجرة أبي سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بدأ المسلمون يهاجرون وحاول المشركون صدهم عن الهجرة، وكان أول المهاجرين أبو سلمة هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما ذكره ابن إسحاق وغيره، وأخذ معه زوجته أم سلمة وولدهما سلمة فجاءه أصهاره فقالوا له: أما نفسك فلا نستطيعها أرأيت صاحبتنا هذه على ما نتركك تسير بها في البلاد؟ فواللَّه لا ندعها معك، فأخذوا منه زوجته ومن الطبيعي جداً أن ولده سلمة الصغير رجع مع أمه، فغضب آل أبي سلمة كيف تأخذون من الرجل زوجته؟ فقالوا: إذا فعلتم ذلك فنحن نأخذ ابننا فأخذوا سلمة من أمه، فتشتت أمر هذه العائلة الصغيرة، أبو سلمة هاجر وأم سلمة أخذها قومها وسلمة أخذه قوم أبيه.

هاجر أبو سلمة وحده إلى المدينة، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وأخذ ابنها منها تخرج إلى الأبطح تبكي حتى تمسي، واستمرت على ذلك الأمر سنة كاملة وهي تبكي فراق ابنها وزوجها، فرقّ لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وولدها؟ فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت. فذهبت إلى أهل زوجها فأعطوها ولدها ثمّ هاجرت خلف زوجها إلى المدينة، ولكنها لما خرجت لم يكن معها أحد فلقيها في الطريق عثمان بن طلحة وبعد أن عرف حالها شيعها يجاريها في السير حتى وصل بها إلى المدينة وهو على الشرك، ولكنها أخلاق العرب فلما وصل إلى المدينة قال: زوجك في هذه القرية ادخليها على بركة اللَّه. ثمّ انصرف إلى مكة.

هذه صورة من صور المهاجرين وكيف عانوا عند خروجهم من مكة إلى المدينة.

* * *

هجرة صهيب الرومي

أسلم صهيب وظل في مكة فترة من الزمن ثم رأى أن يهاجر إلى المدينة، فلما أراد الهجرة جاءه كفار مكة وقالوا: أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ثمّ تريد أن تخرج بمالك ونفسك، واللَّه لا يكون ذلك، سبحان اللَّه ما سرق مالهم ولا غشهم ولا راباهم وإنما اشتغل بعرق جبينه، ومع هذا قالوا: لا تخرج أنت ومالك أبداً فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم.

قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ هذا الأمر رسول اللَّه ﷺ فقال: «ربح البيع، ربح البيع».

وذكر بعض أهل العلم أن قول اللَّه تبارك وتعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] أنها نزلت في صهيب الرومي رضي الله عنه.

❊ ❊ ❊

المهاجرون إلى المدينة

عن البراء قال: قال أبو بكر مضى النبي وأنا معه حتى أتينا المدينة ليلًا فنازعه القوم أيهم ينزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: إني أنزل الليلة على بني النجار أكرمهم بذلك.

فخرج الناس حين دخلنا المدينة في الطريق على البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء محمد رسول الله، الله أكبر جاء محمد رسول الله، وبات عند بني النجار فلما أصبح انطلق حتى نزل حيث أمر. قال البراء: وكان أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير فقلت له: ما فعل رسول الله؟ فقال: هو مكانه وأصحابه على أثري، ثم أتانا بعده عمرو بن أم مكتوم، ثم أتى بعده عمار بن ياسر وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وبلال ثم أتانا بعدهم عمر بن الخطاب في عشرين راكب ثم أتانا بعدهم رسول الله وأبو بكر معه.

هجرة زينب بنت النبي ﷺ

قال رسول اللَّه ﷺ لزيد بن حارثة: ألا تجيئني بزينب؟ قال: بلى.

قال: فخذ خاتمي فأعطها.

فلم يزل يتلطف حتى لقي راعياً فقال: لمن ترعى؟

فقال: لأبي العاص، قال: فلمن هذه الغنم؟ قال: لزينب بنت محمد فأعطاه الخاتم حتى كان الليل خرجت إليه فركبت وراءه حتى أتت فكان النبي يقول لها: هي أفضل بناتي أصيبت فيَّ.

هجرة النبي ﷺ

وفي شهر صفر من السنة الرابعة عشرة من مبعث النبي ﷺ اجتمع أهل مكة على أمر عظيم ما اجتمعوا على مثله قط، وذلك أنهم اجتمعوا في دار الندوة وتعاقدوا على قتل النبي ﷺ، وهذا الرأي كان رأي أبي جهل رأس قريش في ذلك الوقت، قال أبو جهل: واللَّه إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثمّ نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً ثم يعمدون إليه [أي إلى النبي ﷺ] فيضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه ونستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضون منّا بالعقل، فعقلناه لهم (أي ندفع الدية).

وبعد هذا الاجتماع الخطير أرسل اللَّه تبارك وتعالى جبريل عليه السلام وأخبر النبي ﷺ أن اللَّه تبارك وتعالى يأمره بالهجرة فذهب النبي في الهاجرة قبيل الظهر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة قالت عائشة: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول اللَّه ﷺ متقنعاً.

وذلك في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي واللَّه ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

فجاء رسول اللَّه ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أَخرج مَن عندَك. فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول اللَّه فقال النبي ﷺ: «إني قد أُذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول اللَّه؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: نعم.

فبقي النبي ﷺ إلى عتمة الليل وإذا كفار مكة عند باب النبي ﷺ ساهرون يريدون قتله، وفيه أنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] هذا مكرهم وهو أن اجتمعوا على قتل النبي ﷺ وأن يقتله شباب أقوياء فيتفرق دم النبي ﷺ في القبائل، فيقبل بنو عبد مناف الدية ولننظر إلى مكر اللَّه تبارك وتعالى كيف صنع اللَّه بهم كما قال جل وعلا ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧] قال رسول اللَّه ﷺ لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسجَّ ببردي فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم . وهذا تطمين من النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه ، وقد أبقى النبي ﷺ علياً في مكة حتى يرد الأمانات التي عنده لأهل مكة.

ونريد أن ننبه إلى أمرين اثنين نرى أنهما من أهم الأمور:

أولهما: هو أن كفار مكة كانوا يقولون عن النبي ﷺ : كاذب ساحر شاعر مجنون وغير ذلك من الصفات التي اتهموه بها، وهم في هذا كاذبون فهم لا يصدقون ما يقولون، ولذلك كانوا يضعون أماناتهم عند النبي ﷺ فهل يجوز أن يعطي عاقل الأمانة لرجل يرى أنه كذاب أو مجنون وأنه ساحر أو شاعر؟! هذا لا يمكن أبدا فدل هذا على أنهم لا يكذبونه كما قال اللَّه تبارك وتعالى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] .

الأمر الثاني: أمانة النبي ﷺ وذلك أنه لما أرادوا قتله لم يقل: أنا آخذ أموالهم لأنهم يريدون قتلي، فأنا استحقها، ولذلك قال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[1] (أي وإن خان هو

(١) رواه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤).

فأنت لا تخون فالمؤمن لا يخون أبداً) فتبقى أخلاق المؤمن شامخة عالية ظاهرة وإن غدر من غدر من الكافرين.

إن النبي ﷺ لما عزم على الخروج من مكة أو لنقل من بيته ﷺ وأولئك الشبان الأقوياء المسلحون ينتظرون عند الباب ينتظرون خروجه ليقتلوه، ألقى اللَّه تبارك وتعالى عليهم النوم جميعاً، وخرج إليهم النبي ﷺ وأخذ حفنة من البطحاء[١] فجعل يذره على رؤوسهم.

وكان اللَّه قد أخذ أبصارهم فلا يرونه والنبي صلوات اللَّه وسلامه عليه يتلو ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فلم يبق منهم رجل إلا وضع النبي ﷺ على رأسه تراباً، ومضى إلى بيت أبي بكر فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً[٢] حتى لحقا بغار ثور اتجاه اليمن، وظل مريدو قتل النبي ﷺ واقفين حتى جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ورآهم عند الباب فقال لهم: ماذا تنتظرون؟ قالوا: محمداً قال: خبتم وخسرتم قد واللَّه مرّ بكم. وذرّ على رؤوسكم التراب وانطلق لحاجته. فوضعوا أيديهم على رؤوسهم فوجدوا التراب فقاموا ينفضونه وقالوا: واللَّه ما أبصرناه ثمّ نظروا داخل البيت فرأوا علياً قالوا: هذا واللَّه محمد إنه نائم. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا وقام علي عن الفراش فسُقط في أيديهم وقالوا له: أين محمد؟ قال: لا علم لي. ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستجدُّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار هو المدينة، كان من ذكائه صلوات اللَّه وسلامه عليه أن سلك طريقاً آخر يضاده تماماً وهو طريق

(١) يعني من الرمال.
(٢) والخوخة الباب الصغير.

اليمن، مشى خمسة أميال في اتجاه اليمن والأنظار كلها والعقول تقول: إن النبي ﷺ سيهاجر إلى المدينة وهكذا كان ولكنه أراد أن يعمّي عليهم الأمر فذهب إلى جهة اليمن ومكث في مكان يقال له جبل ثور ثلاثة أيام وكان يمشي متجهاً إلى غار ثور على أطراف قدميه، وذلك أن الطريق كان وعراً فحفيت قدماه صلوات اللّه وسلامه عليه، وطفق يشتد به الأمر حتى انتهى إلى الغار في قمة الجبل(١) ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: واللّه ما تدخله يا رسول اللّه حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك. فدخل أبو بكر فكسحه(٢) ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسده به وبقي ثقبان آخران فألقمهما رجليه ثمّ قال لرسول اللّه ﷺ: ادخل فدخل رسول اللّه ﷺ ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجحر فلم يتحرك مخافة أن ينتبه الرسول ﷺ فسقطت دموعه من شدة الألم على وجه الرسول ﷺ فقال رسول اللّه: ما لك يا أبا بكر؟ قال: لُدغت فداك أبي وأمي. فتفل رسول اللّه ﷺ مكان اللدغة فذهب ما يجده من ألم.

وهذا أيضاً يبين لنا أمرين اثنين:

الأول: شدة محبتهم للنبي ﷺ حتى إنه يلدغ فلا يتحرك حتى لا يؤذي النبي ﷺ وهو نائم.

الثاني: بركة دعاء النبي ﷺ وكيف أنه مجرد أن تفل في جرحه أذهب اللّه جل وعلا عنه ما يجده.

وظلا في الغار ثلاث ليال: ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، وكان

(١) وهو يسمى الآن بغار ثور معروف في جهة مكة من جهة اليمن خلف منطقة العزيزية هناك.
(٢) نظفه.

عبداللَّه بن أبي بكر يبيت عندهما قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحَر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فيها، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان يرعى غنمه عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل(١) وكان يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي وكان يأتي إلى أثر عبداللَّه بن أبي بكر وهو راجع وهو ذاهب فيمشي بالغنم حتى يذهب أثره، وأما قريش فقد جنّ جنونها حينما تأكد لديها أن النبي ﷺ قد أفلت في صبيحة الليلة التي عزموا فيها على قتله، وحاولوا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه و آذوه حتى يعلمهم مكان النبي ﷺ فلم يعلمهم بشيء، حتى إذا يئسوا منه ذهب أبو جهل إلى بيت أبي بكر الصديق فخرجت إليه أسماء بنت أبي بكر فقال لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدري. فرفع أبو جهل يده فلطم خدّها لطمة طرح منها قرطها(٢)، وجعلت قريش مكافأة قدرها مئة ناقة لكل من يدلها على مكان النبي ﷺ سواء كان حياً أو ميتاً، وَجدّت الفرسان والمشاة وقصّاص الأثر في الطلب لأن مئة ناقة شيء عظيم، وانتشروا في الجبال والوديان يبحثون عن النبي ﷺ ولكن دون فائدة.

اللَّه ثالثهما

أخرج البخاري(٣) عن أنس رضي الله عنه عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت: يا نبي اللَّه لو أن

(١) يأتيهما باللبن قبل أن يناما.
(٢) ما يكون في الأذن مما تتزين به النساء.
(٣) (٣٩٢٢، ٣٦٥٣).

بعضهم طأطأ بصره رآنا. فقال النبي ﷺ: «اسكت يا أبا بكر اثنان اللَّه ثالثهما» وفي لفظ: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين اللَّه ثالثهما» ولما هدأت قريش في الطلب تهيأ النبي ﷺ للخروج من الغار ليتجه إلى المدينة، وذلك أن عبداللَّه بن أبي بكر كما قلنا كان يأتيهما بالأخبار، وكان مع النبي ﷺ رجل أجير وهو عبداللَّه بن أريقط كان دليلًا للنبي ﷺ وأبي بكر وكان كافراً، ومع هذا استعان به النبي ﷺ، ولذلك قال أهل العلم: تجوز الاستعانة بالكافر عند الحاجة إليه. وكان النبي ﷺ قد أعطى عبداللَّه بن أريقط الراحلتين وواعده في غار ثور بعد ثلاث ليال والنبي ﷺ استأمنه وهو كافر وكان من الممكن أن يخبر قريشاً بمكان النبي ﷺ وأبي بكر ويأخذ المئة ناقة، ولكنه ما استأمنه إلا إنه كان أميناً، فلما كانت ليلة الاثنين جاءهما عبداللَّه بن أريقط بالراحلتين وكانتا لأبي بكر، فقال أبو بكر للرسول ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه خذ إحدى راحلتي هاتين يعني لك وقرّب إليه أفضلهما فقال الرسول ﷺ بالثمن وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسُفرتهما ونسيت أن تجعل لها عصاماً(١) فلما ارتحلا ذهبت تعلق السُفرة فإذا ليس لها عصام فشقت نطاقها قسمين فعلقت السُفرة بأحد هذين القسمين وانتطقت بالآخر ولذلك سميت بذات النطاقين(٢).

أخرج البخاري(٣) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلى الطريق لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأتِ عليها الشمس فنزلنا عندها وسويت للنبي ﷺ مكاناً بيدي

(١) يعني شيئاً تربط به.
(٢) والنطاق هو ما يُربط على البطن.
(٣) (٣٦١٥).

ينام عليه، وبسطت عليه فروة وقلت: نم يا رسول اللَّه وأنا انفض لك ما حولك. فنام وخرجت أنفض ما حوله[١] فإذا أنا براعٍ مقبل إلى الصخرة يريد منها مثل الذي أردنا فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة. قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم. فأخذ شاة فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى. فحلب في كعب كثبة من لبن[٢] ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها يشرب ويتوضأ فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه فوافقت حين استيقظ فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله فقلت: اشرب يا رسول اللَّه فشرب حتى رضيت. ثمّ قال: ألم يئن الرحيل؟ قلت: بلى. قال: فارتحلنا.

❊ ❊ ❊

(١) ينظر إلى الطريق.
(٢) يعني إناءً صغيراً.

سُراقة بن مالك يبحث عن مكافأة

وتابع النبي ﷺ وأبا بكر رجل يقال له سُراقة بن مالك بن جعشم فتعالوا نسمع قصة سراقة من حديثه هو، قال سراقة: بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إنّي رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه قال سراقة: وعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثمّ لبثت في المجلس ساعة ثمّ قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تُخرج فرسي من وراءِ أكمة فتحبسها عليّ(١)، فأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فخررت عليها فقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا [وهذا من جهلهم] فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام حتى إذا اقتربت من النبي ﷺ وأبي بكر سمعت قراءة النبي ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات قال: فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثمّ زجرتها فنهضت فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام مرة ثانية فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم كيف أن فرسي امتنعت أن سيظهر أمر الرسول ﷺ وقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وعرضت عليه الزاد والمتاع فلم

(١) حتى لا يراها الناس.

يرزآني[1] ولم يسألاني إلى أن قال: اخفِ عنّا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أدم، ثم مضى رسول اللَّه ﷺ، ورجع سراقة بن مالك ووجد الناس في الطلب، فجعل يقول لهم قد استبرأت لكم الخبر قد كفيتكم ما هاهنا، [سبحان اللَّه في أول الأمر يريد قتلهما، يريد المكافأة وفي آخر النهار جعل يدافع عنهما ويخفي أمرهما، فهذا من اللَّه تبارك وتعالى كيف أنه يحفظ نبيه صلوات اللَّه وسلامه عليه].

❊ ❊ ❊

(١) فلم يقبلا مني.

خيمة أم معبد

ومرّ النبي ﷺ في مسيره ذلك حتى أتى خيمة امرأة يقال لها أم معبد، فسألها النبي ﷺ وأبو بكر هل عندك شيء؟ قالت: واللّه ما عندنا شيء ما أعوزكم. وكانت سنة شهباء فنظر النبي ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. فقال: «هل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: «أتأذنين أن أحلبها» قالت: نعم بأبي وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فمسح رسول اللّه ﷺ بيده ضرعها وسمى اللّه ودعا فتفاجت عليه ودرّت، فدعى بإناء لها فحلب فيه حتى علته الرغوة فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه أبا بكر وعامراً وعبداللّه بن أريقط حتى رووا، ثمّ شرب، وحلب ثانية حتى ملأ الإناء ثمّ أعطاه إياها وغادر صلوات اللّه وسلامه عليه، بعد ذلك جاء زوج أم معبد يسوق أعنزاً عجافاً ما فيها لبن فلما رأى اللبن عجب فقال: من أين لك هذا والشاة عازب ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: واللّه إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا. فذكرت له ما وقع فقال زوجها: إني واللّه أرى أنه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد. فوصفته بصفات فقال لها: هذا واللّه من يبحث عنه أهل مكة.

وسمعت أشعار يقال إنها للجن:

جزى اللّه رب العرش خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى اللّه عنكم ... به من فعال لا يجازى وسؤدد

ليهنا بنو كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

* * *

الوصول إلى المدينة

وفي يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة من مبعث النبي ﷺ وصل إلى قباء، قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول اللّٰه ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحَرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم[1] فبصر بالرسول ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب (يراهم من بعيد) فلم يملك اليهودي أن نادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا الرسول ﷺ فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول اللّٰه ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يروا النبي ﷺ يجيئون أبا بكر يظنون أنه النبي ﷺ، حتى أصابت الشمس رسول اللّٰه ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل على نبي اللّٰه ﷺ بردائه فعرف الناس أن هذا هو الرسول ﷺ، وبقي علي بن أبي طالب ثلاثة أيام يؤدي الأمانات عن النبي ﷺ ثمّ هاجر ماشياً على قدميه، أقام الرسول ﷺ بقباء أربعة أيام على المشهور الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

* * *

(١) وهو المكان المرتفع.

أول مسجد أسس على التقوى

أسس مسجد قباء وصلى فيه وهو أول مسجد أسس على التقوى، ولما كان اليوم الخامس وهو يوم الجمعة ركب الرسول ﷺ بأمر اللّه له وأردف أبا بكر، وأرسل إلى بني النجار وهم أخوال جده عبد المطلب فجاؤوا متقلدين سيوفهم، فسار جهة المدينة فأدركته الجمعة في قرية لبني سالم بن عوف فجمّع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وهذه أول جمعة صلاها النبي ﷺ في المدينة، وبعد أن صلى الجمعة انطلق إلى داخل المدينة فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته هلمّ إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: خلّوا سبيلها فإنها مأمورة فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي فبركت، فلم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا ثمّ التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها النبي ﷺ في بني النجار، وكان من توفيق اللّه له فإنه أحب أن ينزل على أخواله ليكرمهم بذلك، وهذه من صلة الرحم.

فجعل الناس يكلمون الرسول ﷺ في النزول إليهم فكل واحد منهم يأتي إلى الرسول ﷺ ويقول: يا رسول اللّه انزل عندي، اسكن عندي، فقام أبو أيوب الأنصاري وأخذ رحل النبي ﷺ ثم دخل به إلى بيته فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: المرء مع رحله فجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلة النبي ﷺ فقال: والراحلة عندي.

وبعد أيام وصلت زوج النبي ﷺ سوْدة وابنتاه فاطمة وأم كلثوم وكذلك أسامة بن زيد وأم أيمن وكل أولئك خرج معهم عبداللّه بن أبي بكر ومعه

كذلك أولاد أبي بكر الصديق، وبقيت زينب بنت النبي ﷺ عند أبي العاص بن الربيع لم تستطع أن تهاجر معه لأنه كان على دين قومه.

* * *

بناء المسجد النبوي

بعد أن استقر بالنبي ﷺ المقام قام ببناء المسجد النبوي في المكان الذي بركت فيه الناقة، وكان المكان لغلامين يتيمين فاشتراه، وبنى المسلمون المسجد وشارك النبي ﷺ في البناء بيديه الكريمتين صلوات اللَّه وسلامه عليه، وكان يقول وهو يبني معهم: اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة.

فكان الأنصار يعملون مع النبي ﷺ ويقولون: لإن قعدنا والنبي يعمل، لذاك منا العمل المضلل.

وكانت في ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خِرب ونخل فأمر النبي ﷺ بالقبور فنبشت، والخِرب فسويت، وبالنخل فقطعت وصفت في قبلة المسجد، وكانت القبلة في ذلك الوقت إلى بيت المقدس، لم يؤمر النبي ﷺ بالتوجه إلى مكة، وبنى بجانب هذا المسجد بيوتاً وهي الحُجَر بيوت أزواجه صلوات اللَّه وسلامه عليه، وبعد أن تكامل البنيان انتقل صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى تلك البيوت، ثمّ آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وذلك في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة، وأنهم يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، وذلك إلى أن أنزل اللَّه تبارك وتعالى بعد بدر ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] فرجع التوارث إلى الأقارب.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام وأن

تسقط فوارق النسب واللون والوطن فالقضية قضية تقوى واتباع.

أخرج البخاري[١] رحمه اللَّه تعالى في صحيحه أن النبي ﷺ لما قدم المدينة آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن بن عوف: إني أكثر الأنصار مالًا فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لأطلقها فإذا انقضت عدتها تزوجها. فقال عبد الرحمن بن عوف: بارك اللَّه في أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من إقط وسمن ثم تابع الغدو ثمّ جاء يوماً وبه أثر صُفرة فقال النبي ﷺ: مهيم؟ قال: تزوجت قال: كم سُقت إليها؟ قال: نواة من ذهب.

وأخرج أيضاً[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. فقال: لا. فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: نعم سمعنا وأطعنا وهذا يدلنا على أمرين اثنين أيضاً:

أولًا: سخاء الأنصار كما قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثانياً: يظهر لنا كذلك موقف المهاجرين وذلك أنهم لم يستغلوا طيبة الأنصار، ولذلك لم يقبل عبد الرحمن بن عوف عرض سعد بن الربيع ولم يقبل المهاجرون عرض الأنصار أن يقاسموهم نخيلهم.

---

(١) (٢٠٤٨).
(٢) (٢٣٢٥).

معاهدات مع اليهود

بعد ذلك عقد النبي ﷺ المعاهدات مع اليهود الذين كانوا يعيشون في المدينة، وهم لم يدخلوا في الإسلام فعقد معهم النبي ﷺ معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد من المدينة، بل تركهم فيها صلوات اللَّه وسلامه عليه.

في هذه الفترة أرسلت قريش إلى المسلمين تقول لا يغرنكم أنكم أفلتم منّا إلى يثرب، فسنأتيكم ونستأصلكم ونبيد خَضْراءكم في عقر داركم.

وذلك أنه أخرج الإمام مسلم في صحيحه(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سهر الرسول ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلًا صالحاً من أصحابي يحرسني قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح (أي صوت سلاح) فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص. فقال النبي: «ما جاء بك؟» فقال: وقع في نفسي خوف على رسول اللَّه ﷺ فجئت أحرسه. فدعا له رسول اللَّه ﷺ ثمّ نام، وهذا من توفيق اللَّه تبارك وتعالى له.

❊ ❊ ❊

---

(١) (٢٤١٠).

بدء السرايا

كان النبي ﷺ يُحرس ليلًا حتى أنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج الرسول ﷺ رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني اللَّه عز وجل[١]، وهذا يبين شدّة اليقين باللَّه جل وعلا وكان اللَّه جل وعلا قد أمر نبيه بالصبر والكف عن المشركين حتى أذن اللَّه تبارك وتعالى بالقتال والدفاع بقوله جل وعلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[الحج: ٣٩].

بعد هذا الإذن من اللَّه تبارك وتعالى بالقتال بدأت السرايا، وكان من هذه السرايا سرية نخلة، وذلك أنه في السنة الثانية من الهجرة بعث الرسول ﷺ عبداللَّه بن جحش الأسدي إلى مكان يقال له نخلة في اثني عشر رجلًا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير (للفقر)، وكان الرسول ﷺ كتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثمّ ينظر فيه، فسار عبداللَّه بن جحش ثمّ قرأ الكتاب بعد يومين إذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم. فقال عبداللَّه بن جحش عندما قرأ الكتاب: سمعاً وطاعة ثمّ أخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم ولكن في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه، وسار عبداللَّه بن جحش حتى نزل بنخلة فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وهو

(١) انظر تفسير ابن كثير.

العنب وأدماً (وهو الطعام) وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبداللَّه بن المغيرة والحكم بن كيسان فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم دخلوا الحرم، (والأشهر الحرم أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد والثلاثة السرد هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم والواحد الفرد رجب هذه أشهر محرمة منذ أن خلق اللَّه السماوات والأرض إلى يومنا هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] فهم أدركوا هذه العير في آخر يوم من رجب ورجب من الأشهر الحرم، إذا أخذوا ما عندهم من مال وقاتلوهم فقد قاتلوا في الشهر الحرام، وإن تركوهم دخلوا إلى البلد الحرام (مكة) فوقعوا بين ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يقاتلوهم في الشهر الحرام.

الحالة الثانية: أن يتركوهم حتى يدخلوا مكة ويقاتلونهم غداً في الأشهر الحلال ولكن في المكان الحرام.

الحالة الثالثة: وهي أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام ولا يقاتلوهم في البلد الحرام ولكن تفلت العير وتدخل إلى مكة وتنجو.

وكان كفار قريش كما هو معلوم قد أخذوا أموال المسلمين بل وأخذوا ودورهم، وآذوا من آذوا وقتلوا آخرين، فكان أخذ العير نوعاً من رد بعض الحقوق وللإنسان أن يرد حقه ممن ظلمه ولو وصل الأمر إلى القتال.

فتشاور المسلمون ثمّ اجتمعوا على اللقاء فرمى أحدهم عمرو بن

الحضرمي فقتله وأسروا عثمان والحكم بن كيسان وأفلت منهم نوفل، وقدموا بالعير والأسيرين إلى مدينة النبي ﷺ وقد عزلوا من ذلك الخمس، وذلك كان أول خمس في الغنيمة وهذان كانا أول أسيرين وذاك كان أول قتيل في الإسلام.

فلما وصلوا إلى النبي ﷺ وأخبروه بما حدث أنكر النبي ﷺ ما فعلوه، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، ثمّ أوقف النبي ﷺ أيَّ تصرف في العير والأسيرين، أما قريش، فبدأوا يتكلمون في النبي ﷺ وأصحابه وقالوا: إنه أحل ما حرم اللَّه وأكثروا في القيل والقال حتى أنزل اللَّه تبارك وتعالى الوحي يدافع به عن النبي ﷺ وأصحابه، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ. . .﴾ [البقرة ٢١٧] اللَّه أكبر، يقول اللَّه تبارك وتعالى للمشركين: أنتم تنكرون على المسلمين أن قتلوا رجلًا في الشهر الحرام ونحن نوافقكم على أن هذا العمل لا يجوز، ولكن أنتم يا من تعيبونهم في هذا انظروا ماذا تفعلون يقول للَّه تبارك وتعالى ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الذي تفعلونه ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وصد عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهو طرد المسلمين من مكة وإخراجهم بالتهديد والتعذيب ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أي فتنة الناس عن دينهم أكبر من قتلهم فكانت هذه الآية مما طيب اللَّه تبارك وتعالى بها قلوب المؤمنين فكأن اللَّه جل وعلا يقول لهم: ليس هؤلاء من لهم أن يعيبوا عليكم ذلك لأن فعلهم أكبر من فعلكم بكثير. عند ذلك أطلق النبي ﷺ سراح الأسيرين وأدى الدية عن المقتول إلى أوليائه.

* * *

تحويل القبلة

في السنة الثانية من الهجرة في شهر شعبان أمر اللَّه تبارك وتعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] فحولت القبلة في صلاة الظهر أو في صلاة العصر والأكثر على أنها في صلاة العصر.

ويُذكر أنه أول من صلى إلى مكة البراء بن معرور ﵁ في بيعة العقبة الثانية وذلك أنهم لما خرجوا إلى مكة أدركتهم الصلاة فأرادوا أن يصلوا، والمدينة موقعها بين مكة وبيت المقدس، فمن أراد أن يصلي إلى بيت المقدس فلابد أن يعطي مكة ظهره، ومن أراد أن يصلي إلى مكة لابد أن يعطي بيت المقدس ظهره، فصلوا إلى بيت المقدس، أما البراء بن معرور ﵁ فصلى إلى مكة، فاستغرب أصحابه منه فلما قضى الصلاة قالوا: ويحك ماذا فعلت؟ قال: واللَّه إني كرهت أن أجعل هذه البُنية في ظهري. فقالوا: ويحك إن النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس قال: لا أدري. فتركوه فلما وصلوا إلى النبي ﷺ أخبروه فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «قد كنت على قبلة لو صبرت». وكان النبي ﷺ يتمنى أن تكون مكة هي القبلة ويصلي إليها خلف الكعبة باتجاه بيت المقدس صلوات اللَّه وسلامه عليه.

* * *

معركة بدر الكبرى

سببها أن عيراً لقريش جاءت من الشام بقيادة أبي سفيان، ولما قرب رجوعها، بعث النبي ﷺ طلحة بن عبيد اللَّه وسعيد بن زيد ليقوما باستكشاف خبرها، فوصلا إلى مكان يقال له الحوراء، مكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا النبي ﷺ بالخبر، وأخبراه بالعدد، عند ذلك أعلن النبي ﷺ في المسلمين قائلًا: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل اللَّه ينفلكموها ولم يعزم على أحد(١). واستعد الرسول ﷺ للخروج وخرج معه ثلاثمئة وبضعة عشر رجلًا، ولم يتخذوا أهبة كاملة وخرج معهم فارسان بفرسين هما الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود، وكان معهم سبعون بعيراً كل اثنين أو ثلاثة على بعير، وكان النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد على بعير واحد، كل فترة يركب أحدهم وينزل اثنان، وأعطى النبي ﷺ لواء القيادة لمصعب بن عمير القرشي، وأعطى علم كتيبة المهاجرين لعلي بن أبي طالب، وأعطى علم كتيبة الأنصار لسعد بن معاذ، وجعل قيادة الميمنة للزبير، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو، والقيادة العامة بيد النبي ﷺ.

وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار ويخاف بعد وقعة ابن الحضرمي، فعلم أن محمداً ﷺ قد خرج لملاقاة العير، فاستأجر رجلًا يقال له ضمضم بن عمرو مستصرخاً لقريش بالنفير ليمنعوه من محمد وأصحابه، فخرج ضمضم إلى مكة سريعاً فصرخ ببطن الوادي وجدع أنف البعير وحوّل رحله وشق

(١) ما أمر أحداً بالخروج.

قميصه وكل هذه الأشياء للإثارة كانت تستخدمها العرب في السابق لكي يبين أن الأمر جلل ولذلك كانت العرب تقول أنا النذير العريان يعني أن المسألة وصلت إلى حد لا يحتمل التسامح ولا التراخي وقال: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها الغوث، الغوث فتحفّز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي كلا واللّه ليعلمنّ غير ذلك، فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلًا وأوعبوا في الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب عم النبي ﷺ أتى برجل عليه دين فقال: أسقط عنك ديني واخرج بدلي، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف من بطون قريش إلا بنو عدي فإنهم لم يخرجوا معهم، وكان هذا الجيش نحو ألف وثلاثمئة مقاتل معهم ستمئة فرس ولو عملنا مقارنة لوجدنا أن النبي ﷺ ومن معه ثلاثمئة وبضعة عشر والمشركون ألف وثلاثمئة المسلمون معهم فرسان بقائدين، المشركون ستمئة فرس فهذا عدد المسلمين وعدتهم وذاك عدد المشركين وعدتهم، المسلمون خرجوا للعير، الكفار خرجوا للقتال حتى الاستعداد النفسي مختلف.

إذاً الآن المشركون متفوقون في ثلاثة أمور:

أولًا: العدد

ثانياً: العدة

ثالثاً: الاستعداد النفسي

وكانت قيادة المشركين لأبي جهل عمرو بن هشام وخرجوا من ديارهم كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ

ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]
واستطاع أبو سفيان أن ينجو بالعير، وذلك أنه لما سمع أن النبي ﷺ قد خرج غير طريقه، وقصة تغيير طريقه تدل على ذكائه وذلك أن أبا سفيان كان يسير على الطريق المعروف من الشام إلى مكة، ولكنه كان حذراً متيقظاً ولما اقترب من بدر، لقي مجدي بن عمرو وكان يعيش في ذاك المكان قال له: هل مرّ بك جيش؟ فقال مجدي بن عمرو: ما رأيت أحداً أنكره إلا إني رأيت راكبَين أناخا على هذا التل ثمّ استقيا في شن لهما ثمّ انطلقا. فذهب أبو سفيان إلى مكان الراحلتين، وأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّه فإذا فيه النواة فقال: هذه واللَّه علائف يثرب. فرجع وغير طريقه ونجى بالعير، فأرسل إلى أهل مكة: أن ارجعوا فقد نجت العير وإنكم إنما خرجتم لتحرزوا أموالكم وعيركم فإنها قد نجت. فقام طاغية قريش أبو جهل فقال: واللَّه لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا. فقام الأخنس بن شريق وأمر بالرجوع فعصوه فقال: أما أنا فراجع. ورجع معه بنو زهرة وكانوا قريباً من ثلاثمئة، فبقي كفار مكة بألف رجل واجتمع النبي ﷺ لما سمع بخروج أهل مكة بأصحابه يستشيرهم صلوات اللَّه وسلامه عليه فقال: هؤلاء أهل مكة قد خرجوا فماذا ترون؟ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن رضي الله عنه، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثمّ قام المقداد فقال وأحسن، وكان من مقولة المقداد بن عمرو رضي الله عنه: يا رسول اللَّه امض لما أراك اللَّه فنحن معك، واللَّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى

برك الغماد[١] لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه. فقال له الرسول خيراً ودعا له بخير. قال عبداللَّه بن مسعود: واللَّه لتمنيت أن لي موقف المقداد. وذلك لما رأى من فرح النبي ﷺ بتلك الكلمات، ولكن ما زال النبي ﷺ يريد غيرها، وذلك أن أبا بكر وعمر والمقداد كل هؤلاء من المهاجرين والنبي ﷺ أراد كلمة من الأنصار لماذا؟ لأن الأنصار إنما بايعوا النبي ﷺ على أنهم يدافعون عنه في المدينة وينصرونه في المدينة، ولم يبايعوه على القتال خارج المدينة، فأراد الرسول ﷺ منهم كلمة هل هم موافقون وراضون؟ أو إنهم مصرون على أنهم يدافعون عنه في المدينة فقط؟ فقال: «أشيروا عليَّ» فتكلم سعد بن معاذ وكان قائد الأنصار في هذه المعركة وهو صاحب اللواء فقال: كأنك تريدنا يا رسول اللَّه؟ فقال النبي ﷺ: أجل أريدكم أن تتكلموا ولا أريد أن أجبركم على قتال، ولا أريد أن أكرهكم عليه، فقال سعد بن معاذ مقولة أفرحت وأثلجت صدر النبي ﷺ قال: يا رسول اللَّه قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول اللَّه لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوا غـدا، إنّا لصُبـر فـي الحـرب، صُدُق في اللقاء، ولعل اللَّه أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة اللَّه.

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال للرسول ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم! وإني أقول عن الأنصار

---

(١) مكاناً في الجزيرة.

وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فواللَّه لئن سرت بنا حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، فواللَّه لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فسُرّ النبي ﷺ بقول سعد ونشط لذلك ثمّ قال: «سيروا وأبشروا فإن اللَّه تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين واللَّه لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». ثمّ ارتحل الرسول ﷺ ونزل قريباً من بدر.

قصة طريفة نافعة

بعث النبي ﷺ علي بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة فقبضوا عليهما وجاؤوا بهما إلى الرسول ﷺ وكان يصلي فسألوا الرجلين: من أنتما؟ قالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقي لهم من الماء. فكَرِه القوم ذلك ورجوا أن يكونا لأبي سفيان؛ لأنهم يريدون العير فضربوهما حتى يعترفا أنهما لأبي سفيان، ولما زاد الضرب قال الغلامان: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة التفت إلى أصحابه وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا واللَّه إنهما لقريش». ثمّ التفت إلى الغلامين وقال: «أخبراني عن قريش؟» قالا: هم وراء هذا الكثيب وأشارا إلى مكان، فقال لهما النبي ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا: لا ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً (يعني من الإبل) فقال الرسول ﷺ: «القوم فيما بين التسعمئة إلى الألف» ثمّ

قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: فيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وفيهم أبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر وزمعة وأبو جهل وأمية بن خلف . وسموا له رجالًا من مكة، فأقبل النبي ﷺ على الناس وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». ثمّ اقترح سعد بن معاذ على النبي ﷺ أن يكون في عريش بعيداً عن المعركة حتى يكون هذا أحفظ للنبي ﷺ، وقال للنبي ﷺ: يا نبي اللَّه ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعدّ عندك ركائبك ثمّ نلقى عدونا، فإن أعزنا اللَّه وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بقومنا فإنه قد تخلف عنك أقوام يا نبي اللَّه ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك. فأثنى النبي ﷺ على رأيه خيراً وكان في العريش صلوات اللَّه وسلامه عليه، ثم عبأ النبي ﷺ جيشه ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده صلوات اللَّه وسلامه عليه هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان يشير إلى الأماكن التي سيقتلون فيها وبات المسلمون تلك الليلة هادئي الأنفس.

قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] الأرض التي نزل بها المسلمون كانت قاسية فأنزل اللَّه تبارك وتعالى عليها المطر فصارت لينة، والأرض التي نزل فيها المشركون كانت لينة فأنزل اللَّه عليها المطر فأصبحت قيلة، لا يستطيعون الوقوف عليها من الزلق وكان ذلك في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

الاستعداد للقتال

استعدت قريش للقتال واستعد النبي ﷺ للقتال، وأرسلت قريش عمير بن وهب يتجسس للتعرف على مدى قوة المسلمين فدار عمير بفرسه حول عسكر المسلمين ثمّ رجع إليهم فقال: ثلاثمئة رجل يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا ولكن أمهلوني حتى أنظر هل للقوم كمين أو مدد. فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً ولكن يا معشر قريش لقد رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا لهم ملجأ إلا سيوفهم، واللَّه ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يُقتل رجل منكم فإذا أصابوا أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك.

وقامت معارضة بقيادة أبي جهل: فأنكر عليه قوله وأمر الناس بالقتال والجَلَد والصبر فأطاعوا أبا جهل.

حيلة حلال

بينما النبي ﷺ يعدل الصفوف كان سواد بن غزية متقدماً على الصف فضربه بالقدح على بطنه يقول له: «ارجع استوِ يا سواد». فقال سواد: يا رسول اللَّه أوجعتني فأقدني. فكشف النبي ﷺ عن بطنه حتى يستقيد فقال له النبي ﷺ: «استقد» فقام سواد واعتنق النبي ﷺ وقبّل بطنه. فقال له النبي ﷺ: «ما حملك على هذا يا سواد؟». فقال: يا رسول اللَّه قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول اللَّه ﷺ.

بدء المعركة

اصطف المسلمون واصطف المشركون ثلاثمئة وبضعة عشر مقابل ألف من المشركين، فخرج من أهل مكة ثلاثة عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فانفصلوا من صف المشركين وطلبوا المبارزة قالوا: من يبارزنا؟ وهذا نوع من الإحماء للقتال كانت تستخدمه العرب، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار عوف ومعوّذ ابنا الحارث وعبداللَّه بن رواحة فلما التقوا قال المشركون للمسلمين: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار فقالوا لهم: أكفاء كرام ما لنا بكم حاجة إنما نريد بني عمنا، ثمّ نادى مناديهم يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا فقال رسول اللَّه ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث ابن عم النبي ﷺ يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف هو من أبناء المطلب بن عبد مناف والنبي من أبناء هاشم بن عبد مناف قم يا حمزة وقم يا علي. فاختار أقاربه صلوات اللَّه وسلامه عليه فلما قاموا ودنوا منهم قالوا لهم: من أنتم فأخبروهم فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فتبارز عبيدة بن الحارث مع عتبة بن ربيعة وحمزة مع شيبة وعلي مع الوليد بن عتبة فأما حمزة فقتل صاحبه، وأما علي فقتل صاحبه، وأما عبيدة فاختلف هو وقرنه في ضربتين فكل واحد ضرب الثاني ضربة، ثمّ كرّ علي وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة بن الحارث وهو مصاب وقد قطعت رجله، ومات بعد ذلك بثلاثة أيام رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه وأرضاه، وانتهت هذه المبارزة فغضبت قريش عند ذلك وكرّوا على المسلمين كرة رجل واحد، فقام النبي ﷺ يناشد ربه تعالى فقال: «اللَّهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد، اللَّهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبدا». وبالغ في الابتهال ورفع يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه،

فردّه عليه أبو بكر الصديق وقال: حسبك يا رسول اللَّه ألححت على ربك. عند ذلك أوحى اللَّه تبارك وتعالى إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب وأوحى اللَّه تبارك وتعالى إلى رسوله ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] أي إنهم ردف لكم يساعدونكم فأغفى رسول اللَّه ﷺ إغفاءة واحدة ثم قال: أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع[1]، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣- ١٢٦] ثمّ خرج رسول اللَّه ﷺ من باب العريش وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ثمّ أخذ حفنة من الحصباء (أي الحصى) فاستقبل بها قريشاً فقال: شاهت الوجوه. ورمى بها صلوات اللَّه وسلامه عليه فما من أحد إلا وأصابه ما رماه الرسول ﷺ وفي هذا قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧] وشدّ المسلمون على الكفار فكان النصر.

❊ ❊ ❊

(١) الغبار.

مواقف ذات عبر

* هذا عمير بن الحمام رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلًا غير مدبر إلا أدخله اللَّه الجنة»، وكان يقول: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فقام عمير ابن الحمام فقال: يا رسول اللَّه بخ، بخ. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما يحملك على قولك بخ، بخ؟» فقال: لا واللَّه يا رسول اللَّه إلا رجائي أن أكون من أهلها. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبشراً له: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات رضي الله عنه فجعل يأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمى التمرات ودخل وقاتل حتى قُتل رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه وأرضاه.

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة في السوط فوقه وصوت الفارس: أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه (خر صريعاً) فجاء الأنصاري فحدّث رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة».

* وقال أبو داود المازني رضي الله عنه إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري.

* وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً والعباس خرج مع المشركين وكان كارهاً فأسر قال: يا رسول اللَّه أسرت العباس. فقال العباس: لا واللَّه ما هذا أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق[1] وما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا

(١) أبيض.

رسول اللَّه فقال النبي ﷺ: «اسكت فقد أيدك اللَّه بملك كريم».

* قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن إذ قالا لي: يا عم أرنا أبا جهل. قلت: فما تصنعان به؟ قالا: أُخبرنا أنه يسب رسول اللَّه ﷺ. قلت: والذي نفسي بيده لئن رأيته لأخبرنكما فقال أحدهما: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك، فلم أنشب أن رأيت أبا جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه. فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال الرسول ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» فقالا: لا. فنظر الرسول ﷺ إلى السيفين فقال: «كلاكما قتله».

وكان أبو جهل لما سقط جاءه عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه فقال له: قد أخزاك اللَّه يا عدو اللَّه قال أبو جهل [على ما كان من كفره وعناده إلا إنه كان من شجعان العرب] قال: هل فوق رجل قتلتموه. ثمّ قال أبو جهل لعبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: للَّه ولرسوله. فقام عبداللَّه بن مسعود ووضع رجله على عنق أبي جهل فقال أبو جهل لعبد اللَّه بن مسعود: لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يا رويعي الغنم [يعني أنت تضع قدمك علي؟]. قال ابن مسعود: فاحتززت رأسه عند ذلك. ثمّ ذهب به إلى رسول اللَّه ﷺ فلما رآه النبي ﷺ قال: هذا فرعون هذه الأمة.

* كان عبد الرحمن بن عوف رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه صديقاً لأمية بن خلف في مكة فلما كان يوم بدر مرّ عبد الرحمن بن عوف بأمية بن خلف وهو

واقف مع ابنه آخذاً بيده ومع عبد الرحمن بن عوف أدراع قد استلبها وهو يحملها فلما رآها قال: هل لك فيَّ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التي معك أي خذني أسيراً معك ما رأيت كاليوم قط أما لكم حاجة في اللبن[١] فطرح عبد الرحمن بن عوف الأدراع وأخذهما يمشي بهما وقال أمية لعبد الرحمن: من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فواللَّه إني لأقودهما إذ رآه بلال معي وكان أمية هو الذي يعذب بلالًا في مكة، فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا. فقال عبد الرحمن بن عوف: أي بلال أسيري. قال: لا نجوت إن نجا. ثمّ صرخ بأعلى صوته يا أنصار اللَّه رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا. قال عبد الرحمن بن عوف: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة وأنا أذب عنه فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط فقلت انجُ بنفسك ولا نجاء لك فواللَّه ما أغني عنك شيئاً. قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما فكان عبد الرحمن بن عوف يقول: يرحم اللَّه بلالًا ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري.

نتيجة المعركة

استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلًا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، أما كفار مكة فقتل منهم سبعون وأسر مثلهم وعامتهم من القادة والزعماء، عن أبي طلحة أن نبي اللَّه ﷺ أمر يوم بدر

---

(١) يريد أن من أسره يفتدي هو عن نفسه بإبل كثيرة.

بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فقذفوا في بئر يقال لها بدر ثم مشى صلوات اللَّه وسلامه عليه في اليوم الثالث وجاء إلى بدر حتى قام على شفّة الركا[١] فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم اللَّه ورسوله فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقال عمر: يا رسول اللَّه ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون». متفق عليه[٢] والمشهور عند أهل العلم أن الميت لا يسمع كلام الحي إلا كما أخبر النبي ﷺ في قوله: إنه ليسمع قرع نعالهم[٣] أما بعد ذلك فإنه مشغول بنفسه. ويكون سماعهم هنا خصوصية للنبي ﷺ

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قريش رجل يقال له الحيسمان بن عبداللَّه الخزاعي فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام (أي أبا جهل) وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سمّاهم فلما أخذ يعدّ أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو عند الحِجر: واللَّه إن يعقل هذا فاسألوه عني. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: هاهو ذا جالس في الحجر قد واللَّه رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وهكذا تلقت قريش أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر .

ومن الطرائف أن رجلا يقال له الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر وكان يحب أن يبكي عليهم ولكنه يستحي وكان ضرير البصر فسمع ليلًا صوت نائحة فبعث غلامه وقال: انظر هل أحل النحيب؟ لأنه يريد أن

(١) على وجه البئر.
(٢) البخاري (٢٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٣).
(٣) مسلم (٢٨٧٠).

يبكي والبكاء ممنوع حتى لا يذكّر الناس بهذه المصيبة، قال لَعَلّي: أبكي على أبي حكيمة (يعني ابنه) فإن جوفي قد احترق فرجع الغلام فقال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته فقال الأسود بن المطلب:

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سرات بني هصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد
وَبكِّي إن بكيت على عقيل وَبكِّي حارثاً أسد الأسود
وَبكِّيهم ولا تسمي جميعاً وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا

وفاة رقية بنت النبي

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول اللَّه ﷺ بعد موتها وكان النبي خلفني عليها مع عثمان. وكانت مريضة عندما خرج النبي إلى بدر وأمر عثمان أن يبقى معها.

أسرى بدر

لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة استشار أصحابه في الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم اللَّه فيكونوا لنا عضدا. فقال رسول اللَّه ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال:

واللَّه ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان [ذكر قريباً له] فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان فيضرب عنقه، حتى يعلم اللَّه تبارك وتعالى أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى النبي ﷺ (أي اختار) ما قال أبو بكر وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر: غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر فإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول اللَّه أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول اللَّه ﷺ: للذي عُرض عليَّ من أصحابك من أخذ الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة وأشار إلى شجرة قريبة وأنزل اللَّه جل وعلا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨] أي لكي يثخن في الأرض وأما الكتاب الذي سبق من اللَّه تبارك وتعالى فهو قول اللَّه جل وعلا ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

وذلك أن قائد الجيش إذا أسر المشركين فهو مخير بين أربعة أمور:

أولا: أن يقتلهم.

ثانياً: أن يفاديهم بمال أو مقابل أسرى أو ما شابه ذلك.

ثالثاً: أن يعفو عنهم بدون مقابل.

رابعاً: أن يسترقهم عبيداً عند المسلمين.

والنبي ﷺ قبل الفداء من بعضهم ومنّ على بعضهم صلوات اللَّه وسلامه عليه.

فرض صيام رمضان

وفي هذه السنة أي الثانية من الهجرة فرض اللَّه تبارك وتعالى صيام رمضان في قول اللَّه جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥] ففرض اللَّه تبارك وتعالى الصيام في هذه السنة.

بعد هذه الهزيمة المنكرة لقريش في بدر جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر، وكان لعمير ولد يقال له وهب وهو ممن أسر في بدر، فتذاكرا المصيبة التي وقعت لأهل مكة بهذه الهزيمة، فقال صفوان بن أمية لعمير: واللَّه إن في العيش بعدهم خير [أي ليس في العيش بعدهم خير، إن هنا هي النافية كما في قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]. أي لن يستطيعوا] فقال له عمير: صدقت واللَّه أما واللَّه لولا دين عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة ابني أسير في أيديهم. فقال صفوان: دينك عليّ أنا اقضيه عنك، وعيالك مع عيالي ولا يسعني شيء ويعجز عنهم. قال عمير. وقد

أُلزم بما قال: فاكتم عني شأني وشأنك. قال: أفعل. ثم أخذ عمير سيفه وانطلق حتى قدم المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب وهو في نفر من المسلمين فقال عمر: هذا عدو اللَّه عمير ما جاء إلا لشر. ثمّ دخل على النبي ﷺ وقال: يا نبي اللَّه هذا عدو اللَّه عمير قد جاء متوشحاً سيفه. فقال النبي ﷺ: «فأدخله عليَّ» فأقبل عمير فلببه عمر في حمالة سيفه أي ضمه ضماً بحيث أنه لا يستطيع أن يمسك سيفه وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول اللَّه ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون. فلما رآه رسول اللَّه ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير». فقال عمير: انعموا صباحاً. فقال النبي ﷺ: «قد أكرمنا اللَّه بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة»(١). ثمّ قال له النبي ﷺ: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي بين أيديكم فأحسنوا فيه. فقال: «فما بال السيف في عنقك؟». قال: قبحها اللَّه من سيوف وهل أغنت عنّا شيئاً؟! قال: «أصدقني ما الذي جئت له؟». قال: ما جئت إلا لذلك. قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثمّ قلت أنت: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمّل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، واللَّه حائل بينك وبين ذلك». استغرب عمير كيف عرف النبي ﷺ هذا الأمر فقال عمير: أشهد أنك رسول اللَّه قد كنا يا رسول اللَّه نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل

---

(١) إذاً لا ينبغي لنا إذا دخل علينا أحد أو دخلنا على أحد أن نقول مرحبا أو مساء الخير أو غير هذه من الكلمات وإن كانت هي في أصلها جميلة ولكن بعد السلام فالأول يبدأ بالسلام فيقول السلام عليكم ثمّ إن شاء قال مرحباً أو مساء الخير أو ما شاء من هذه الكلمات.

عليك من الوحي، هذا الأمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فواللَّه إني لأعلم ما أتاك به إلا اللَّه، الحمد للَّه الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق. ثمّ تشهد شهادة الحق فقال أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه فقال رسول اللَّه ﷺ: «فقّهوا أخاكم في دينه وأقرؤوه القرآن وأطلقوا له أسيره».

أما صفوان في مكة فكان ينتظر خبر النبي ﷺ وكان يقول لأهل مكة: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر. وكلما جاء ركب قال لهم: ما حال عمير؟ حتى جاء ركب فقال لهم: ما حال عمير؟ فقالوا: أسلم، فحلف صفوان ألّا يكلمه أبداً ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه أناس كثير.

سبحان اللَّه خرج كي يقتل النبي ﷺ ثمّ رجع داعية إلى اللَّه جلّ وعلا.

* * *

معارك النبي ﷺ مع اليهود

يهود بنو قينقاع: عقد النبي ﷺ معاهدات مع اليهود في المدينة، وكان ممن عقد معهم المعاهدات بنو قينقاع وكانوا شر الطوائف وأشجعهم وكانوا يسكنون داخل المدينة في حي باسمهم حي بني قينقاع وكانوا صاغة للذهب وحدادين وصنّاعاً للأواني، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمئة وهم أول من نكث العهد والميثاق مع النبي ﷺ.

أخرج أبو داود[١] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما أصاب الرسول ﷺ قريشاً يوم بدر وقدم إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال لهم: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثلما أصاب قريشاً. قالوا: يا محمد لا يغرّنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل اللّه تبارك وتعالى مدافعاً عن نبيه ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

وقد روى ابن هشام في سيرته عن أبي عون: أن امرأة من العرب قدمت إلى السوق بجلب لها[٢] فباعته في سوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها

---

(١) (٣٠٠١).

(٢) بضاعة.

فعقده إلى ظهرها وهي لا تعلم فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك عليها اليهود، فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ فقام اليهود وقتلوا المسلم فاستصرخ أهل المسلم على اليهود فوقع بينهم شر داخل السوق عند ذلك قام النبي ﷺ واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبدالمنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود اللَّه إلى بني قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في الحصون داخل حيهم فحاصرهم أشد الحصار صلوات اللَّه وسلامه عليه وذلك في شوال في السنة الثانية من الهجرة، واستمر الحصار خمس عشرة ليلة وقذف اللَّه في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم الرسول ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، فأمر بهم النبي ﷺ فكتفوا، وعند ذلك قام الخبيث عبداللَّه بن أبي بن سلول رأس المنافقين فألح على رسول اللَّه ﷺ أن يعفو عنهم قال: يا محمد أحسن إلى مواليِّ وكانوا حلفاء الخزرج فسكت النبي ﷺ فكرر مقالته فأعرض عنه النبي ﷺ فأمسك بالنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «أرسلني». ثمّ قال: «ويحك أرسلني». فقال المنافق: لا واللَّه لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ أربعمئة، حاسر وثلاثمئة دارع منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني واللَّه امرؤ أخشى الدوائر. قال النبي ﷺ: «هم لك». فوهبهم له ولكن أمرهم أن يخرجوا من المدينة وأن لا يجاوروه فيها فخرجوا إلى الشام .

* * *

قتل كعب بن الأشرف

كان من أشد اليهود أذى وحقداً على النبي ﷺ وذلك أن هذا اليهودي صار يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويمدح أعداء النبي ويحرضهم عليه، حتى سافر إلى قريش فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين يريد أن يهيج أهل مكة للانتقام، وهناك سأله أهل مكة أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى سبيلا؟ فقال: أنتم أهدى سبيلا وقام وسجد لأصنامهم فأنزل اللَّه جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ – ٥٢] حينئذ قال رسول اللَّه ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه آذى اللَّه ورسوله»؟ فانتدب له محمد بن مسلمة وعباد بن بشر ورجل يقال له أبو نائلة فذهبوا إليه وقتلوه في قصة طويلة.

عن محمد بن مسلمة أن رسول اللَّه ﷺ قال: من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى اللَّه ورسوله فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول اللَّه، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: قل.

فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا. (يعني النبي ﷺ).

قال كعب: واللَّه لَتَمَلُّنَّه.

قال محمد بن مسلمة: فإنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى

أي شيء يصير شأنه. وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين.

قال كعب: نعم ارهنوني.

قال ابن مسلمة: أي شيء تريد؟ قال: أرهنوني نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فترهنوني أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا ولكنا نرهنك اللأمة (السلاح). فقال كعب: أفعل.

وكذا فعل أبو نائلة مع كعب بن الأشرف.

فجاءاه ومعهما بعض أصحابهما فقال أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف أن تمشي إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا؟ قال: إن شئتم.

فقال أبو نائلة: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط، وزهي كعب بما سمع.

[وكان كعب قد تعطر] فقال له أبو نائلة: أتأذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم. فأدخل يده في شعره ثم أخذ برأسه وقال: دونكم عدو اللَّه فقتلوه[(١)].

* * *

(١) رواه البخاري (٤٠٣٧).

غزوة أحد سنة ٣ هـ

بعد هذه الأحداث وانتهاء هذه السنة ألا وهي السنة الثانية من الهجرة اجتمع أهل مكة وجمعوا ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش وهم النّزع من القبائل يعيشون في مكة وليسوا من أهلها وأخذوا معهم النساء، وجهزوا هذا الجيش للانتقام، وكانت القيادة لأبي سفيان بن حرب بعد مقتل أبي جهل، وقيادة الفرسان لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، وخرج هذا الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام إلى المدينة يريدون الانتقام لقتلاهم في بدر، وبلغ النبي ﷺ هذا الأمر فاستنفر الناس فحمل الناس سلاحهم خوف المباغتة لا يتركون السلاح حتى في صلاتهم يخشون من دخول أهل مكة عليهم، وكان أهل المدينة من الأنصار كسعد بن معاذ وأسيد ابن حضير وسعد بن عبادة يقومون على حراسة النبي ﷺ، وجمع النبي ﷺ كبار أصحابه وأخبرهم برؤيا رآها ﷺ فقال: «إني رأيت واللَّه خيراً رأيت بقراً يُذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة». فتأول البقر بنفر من أصحابه يُقتلون وتأول الثلمة في سيفه في رجل يصاب من أهل بيته وتأول الدرع بالمدينة ثم قال ﷺ: «أرى أن نقاتلهم من المدينة نتحصن في المدينة ونقاتلهم، فإن أقاموا بمعسكرهم أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا المدينة قاتلناهم من الأزقة[١] ومن فوق البيوت». وافقه على هذا كبار الصحابة وممن وافقهم على ذلك عبداللَّه بن أبي بن سلول، وقام جماعة من شباب الصحابة الذين فاتهم القتال في بدر فقالوا: يا رسول اللَّه إنّا كنا نتمنى

(١) الطرق الضيقة.

هذا اليوم وندعو اللَّه تبارك وتعالى أن يبلغنا إياه، نخشى أن يُظن أنّا جبنّا عنك، فقال النبي ﷺ: لا بأس ثمّ دخل إلى بيته ولبس أدراع القتال صلوات اللَّه وسلامه عليه، وهذا من بذل السبب وكان الناس ينتظرونه ﷺ حتى يخرج إليهم فقال لهم سعد بن معاذ: استكرهتم رسول اللَّه ﷺ على الخروج فردوا الأمر إليه. فندموا على ما صنعوا فقالوا له: يا رسول اللَّه ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت إنما هو رأي رأيناه إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته[1] أن ينزعه حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه» فخرج النبي ﷺ إلى القتال وبينما هم في الطريق رجع المنافق عبداللَّه ابن أبي بن سلول بثلث الجيش قائلًا: لا أتوقع أن يكون قتال. وأنزل اللَّه تبارك وتعالى في المنافقين ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ونجح هذا المنافق باستدراج ثلاثمئة رجل من منافق وضعيف إيمان ولكن أكثرهم كانوا من المنافقين، وهمّت طائفتان من المسلمين من الأنصار وهم بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج أن يرجعوا كذلك مع عبداللَّه بن أبي بن سلول ولكن اللَّه ثبتهما، وأنزل اللَّه جلّ وعلا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] بعد أن وصل جيش المؤمنين إلى أحد، ووصل جيش الكفار كذلك نهى النبي ﷺ الناس عن القتال حتى يأمرهم ولبس صلوات اللَّه وسلامه عليه درعين وحرّض أصحابه على القتال وحضّهم على الصبر في اللقاء وبثّ فيهم روح الحماسة صلوات اللَّه وسلامه

(١) يعني لباس الحرب.

عليه ثمّ رفع سيفه وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقّه؟». فقام إليه رجال فقال النبي ﷺ لأبي دجانة: خذه فقال: يا رسول اللَّه وما حقّه؟ قال: «أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني» قال: أنا آخذه بحقّه يا رسول اللَّه. فأعطاه إياه فلمّا أخذ السيف عصب على رأسه عصابة (أي خرقة) وجعل يتبختر بين الصفين(١) فقال رسول اللَّه ﷺ: «إنها لمشية يبغضها اللَّه إلا في مثل هذا الموطن»(٢) لأنه يغيظ الأعداء وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان وبدأ القتال وكان لواء المشركين مع طلحة ابن أبي طلحة العبدري وكان من فرسان قريش يسميه الناس كبش الكتيبة من شجاعته، خرج على جمل يدعو إلى المبارزة فتقدّم إليه الزبير بن العوام ووثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض(٣) وقام وذبحه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكبّر رسول اللَّه ﷺ وكبّر المسلمون ثمّ قال النبي ﷺ للزبير: «لكل نبي حواري وحواري الزبير»(٤).

استشهاد حمزة بن عبد المطلب

اشتد القتال بين المسلمين وأهل مكة وقتلوا من أهل مكة كثيراً، واستشهد في هذه المعركة عم الرسول ﷺ أسد اللَّه وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قتله رجل يقال له وحشي بن حرب، ويحدثنا وحشي بن حرب عن قتله لحمزة قال: كنت غلاماً لجبير بن مطعم وكان عم جبير بن مطعم وهو طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أُحد

(١) يمشي بفخر.
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٠٩ وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.
(٣) ألقاه إلى الأرض.
(٤) رواه البخاري (٣٧١٩) ومسلم (٢٤١٥).

قال لي جبير: إنّك إن قتلت حمزة عمَّ محمد بعمّي فأنت عتيق. [وبعد هذه أسلم جبير وحسن إسلامه]، قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلًا حبشياً أقذف بالحربة قلّما أُخطئ بها شيئاً فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبعه ببصري حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل يهدّ الناس هداً ما يقوم له شيء، فواللَّه إني لأتهيأ له أريده فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزّى فلمّا رآه حمزة قال له: هلمّ إليَّ يا ابن مقطّعة البظور [أمه كانت تختن النساء] فضربه ضربة فكأنما أخطأ راسه [يعني أصابه إصابة واحدة قطع رأسه بها] هنا هززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في أحشائه حتى خرجت من بين رجليه وذهب لينوء نحوي فغُلب فتركته وإياها حتى مات، ثمّ أتيت بعد ذلك فأخذت حربتي ورجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة عتقت(١).

والعجيب أن وحشي بن حرب هذا بعد ذلك أسلم وتاب فكان أن وفقه اللَّه تبارك وتعالى إلى قتل مسيلمة الكذّاب فيقول: قتلت ولي اللَّه وقتلت عدو اللَّه.

اشتد القتال في هذه المعركة العظيمة وأنزل اللَّه نصره على المسلمين وصدقهم وعده سبحانه وتعالى، فكشف المسلمون الكافرين عن المعسكر وكانت الهزيمة على المشركين، قال الزبير بن العوام: واللَّه لقد رأيتني أنظر إلى خدم(٢) هند بنت عتبة وصواحبها مشمّرات ما دون أخذهن قليل ولا كثير(٣).

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة وهو صحيح وهذا يبطل ما اشتهر من أن هند بنت عتبة هي التي أرسلت وحشي أو أنها أكلت كبد حمزة رضي الله عنه وعنها.
(٢) الخدم هي السقان.
(٣) يعني يستطيع أن يمسك بهن.

وفي حديث البراء عند البخاري[١] فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهنّ فتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم، ومن هذا يتبين أن نصر اللَّه المسلمين في أول هذه المعركة، وكان النبي ﷺ قد أمر الرماة أن لا يتركوا مكانهم أبدا ولكنهم لما رأوا الهزيمة، ورأوا النساء تفر، والرجال يفرون، ظنوا أن المعركة قد انتهت، فنزلوا عن أماكنهم، وكان عبداللَّه بن جبير الأنصاري قائد الرماة يأمرهم أن لا يتحركوا وأن يبقوا في أماكنهم كما أمر النبي ﷺ، وردّوا عليه بأن القتال قد انتهى ونزلوا عن أماكنهم، وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل كانا قائدي الفرسان ولم يشاركا في هذه المعركة لأنه ما كان لهما دور، لأن المسلمين كانوا قد أخذوا الأماكن الصحيحة، فلما رأى خالد بن الوليد الرماة قد تركوا مكانهم التف خلف الجبل وصاح في كفار قريش يناديهم، فرجع كفار مكة وصار المسلمون في الوسط بين فكي الكماشة، فوقع فيهم القتل وفرّ من فرّ من المسلمين بعد هذه الفوضى التي رأوها، وأن الكفار صاروا يقتلون فيهم قتلًا ذريعاً لا يتركون أحداً إلا قتلوه ممن طالوه بأيديهم أو بسهامهم، فمرّ أنس بن النضر رضي الله عنه بالمسلمين فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: قُتِل رسول اللَّه ﷺ، وذلك أنه أشيع أن النبي ﷺ قد قُتِل فيمن قُتِل من المسلمين، فقال لهم أنس: ما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول اللَّه ﷺ، ثمّ قال: اللَّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، و أبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثمّ تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واه لريح الجنة يا سعد إني أجده دون أحد، ثمّ مضى وقاتل القوم حتى قتل، فلم يعرفه أحد إلا أخته ببنانه، وذلك أنه وجد به بضع وثمانون طعنة أو ضربة سيف.

(١) (٤٠٤٣).

قال أنس بن مالك: أُفرد الرسول ﷺ يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: «من يردهم عنّا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثمّ قام الثاني فقاتل حتى قتل، حتى قتل السبعة بين يدي رسول اللّه ﷺ أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(١).

وقد ثبت في الصحيحين(٢) أن النبي ﷺ كسرت رباعيته(٣) وشُجَّ رأسه فجعل يمسح الدم صلوات اللّه وسلامه عليه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟» وأنزل اللّه عز وجل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

بطولات في أحد

١) **طلحة بن عبيد اللّه** رضي الله عنه: دافع عن النبي ﷺ حتى شلّت يمينه وقال قيس بن أبي حازم: رأيت يد طلحة شّلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد. وقال النبي ﷺ عن طلحة(٤): «من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد اللّه» وكان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك اليوم كله لطلحة.

٢) **أبو عبيدة بن الجراح** رضي الله عنه: رُمي النبي ﷺ في وجنته و دخل

(١) (١٧٨٩).
(٢) البخاري (٢٩٠٣) ومسلم (١٧٩١، ١٧٩٢).
(٣) أسنانه.
(٤) رواه الترمذي (٣٧٣٩).

المغفر(١) في خده، فجاء أبو بكر مع طلحة بن عبيد اللَّه فأراد أبو بكر أن ينزع المغفر عن وجه النبي ﷺ فقال أبو عبيدة: ناشدتك باللَّه إلا تركتني فأخذ بفيه (أي بفمه) فجعل ينضضه (أي يحركه) يسيراً كراهية أن يؤذي رسول اللَّه ﷺ ثمّ استله بفمه فسقطت ثنيته(٢) رضي اللَّه تعالى عنه، و لما سقطت أسنان أبي عبيدة قال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم فقد أوجب»(٣) بما فعل للنبي ﷺ.

٣) **أبو طلحة** رضي الله عنه قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يديه، وكان أبو طلحة رجلًا رامياً شديد النزع(٤)، فكان يمر عليه الرجل ومعه الجعبة(٥) فيقول له النبي ﷺ: «انثرها لأبي طلحة». ويشرف النبي ﷺ وأبو طلحة يرمي ثمّ يصد عن النبي ﷺ ويقول: نحري دون نحرك يا رسول اللَّه بأبي أنت وأمي.

٤) **أبو دجانة** رضي الله عنه: حين قصد المشركون قتل النبي ﷺ قام أبو دجانة فترّس على النبي بظهره أي احتضن النبي ﷺ وجعل ظهره للرمي.

وقد أنزل اللَّه تبارك وتعالى في هذه المعركة آيات في سورة آل عمران ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

---

(١) غطاء الرأس من الحديد.
(٢) أسنانه.
(٣) الجنة.
(٤) يعني يصيب إذا رمى.
(٥) يعني التي فيها السهام.

بطولات النساء

الأصل أن بطولات الرجال تكون داخل المعارك وبطولات النساء تكون خارج المعارك بالصبر والثبات والرضا بقضاء اللَّه وقدره .

١- **نسيبة بنت كعب**: عن ضمرة بن سعيد عن جدته وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان». وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً.

٢- **امرأة من بني دينار**: أُصيب في أُحد زوجها وأخوها وأبوها فلما قالوا لها: مات أبوك. قالت: ولكن ما فعل رسول اللَّه؟ قالوا: وأعظم اللَّه أجرك في أخيك. قالت: وما فعل رسول اللَّه؟ قالوا: وقد استشهد زوجك. قالت: وما فعل رسول اللَّه ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد اللَّه كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأُشير إليها أي هناك الرسول ﷺ فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.

وهذا مصداق قول النبي ﷺ: إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليتذكر مصيبته فيَّ فإنها أعظم المصائب[١].

أعظم مصيبة أصيب بها الناس كلهم هي مصيبة وفاة النبي ﷺ، وهذه الصحابية رضي الله عنها حققته واقعاً مات أبوها وأخوها وزوجها وتقول: ما فعل رسول اللَّه ﷺ؟!.

---

(١) رواه الدارمي (٨٥ - ٨٦).

كانوا يحبون رسول اللَّه ﷺ حباً عظيماً، ونحن بما أننا لم نرَ رسول اللَّه ﷺ فإظهار حبنا له صلوات اللَّه وسلامه عليه إنما يكون باتباعه والسير على هديه والدفاع عن سيرته ونشرها بين الناس فهذا هو الواجب علينا جميعاً.

قتل من المسلمين سبعون وقتل من المشركين ثمانية وثلاثون أو سبعة وثلاثون على خلاف في الروايات ومن أراد أن يعرف ما دار في هذه المعركة بصورة عامة فعليه أن يقرأ سورة آل عمران فإنها تكلمت عن هذه المعركة بشبه تفصيل وذكرت بعض الحوادث (من آية ١٢١ - ١٧٤).

هل قتَل النبي ﷺ أحداً؟

لحق بالنبي ﷺ أُبيٌّ بن خلف من كفار مكة وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجى. فقالوا: يا رسول اللَّه أيعطف عليه رجل منّا[1] فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: دعوه. فلما دنا منه تناول رسول اللَّه ﷺ الحربة من الحارث بن الصمّة فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطاير عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير ثمّ استقبله فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه مراراً فحُمل وأخذ إلى أهل مكة فقالوا له: ما لك؟ فقال: قتلني واللَّه محمد فقالوا له: ذهب واللَّه فؤادك واللَّه إن بك من بأس[2] فقال: إنه قد كان قال لي بمكة أنا أقتلك فواللَّه قتلني. فمات في الطريق. وفي مكة قال أُبيْ ابن خلف للنبي: يا محمد عندي فرس أعلفه كل يوم أقتلك عليه. فكان النبي ﷺ يقول له: بل أنا قاتلك. فوقع ما أخبر به النبي ﷺ وقتل صلوات اللَّه وسلامه عليه

(١) يقتله.
(٢) ما بك بأس.

عدو اللَّه أُبيْ بن خلف.

بعد إشاعة قتل النبي ﷺ توقف المشركون عن القتال وتوقف المسلمون.

ملخص معركة أحد

١- اراد النبي ﷺ القتال من المدينة في البداية ولكن لما أصر شباب الصحابة خرج النبي ﷺ إلى أحد وتمّ القتال هناك.

٢- رجع عبداللَّه بن أبي بن سلول بثلث الجيش فصار عدد المسلمين سبعمئة بعد أن كان ألفاً وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف.

٣- أمر النبي ﷺ الرماة أن لا يتركوا مكانهم .

٤- عرض النبي ﷺ سيفه وأخذه أبو دجانة وتبختر به .

٥- هُزِم المشركون في أول المعركة ثمّ كانت مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ ودارت الدائرة بعد ذلك على المسلمين.

٦- استشهاد حمزة عم النبي ﷺ وأنس بن النضر وعمرو بن الجموح وعبداللَّه بن عمرو بن حرام وغيرهم.

٧- أصيب النبي ﷺ في هذه المعركة حتى سقطت رباعيته وشج وجهه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

٨- محاولة أُبيْ بن خلف قتل النبي ﷺ، وقتل النبي ﷺ له، وهذا الوحيد الذي قتله النبي ﷺ.

٩- جمع النبي ﷺ أبويه لسعد بن أبي الوقاص رضي الله عنه وقال له: ارمِ فداك أبي وأمي[1].

(١) مسلم (٢٤١١).

١٠- إشاعة مقتل النبي ﷺ.

١١- لما اشتد القتال ووقع في المسلمين القتل أراد المشركون قتل النبي ﷺ فكان ممن دافع عن النبي ﷺ امرأة يقال لها أم عمارة نسيبة بنت كعب.

١٢- قاتل مع النبي ﷺ رجل يقال له مخيريق يهودي أسلم وقاتل مع النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يقول: مخيريق خير يهود.

هل يصلى على الشهيد؟

المشهور عند أهل العلم بل شبه متواتر أن النبي ﷺ لم يصل على شهداء أحد وكفنهم في ثيابهم، إلا من لم يوجد له ثوب فكفن بغيره كمصعب بن عمير وحمزة حتى قال النبي ﷺ: يأتون يوم القيامة الجرح يثعب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك .

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : قُتِل مصعب بن عمير وهو خير منّي وكُفّن في بُردٍ فإن غُطي رأسه بدت رجلاه وإن غُطّيَت رجلاه بدا رأسه وأنزل رأسه وصار يبكي (أي عبد الرحمن بن عوف رضي اللّه تبارك عنه وأرضاه).

والصحيح في الشهداء أن الصلاة عليهم جائزة وهكذا كان فعل النبي ﷺ أحياناً يصلي على بعض الشهداء وأحياناً يترك صلوات اللّه وسلامه عليه.

وقد ذكر ابن القيم رحمه اللّه تبارك وتعالى الحكم والغايات والفوائد من تلك المعركة منها:

أولًا: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي لما وقع

من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوه.

ثانياً: إن عادة الرسل أن تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة في النهاية، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب.

وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين فلما جرت هذه القصة أظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول وعاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ثالثاً: قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩] فلو كان دائماً هزيمة ما ظهر هذا الدين ولو كان دائماً نصر لم تتميز الصفوف، فهزيمة ونصر حتى يظهر اللَّه تبارك وتعالى الدين كله على الأرض كلها.

رابعاً: إن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشماختها، حتى لا يصيب الإنسان الكِبْر والعُجب بنفسه فيُهزم أحياناً وينتصر أحياناً حتى يعرف أن الأمر كله بيد اللَّه تبارك وتعالى.

خامساً: إن اللَّه تبارك وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب المحن والابتلاء ليصلوا إليها.

فلو لم يكن هناك جهاد ما نال المسلمون الفردوس الأعلى عند اللَّه تبارك وتعالى، ولا شفع الشهيد لسبعين من أهله، ولا غُفر له مع أول قطرة دم تخرج، ولا عُصم من فتنة القبر، ولكن اللَّه يريد أن يرفع درجاتهم فكان الجهاد.

سادساً: إن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها اللَّه سبحانه وتعالى إليهم سوقا.

سابعاً: أنه أراد سبحانه وتعالى إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه فمحّص بذلك ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين.

ولاشك أن هناك فوائد أخرى ولكن هذه بعض الفوائد التي ذكرها الإمام ابن القيّم رحمه اللَّه تبارك وتعالى.

* * *

بعث الرجيع

في السنة الرابعة من الهجرة قدم على الرسول ﷺ قوم من عضل وقارة وذكروا أن فيهم إسلاماً، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويُقرؤهم القرآن، فبعث النبي ﷺ معهم عشرة من أصحابه وأمّر عليهم عاصم بن ثابت وقيل أمّر مرثد بن أبي مرثد، فلما وصلوا إلى مكان يقال له الرجيع استصرخوا عليهم(١) حياً من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مئة رام من بني لحيان فلحقوهم وأحاطوا بهم، ثم لجأوا إلى مكان يصدهم عن الأعداء فقال لهم أعداؤهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلًا.

فأبى عاصم أن ينزل وقاتلهم مع أصحابه فقتل منهم سبعة، وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق فنزلوا إليهم، لأنهم أكثر من مئة مقابل خمسة وليس معهم سلاح، ولكنهم غدروا بهم وربطوا اثنين بأوتار قسيّهم(٢) فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر صالحتمونا ثمّ تربطوننا فأبى أن يستسلم لهم وقاتلهم حتى قُتِل، وأخذوا خبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر. فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً ووقعت له حادثتان:

الحادثة الأولى: أنهم كانوا يجدون عنده الطعام ولم يعطه أحد شيئاً وإنما هي كرامة من الله سبحانه وتعالى.

الحادثة الثانية: أنه طلب الموسى حتى يحلق الشعر الذي في جسده

(١) لقتلهم.
(٢) بأحبال النبل.

فأرسلت المرأة التي هو في بيتها الموسى مع ولدها، فلما أتاه الولد بالموسى تذكرت المرأة كيف ترسل الموسى مع ولدها؟ وهذا الرجل مقتول، وقد يقتل ولدها مقابل نفسه لينتقم، فجاءت مسرعة فلما رأى خبيب المرأة وهلعها، والولد عنده والموسى معه قال لها: أخشيت أن أقتله؟! وتركه ولم يؤذه، ثم أُخذ خبيب رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه إلى التنعيم خارج مكة أي إلى الحِل لأنهم كانوا يستحرمون القتل داخل الحرم، وهنا يستحلون الغدر فتحريمهم وتحليلهم هوى وليس اتباع دين، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه فصلاهما فلما قضى قال: واللَّه لولا أن تقولوا إنما بي جزع لزدت، فصلى صلاة قصيرة وهي ركعتان وقال أهل العلم: سنة القتل ركعتان سنها خبيب رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه.

ثم قال خبيب: اللَّهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبقِ منهم أحدا ثم قال أبياتاً من الشعر:

لقد أجمعَ الأحزابُ حولي وألّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كُلَّ مَجْمعَ
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جِذعٍ طويلٍ ممنّعٍ
إلى اللَّه أشكو غُربتي بعد كربتي ... وما جمع الأحزاب لي عند مضجعي
فذا العَرْشِ صَبِّرني على ما يُرادُ بي ... فَقَد بضَعَّوا لحمي وقد بُؤس مَطْمع
وقد خَيَّروني الكفرَ والموتَ دونه ... فقد ذَرَفَت عيناي من غير مَدْمَع
ولستُ أبالي حين أُقتَل مسلما ... على أي شِقٍّ كان في اللَّه مصرِعي
وذلك في ذات الإلهِ وإن يَشَأ ... يبارك على أَوصالِ شِلْوٍ مُمزع

فالتفت إليه أبو سفيان وقال له: يا خبيب أيسرك أن محمداً عندنا تُضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فماذا كان جواب المؤمن المحب لرسول اللَّه ﷺ؟ قال: لا واللَّه ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً ﷺ في مكانه الذي هو فيه

يصاب بشوكة تؤذيه. ثم صلبوه ﵁ ووكّلوا به من يحرس جثته فجاء عمرو ابن أمية الضمري فاحتمله بالليل خديعة دون أن يراه أحد فذهب به ودفنه ويقال أن الذي باشر قتل خبيب بن عدي هو عقبة بن الحارث .

قال معاوية رضي اللّه تبارك وتعالى عنه: كنت فيمن حضر قتل خبيب فلقد رأيت أبا سفيان يلقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب وكانوا يقولون إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع زلت عنه الدعوة. فكانوا يعتقدون أنه مظلوم، وأن دعوته حق، وكان كذلك، وممن حضر قتل خبيب بن عدي سعيد بن عامر.

وله معه قصة: وذلك أن عمر في خلافته قد جعله والياً على الشام فسأل عمر رضي اللّه تبارك وتعالى عنه الناس في الشام وقال: كيف حال واليكم؟ فقالوا: لا ننقم عليه إلا ثلاثة أشياء.

قال عمر: وما هي؟ قالوا: في يوم من الأسبوع لا يخرج إلينا، والثانية أنه لا يخرج إلينا في الليل، والثالثة أحياناً وهو جالس معنا تصيبه غشية ويقع.

فناداه عمر فقال: يا سعيد ما هذا الذي يحدث الناس؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: يقولون إنك في يوم من الأسبوع لا تخرج إليهم .

قال: يا أمير المؤمنين هذا اليوم أغسل فيه ثوبي وليس عندي ثوب غيره هل أخرج لهم بدون ثوب؟! فإني أبقى حتى يجف الثوب ثم أخرج إليهم .

قال: إنهم يقولون إنك لا تخرج إليهم في الليل .

قال: يا أمير المؤمنين النهار لهم والليل لربي. قال: وما هذه الغشية التي تصيبك؟ فبكى وقال: يا أمير المؤمنين إني حضرت قتل خبيب بن عدي وإني

كلما تذكرت دعوته وقتله أغمي علي من الخوف من اللَّه تبارك وتعالى.

هذا حال خبيب، وأما عاصم بن ثابت رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه فإنه امتنع عن النزول إليهم ولم يستسلم فقاتلهم حتى قتلوه، ولكن البغض والحقد الذي في قلوب المشركين عظيم وتمثل في أن قريشاً بعثت من يأتي لهم بجسد عاصم حتى يتأكدوا أن عاصماً قد قتل وتشفى قلوبها من الغل الذي فيها، فبعث اللَّه تبارك وتعالى مثل الظُلة من الدَّبَر(١) فحمته فلم يستطيعوا أن يصلوا إليه، وكان عاصمٌ قد أعطى اللَّه تبارك وتعالى عهداً أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك، وذلك لبغضه للمشركين، فوفاه اللَّه تبارك وتعالى عهده حتى بعد موته.

ولذلك لما قيل لعمر ذلك قال: يحفظ اللَّه العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته.

بئر معونة وابتلاء جديد

قدم أبو البراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة على رسول اللَّه ﷺ المدينة فقال له الرسول ﷺ: «أسلم تسلم». فأظهر ليناً وأظهر نوع استجابة للنبي ﷺ ولكنه لم يسلم وقال للنبي ﷺ: يا رسول اللَّه لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم. فقال النبي ﷺ: إني أخاف عليهم أهل نجد فقال أبو البراء: أنا جار لهم، فبعث النبي ﷺ معه سبعين رجلًا وأمّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة، وكان هؤلاء

(١) نوع من الحشرات كالبعوض.

السبعون من خيار المسلمين ذهبوا ينشرون دين اللَّه تبارك وتعالى في أهل نجد، فساروا يتدارسون القرآن ويصلون بالليل حتى نزلوا مكاناً يقال له بئر معونة، ثم بعثوا حرام بن ملحان خال أنس بن مالك ﵁ بكتاب الرسول ﷺ إلى عدو اللَّه عامر بن الطفيل فقال له: هذا كتاب رسول اللَّه ﷺ فرمى بالكتاب قبل أن يقرأه ثم أمر رجلًا فطعن حرام بن ملحان بظهره ﵁ فلما نفذ الرمح في ظهره قال: اللَّه أكبر فزت ورب الكعبة، [هكذا يرون أن هذا نصر وفوز لأنه نال الشهادة في سبيل اللَّه].

ثم قام عامر بن الطفيل واستنفر الناس وقال: القتال القتال فامتنع عنه كثير من الناس لجوار أبي البراء ملاعب الأسنة لأنه قال: إنهم في جواري، ولكن هذا الخبيث عامر بن الطفيل ردَّ جوار أبي البراء وصار يستنفر الناس ويقول: قوموا نقتلهم فرصة مهيأة وغنيمة باردة، وقام معه رجال من عصية ورعل وذكوان قبائل عربية، فجاؤوا وأحاطوا بأصحاب رسول اللَّه ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم فلم ينجُ منهم إلا ثلاثة كعب بن زيد سقط مع القتلى ولكنه لم يمت وبقيت فيه الروح فتركوه ومشوا ظناً منهم أنه مات ثم هرب ﵁، وعمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن عقبة وهما كانا بعيدين عن القتال لأنهما كانا مع خيل المسلمين فلم يكونا معهم، ولكنهما رأيا الطير تحوم من بعيد فلما اقتربا وجدا المشركين قد قتلوا أصحابهم، فقام المنذر وصار يقاتل المشركين فقتلوه ﵁ أما عمرو بن أمية فأُسِر ثم تركه عامر بن الطفيل لأن على أمه عتق رقبة فهذه رقبة أعتقها فرجع عمرو إلى النبي ﷺ يخبره بهذه النكبة وبقتل هؤلاء السبعين من أصحاب النبي ﷺ.

وجوب التثبت

وفي الطريق وقعت حادثة لعمرو بن أمية ﵁ وذلك أنه نزل في ظل شجرة، فجاءه رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما أخذ السيف وقتلهما كان يظن أنهما ممن شارك في قتل أصحابه ﵃ ، فلما قتلهما وجد معهما كتاباً فيه عهد من رسول اللَّه ﷺ ، فقدم وأخبر النبي ﷺ بما فعل فقال رسول اللَّه ﷺ : «لقد قتلت قتيلين لأديّنهما» وانشغل بجمع ديتيهما صلوات اللَّه وسلامه عليه فجمع من أصحابه وطلب من بني النضير وذلك أن في صلب المعاهدة بينهم وبين النبي ﷺ أنهم يشاركون في الديات، فكانت بعد ذلك سبباً لغزوة بني النضير.

ولا شك أن النبي ﷺ تألم جداً لهذه المأساة والتي قبلها (الرجيع) وصار يدعو على أولئك القوم في الصلاة شهراً كاملًا يقنت ويدعو عليهم: اللَّهم عليك برعل وذكوان وعصية فإنها عصت ربها، وكان يلعنهم صلوات اللَّه وسلامه عليه في صلاته حتى أنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فترك النبي ﷺ القنوت عليهم، وذُكِرَ عن القتلى أنهم قالوا: بلّغوا قومنا أنا لقِينا ربنا فرضيَ عنّا ورضينا عنه وترك الدعاء على المشركين.

غزوة بني النضير

اليهود وإن كان بينهم وبين النبي ﷺ صلح ومعاهدات إلا أنهم كما هو معلوم أهل غدر وكما ذكرنا من غدر بني قينقاع الآن نذكر غدر بني النضير، وبعدهم نذكر غدر بني قريظة، حتى يُعلم أنهم من عادتهم الغدر.

خرج النبي ﷺ في نفر من أصحابه إلى اليهود وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية فقالوا: نفعل يا أبا القاسم اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك، فجلس صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى جانب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم ومعه بعض أصحابه، منهم: أبو بكر وعمر فاجتمع اليهود وقالوا: اقتلوه هذه فرصتكم فاتفقوا على أن يصعد أحدهم إلى أعلى البيت القريب من الرسول ﷺ ويلقي عليه حجراً فيقتله، فقام رجل يقال له عمرو بن جحاش فقال: أنا أفعلها. قال سلّام بن مشكم: فواللَّه ليخبرن بما هممتم به. [سبحان اللَّه يعلمون أنه صادق]، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه فقالوا: دعنا عنك. فنزل جبريل من عند رب العالمين على رسول اللَّه ﷺ ليعلمه بما هموا به، فقام صلوات اللَّه وسلامه عليه مسرعاً من مكانه وذهب إلى المدينة ولحقه أصحابه وقالوا له: يا رسول اللَّه نهضت بدون أن تعلمنا السبب؟ فأخبرهم أن اليهود قد عزموا على قتله صلوات اللَّه وسلامه عليه فأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها وقد أجلتكم عشراً[١] فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، ولم يجد اليهود مناصاً من الخروج فقاموا أياماً يتجهزون للرحيل ولكن عبداللَّه بن أبي بن سلول بعث إليهم وقال: لماذا تخرجون؟ اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وينصركم حلفاؤكم من غطفان، فلماذا تخافون من محمد؟! اثبتوا، فأعاد إليهم ثقتهم بأنفسهم فأرسلوا إلى النبي ﷺ: لن نخرج فاصنع ما شئت. فلما بلغ النبي ﷺ جواب سيدهم حيي بن أخطب كبّر صلوات اللَّه وسلامه عليه وكبّر أصحابه

(١) عشرة أيام.

ثمّ نهض صلوات اللَّه وسلامه عليه لمناجزة القوم، وجعل على المدينة عبداللَّه بن أم مكتوم وجعل اللواء مع على بن أبي طالب، وفرض عليهم الحصار ثم أمر بقطع النخيل، فقالوا: محمد يفسد في الأرض! فقال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] فلما رأوا حصار النبي ﷺ اعتزلتهم قريظة وقالوا: لا شأن لنا، بيننا وبين محمد عهد. واعتزلهم عبداللَّه بن أبي بن سلول، وخانتهم غطفان، وظلوا وحدهم، قال عبداللَّه بن عباس: إن سورة الحشر نزلت فيهم وفيها قصة عبداللَّه بن أبي بن سلول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ - ١٢] فامتنعوا عن نصرهم وخذلوهم وخذلتهم غطفان فقال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] ولم يطل الحصار فقط ست ليال وقيل أكثر من ذلك، فقذف اللَّه تبارك وتعالى في قلوبهم الرعب فقالوا: يا محمد نخرج من المدينة بشرط أن يخرج معنا ذرارينا وما حملت إبلنا من السلاح. فقال النبي ﷺ: لا إلا السلاح، لكم ما حملت الإبل إلا السلاح. فنزلوا على رأي النبي ﷺ وصاروا يخربون بيوتهم حتى لا يسكنها المسلمون، وأخذ بعضهم الشبابيك والأوتاد وغيرها معهم، وحملوا النساء والصبيان على ستمئة بعير، ورحل أكثرهم كحيي وسلّام بن أبي الحقيق إلى خيبر.

وقبض النبي ﷺ سلاحهم واستولى على أرضهم فوجد من السلاح خمسين درعاً وثلاثمئة وأربعين سيفاً.

* * *

غزوة الأحزاب سنة ٤هـ

غزوة الأحزاب في آخر السنة الرابعة وقيل في بداية السنة الخامسة، وسبب الغزوة أنه خرج عشرون رجلًا من بني قريظة ومعهم آخرون من بني النضير إلى مكة، وأخذوا يحرضون أهل مكة على قتال النبي ﷺ ويقولون: نحن معكم ننصركم من الداخل ومن الخارج. وذهبوا إلى غطفان وقالوا: انصروا قريشاً على محمد. وذهبوا إلى قبائل العرب يحرضونهم على قتال النبي ﷺ. فخرجت قريش وكنانة وخرج غطفان واليهود وتجمعوا حول مدينة الرسول ﷺ بعشرة آلاف واتفقوا على قتال رسول اللَّه ﷺ، ولما علِم النبي ﷺ أن قريشاً مع غطفان وكنانة واليهود تحالفوا عليه، استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يحفر خندقاً وقال: هكذا كان يفعل الفرس إذا تضايقوا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة من جهة الشمال لأن الجهات الأخرى كلها محصورة بالجبال فلا يستطيع أحد أن يأتي منها فصاروا يحفرون بجد ونشاط والرسول ﷺ يشاركهم، قال سهل بن سعد[١] رضي الله عنه : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على ظهورنا فقال الرسول ﷺ : «اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار»، وفي رواية: «فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وعن أنس رضي الله عنه[٢] قال: خرج رسول اللَّه ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال صلوات اللَّه وسلامه عليه:

(١) صحيح البخاري (٣٧٩٧).
(٢) صحيح البخاري (٢٨٣٤).

اللَّهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا له:

نحن الذين بايعوا محمدا　　على الجهاد ما بقينا أبدا

وُدّ متبادل بين النبي ﷺ وأصحابه، وعن البراء[١] قال: رأيته صلوات اللَّه وسلامه عليه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه[٢] فسمعته يرتجز بكلمات عبداللَّه بن رواحة وهي:

اللَّهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا　　ولاتَصَدَقنا وما صَلَّينا

فأَنْزِلن سكينةً علينا　　وثَبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا

إنَّ الأُلى قَدْ بَغَوا علينا　　وإنْ أرادوا فِتْنَةً أَبينا

ويعيدها:

إن الأُلى قد بغوا علينا　　وإن أرادوا فتنة أبينا

قال أبو طلحة رضي الله عنه [٣]: شكونا إلى رسول اللَّه ﷺ من الجوع، ومن شدة الشكوى رفعنا القمص عن بطوننا نري النبي ﷺ أننا نربط الحجر على بطوننا من شدة الجوع، فرفع النبي ﷺ عن بطنه وإذا هو قد ربط حجرين .

وهكذا يطمئن الناس إذا كان قائدهم مثل النبي ﷺ يشعر بشعورهم، يجوع كما يجوعون، ويعطش كما يعطشون، ويعمل كما يعملون، ويهتم كما يهتمون، لا يكون في برج عاجي بعيد عن الناس، وإنما يشاركهم ويخالطهم، فإذا رأوا ذلك علموا أنهم ليسوا فقط الذين يعملون فهذا قائدهم معهم يشاركهم بل هو أكثر منهم صلوات اللَّه وسلامه عليه).

---

(١) رواه البخاري (٤١٠٦).
(٢) من كثرة الغبار ما أرى بطن النبي ﷺ .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٧١).

آية بَيِّنة

قال جابر(١): كنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة(٢) ما استطعنا تكسيرها فجئنا إلى الرسول ﷺ فقلنا: يا رسول اللَّه هذه كدية عرضت في الخندق ما نستطيع عليها؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: أنا نازل لها. ثم قام وبطنه معصوب بحجر صلوات اللَّه وسلامه عليه، وكنا قد مضت علينا ثلاثة أيام لم نذق طعاماً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضربه فعاد كثيباً أهيَل أو أهيم(٣) وقال البراء(٤): لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول فاشتكينا ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال: بسم اللَّه ثم ضرب ضربة ثم قال: اللَّه أكبر أعطيت مفاتيح الشام واللَّه إني لأنظر إلى قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع من الصخرة وقال: اللَّه أكبر أعطيت فارس واللَّه إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة صلوات اللَّه وسلامه عليه فقال: بسم اللَّه فقطع بقية الحجر وقال: اللَّه أكبر أعطيت مفاتيح اليمن واللَّه إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني .

فاستبشر الصحابة رضي الله عنهم لأنهم يعلمون أن النبي ﷺ صادق فهذه ليست أول مرة يرون فيها آية على صدق رسول اللَّه ﷺ .

---

(١) رواه البخاري (٤١٠١).

(٢) صخرة عظيمة.

(٣) كالرمل.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٣٠٣).

الحصار

لما جاءت قريش بجيشها وحلفاؤها وحاصروا مدينة رسول اللَّه ﷺ رآهم المؤمنون فقالوا كما ذكر اللَّه تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] أما المنافقون داخل المدينة فقالوا بعكس قول المؤمنين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

فهذان موقفان: موقف المؤمنين ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وموقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ في مثل هذه المواقف الجوع شديد، حصار، عشرة آلاف، قلة، داخل المدينة هنا تظهر المعادن ويظهر المؤمن ويظهرالمنافق، ثم بدأ القتال، فصاروا يترامون ووجد المشركون ثغرة فأرادوا أن يدخلوا منها فخرج إليهم جمع من المسلمين بقيادة على بن أبي طالب وسدوا عليهم الثغرة فطلبوا المبارزة فقام عمرو بن ود أو بن عبد ود على خلاف فى اسمه وكان من الشجعان فقال: من يبارزني؟ وكان قد جاوز المئة من عمره على المشهور فخرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: يا عمرو إنك قد كنت عاهدت اللَّه ألا يدعوك رجل من قريش إلا أحد خلتين إلا أخذتها منه؟

قال: أجل.

قال علي: فإني أدعوك إلى اللَّه ورسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى النزال فقال: يا ابن أخي فواللَّه ما أحب أن أقتلك.

قال علي: لكني واللَّه أحب أن أقتلك. فحمي عمرو ونزل عن فرسه فتنازلا فقتله علي.

وكان قد قال عمرو:

ولقد بَحَحْت من النداء لِجَمعهم هل مِنْ مُبارز
وَوَقَفتُ إذ جَبُنَ المُشَجِّعُ موقفَ القَرنِ المُناجِز
ولِذاكَ إنِّي لَمْ ألُ مُتَسَرِّعاً قِبَلَ الهَزاهِز
إنَّ الشجاعةَ في الفَتَى والجودَ مِنْ خيرِ الغَرائز

فرد عليه علي:

لا تَعْجَلَنَّ فقد أتاكَ مُجيبُ صَوتِكَ غيرَ عاجز
في نيةٍ وبَصيرةٍ والصدقُ مَنْجَى كُلِّ فائز
إني لأرجو أن أُقيمَ عليك نائحةَ الجَنائِز
من ضربةٍ نَجْلاءَ يَبقى ذِكْرُها عِنْد الهزاهِز

ثمّ صارت مراماة بين المسلمين والمشركين لأنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوا الخندق، ورُمي سعد بن معاذ رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه وأصيب أكحله فقال بعد المعركة: اللَّهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه (يظهر بغضه لقريش أكثر من غيرهم لأنهم آذوا الرسول ﷺ طردوه وحاولوا قتله وألبوا الناس عليه، إذاً حب أصحاب الرسول ﷺ وبغضهم مرتبط برسول اللَّه ﷺ وبدين اللَّه تبارك وتعالى وهكذا يجب على المسلم أن يكون حبه وبغضه للَّه ثمّ قال: اللَّهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى

أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها، ثم قال: ولكن لا تُمتني حتى تقر عيني في بني قريظة لأنهم خانوا اللَّه وخانوا رسوله ﷺ. وهم القسم الثالث من اليهود.

خيانة يهود بني قريظة

جاء رجل من بني النضير إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة فقال له: حيي ابن أخطب على الباب فقال كعب: أغلقه دونه لا أريد أن أراه فما زال يكلمه حتى أذن له ففتح له الباب فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال[١] من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقم[٢] إلى جانب أحد، عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه فقال له كعب: جئتني واللَّه بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه[٣]. ثم قال: ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً. فقال حيي: ويحك فرصتنا. ومازال معه حتى قال له: نعم آتي محمداً من الداخل. ورضي عندئذ بالغدر ودخل في الحرب ضد المسلمين.

ولما أحسَّ النبي ﷺ بالغدر أرسل أحد أصحابه حتى يتثبت، لأن التثبت مطلوب فقد يكون الخبر كذباً، فبعث النبي ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبداللَّه بن رواحة وخوّات بن جبير وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌ ما بلغنا عن

(١) مكان اجتماع الماء.
(٢) مكان قريب من المدينة.
(٣) قد جئتني بوجه ليس فيه حياء.

هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه(١)، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، [لأن الناس قد يصيبهم نوع من الإحباط واليأس، حصار من الخارج وغدر من الداخل فتفت هذه الأمور في أعضادهم، وإن كانوا على العهد فصيحوا بها فقولوا هم على العهد يا رسول اللّه حتى يطمئن الناس].

فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون يسبون الرسول ﷺ وأصحابه وقالوا: من رسول اللّه هذا؟ لا عهد بيننا وبين محمد يتكلمون بينهم بصوت مرتفع يُسمعون الناس، فانصرف هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، فلما أقبلوا على رسول اللّه ﷺ قالوا: يا رسول اللّه عضل وقارّة ففهم النبي ﷺ أنهم يريدون غدر الرجيع.

فاهتم النبي ﷺ لهذا الأمر وكان الموقف لاشك حرجاً كما قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١] وأظهر بعض المنافقين كفرهم كما قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] فقال: بعضهم لبعض: إن محمداً يعدنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه حين يذهب إلى الغائط. وبعضهم جاء إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول اللّه إن بيوتنا عورة أي خارج المدينة ونريد أن نذهب إليها. وقال اللّه: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وأما الرسول ﷺ فإنه تقنع بثوبه فترة ثمّ رفع رأسه وقال: اللّه أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح اللّه ونصره ثم قام صلوات اللّه وسلامه عليه يثبت الناس.

---

(١) تكلموا بكلام وبصورة غير مباشرة تبينون لي فيه أنهم قد غدروا.

موقف شجاع

وأراد ﷺ أن يصالح فزارة وغطفان وغيرهما فقال لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وكانا سيدي الأوس والخزرج: ما تقولان نعطي غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا؟ لأن غطفان تمثل أربعة آلاف من عشرة آلاف وقريش أربعة آلاف وبقية القبائل الذين جاؤوا مع قريش يمثلون ألفين فقالا: يا رسول اللَّه إن كان اللَّه أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك واللَّه يا رسول اللَّه لا يطمعون أن يأكلوا منّا ثمرة إلا ببيع أو قرى[1] فكيف وقد أعزنا اللَّه بالإسلام؟! أفحين أن أكرمنا اللَّه بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟! لا واللَّه يا رسول اللَّه لا نعطيهم إلا السيف. وهذه شجاعة نادرة يحاصرون بعشرة آلاف وهم قلة وخيانة وغدر من الداخل وجوع ويستطيعون خلال هذا الاتفاق أن يصرفوا عنهم أربعة آلاف ولكنهم يأبون.

فصوّب الرسول ﷺ رأيهما وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

الحرب خدعة

جاء نعيم بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول اللَّه إني أسلمت وأريد أن أقاتل معك. فقال: هل علم أحد بإسلامك؟ قال: لا . قال: فخذّل عنّا ما استطعت. فقال: نعم. فذهب نعيم بن مسعود لبني قريظة من الداخل فقال

(١) ضيافة.

لهم: يا قوم إنّ قريشاً قوم غدر، وإنهم إذا انتصروا على محمد وأخذوا ما يريدون خرجوا وتركوكم، ثم ينتقم منكم أهل المدينة. قالوا: لا سيقفون معنا وعاهدونا عن طريق حيي بن أخطب. قال: أنا لا أرى إلا أن تأخذوا منهم فدية تضمنون بها حقكم. قالوا: وما هي؟ قال: اطلبوا منهم أن يعطوكم عشرة من أولادهم حتى إذا غدروا قتلتموهم، ولن يغدروا خوفاً على أولادهم قالوا: فكرة صائبة. ثم ذهب إلى قريش وقال لهم: إنكم تعلمون أن اليهود قوم غدر وإنهم سيغدرون بكم. قالوا: كيف؟ قال: سمعتهم يتكلمون يقولون: إننا سنأخذ عشرة من قريش ونعطيهم لمحمد لنثبت له حسن نوايانا وأننا صادقون وأننا معه. فالتقت قريش مع اليهود فقالت اليهود لقريش: أعطونا عشرة من أولادكم حتى نضمن حقنا فقالت قريش في أنفسها: نعم يريدون العشرة ليسلموهم لمحمد. فقالوا: لا لن يكون هذا. قالت اليهود في أنفسها: نعم قريش تريد أن تغدر بنا ولذلك لا تعطينا العشرة، ففتَّ اللَّه تبارك وتعالى ما كان بينهم من عهد ونصر رسوله ﷺ(١).

عند ذلك خذلت قريظة قريشاً وخذلت قريش قريظة، واستمر الحصار ثم أرسل اللَّه تبارك وتعالى جنوداً من عنده عبارة عن ريح عظيمة أرسلها اللَّه تبارك وتعالى عليهم فتركوا أماكنهم ورجعوا إلى بلادهم خائبين .

تأخير صلاة العصر

شغل ﷺ عن صلاة العصر كما شُغل أخوه سليمان صلوات اللَّه وسلامه عليه بالخيل حتى غابت الشمس فالنبي ﷺ شُغل بجيش مكة ومن جاء معهم

(١) إباحة الكذب وحديث أم كلثوم.

حتى غابت الشمس، فقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ اللَّه قبورهم وبيوتهم نارا»[١] فدعا عليهم صلوات اللَّه وسلامه عليه.

حذيفة وليلة الأحزاب

قال حذيفة ﵁ رأيتنا مع الرسول ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر[٢] فقال رسول اللَّه ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم» جعله اللَّه معي يوم القيامة؟ فسكتنا ولم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله اللَّه معي يوم القيامة؟» فسكتنا فقال: «قم يا حذيفة فائتني بخبر القوم» قال: فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «اذهب وأتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليَّ»[٣] فلما وليت من عنده جعلت، كأنما أمشي في حمّام[٤] ما أشعر بالبرد [وذلك تثبيت من اللَّه عز وجل] حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يَصْلي ظهره بالنار[٥] فوضعت سهماً في كبد القوس وأردت أن أرميه، فتذكرت قول الرسول ﷺ لا تذعرهم عليّ: ولو رميته لأصبته [سبحان اللَّه فاللَّه أراد لأبي سفيان أن يَسْلَم ويُسْلم]: فرجعت وأنا أمشي أيضاً في مثل الحمّام فلما أتيت أخبرته بخبرهم فلما فرغت قررت[٦] فألبسني رسول اللَّه

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).
(٢) برد.
(٣) لا تهيجهم فقط انظر وارجع.
(٤) الحمّامات العامة التي هي للتنظيف وغيره كانت تتخذ في الشام ويغتسل فيها الناس وليس الخلاء. أما الخلاء فتسميه العرب بالحُش.
(٥) يعني يتدفأ.
(٦) بردت.

ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يُصَلِّي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلمّا أصبحت قال: «قم يا نومان»[١].

النبي ﷺ يدعو على الأحزاب

وهنا دعا رسول اللَّه ﷺ فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[٢].

فبعث اللّه عليهم جنداً من جنده وهي ريح باردة أطفأت نارهم وقلعت خيامهم وقلبت قدورهم برد وجوع وخوف! واللَّه على كل شيء قدير وتفرق شملهم، وأعلن أبو سفيان الهزيمة على استحياء وأمر قريشاً بالرحيل.

ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ: «لا إله إلا اللَّه وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده»[٣].

* * *

(١) كثير النوم.
(٢) أخرجه البخاري (٤١١٥).
(٣) أخرجه البخاري (٤١١٤).

إجلاء بني قريظة

جاء جبريل عليه السلام فقال: أَوَضعتم السلاح؟ قال: نعم.

قال جبريل: أما نحن فلم نضع أسلحتنا بعد اِنْهَد إلى القوم [أي اخرج إلى بني قريظة] يأمرك اللَّه بهذا.

فخرج النبي ﷺ وأمر الناس وقال: لا يصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة فخرج المسلمون استجابة لأمر النبي ﷺ إلى بني قريظة، وعجّلهم صلوات اللَّه وسلامه عليه وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة، وجاء حتى نزل عند حصون بني قريظة وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد فقال: إما أن تسلموا وتدخلوا مع محمد ﷺ في دينه، وإما أن تقتلوا ذراريكم وتخرجوا وتقاتلوا حتى تقتلوا عن آخركم، وإما أن تهجموا على رسول اللَّه ﷺ وأصحابه يوم السبت حين يأمن المسلمون شركم. فرفضوها كلها.

فقال لهم: واللَّه إنكم حُمُر(١) ولا شيء تقبلونه فخرج عند ذلك أحدهم وقال: يا رسول اللَّه ننزل على حكم سعد بن معاذ. وذلك أن عبد اللَّه بن أبي بن سلول كما مر سابقاً شفع في بني قينقاع فتركهم النبي ﷺ له، فهؤلاء أرادوا حكم سعد بن معاذ لأنه كان حليفاً لهم في الجاهلية، فقالوا: لعله يدافع عنا كما دافع عبد اللَّه بن أبي بن سلول عن بني قينقاع وما علموا الفرق بين عبد اللَّه بن أبي بن سلول رأس المنافقين وبين سعد بن معاذ من رؤوس المتقين رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ

(١) جمع حمار.

كما نزل إخواننا على حكم عبد اللَّه بن أبي بن سلول.

فأمر النبي ﷺ بسعد بن معاذ أن يؤتى به وكان قد أصيب في أكحله رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه فلما جاء قال النبي ﷺ: قوموا إلى سيدكم أي سعد بن معاذ رضي الله عنه وأنزلوه من على الحمار الذي جاء به فقال النبي ﷺ: احكم في مواليك، فصاروا يصيحون به: أحسن أبا عمرو في مواليك كما أحسن غيرك فقال سعد بن معاذ: آن لسعد أن لا تأخذه في اللَّه لومة لائم فقال: إن حكمي فيهم أن يقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم اللَّه من فوق سبع سماوات»[١] فأمر النبي ﷺ بقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٨).

غزوة بني المصطلق أو غزوة المُريسيع سنة ٦هـ وقيل آخر سنه ٤هـ

وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ بلغه أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول اللَّه ﷺ فبعث النبي ﷺ بريدة بن الحصيب للتحقيق فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم قاصدون لقتاله، فلما تأكد النبي ﷺ من صحة الخبر ندب الصحابة وأمرهم بالخروج، وخرج معه جماعة من المنافقين، وذلك أن المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فلما سمع الحارث بن أبي ضرار بخروج رسول اللَّه ﷺ خاف خوفاً شديداً وتفرّق عنه من كان معه من العرب، فلما وصل النبي ﷺ إلى المريسيع وهو ماء لخزاعة وراية المهاجرين كانت مع أبي بكر الصديق وراية الأنصار كانت مع سعد بن عبادة.

قال ابن القيّم رحمه اللَّه تعالى: ولم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم النبي ﷺ على الماء بعد أن فرّ أكثر مقاتليهم فسبى ذراريهم وأخذ أموالهم كما جاء في صحيح البخاري: أغار رسول اللَّه ﷺ على بني المصطلق وهم غارّون[١] وكان من جملة السبي في هذه الغزوة جويرية بنت الحارث سيد قومه وكانت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها والمكاتبة هي أن يقول لها: لك حريتك على أن تعطيني شيئاً من المال مثل مئة دينار أو مئتين حسب ما يتفق

(١) (٢٥٤١).

وإياها عليه فلما سمع النبي ﷺ بذلك أدى عنها ثمّ تزوجها صلوات اللَّه وسلامه عليه وهي حرة ولما سمع المسلمون بأن النبي ﷺ قد تزوج بجويرية اعتقوا من كان معهم من ذراري وسبي بني خزاعة وقالوا: أصهار رسول اللَّه ﷺ.

ووقعت حادثتان من رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول في تلك الغزوة.

الحادثة الأولى: كان مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجير يقال له جهجاه الغفاري فازدحم جهجاه مع سنان بن وبر الجُهني على الماء فاقتتلا فصرخ الجُهني قائلًا: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه قائلًا: يا معشر المهاجرين. فقال رسول اللَّه ﷺ: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة. فلما سمع عبد اللَّه بن أبي بن سلول بذلك قال أَوَقَد فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا واللَّه ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك. أما واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما واللَّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم.

وسمع زيد بن أرقم رضي الله عنه هذا الكلام وكان شاباً صغيراً فذهب إلى عَمه فأخبره فأخبر عمه رسول اللَّه ﷺ وكان عنده عمر رضي الله عنه فقال عمر: يا رسول اللَّه مُرْ عبَّاد بن بشر فليقتله. فقال الرسول ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس إنّ محمداً يقتل أصحابه؟» ثم سكت النبي ﷺ، فلما ارتحل الناس جاء أسيد بن حضير رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه إلى النبي ﷺ فقال له

الرسول ﷺ: أما بلغك ما قال صاحبكم؟.

فقال: وما قال؟ فقال الرسول ﷺ: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل».

فقال أسيد بن حضير: فأنت يا رسول اللَّه تخرجه منها إن شئت، هو واللَّه الذليل وأنت واللَّه العزيز.

ثمّ قال: يا رسول اللَّه ارفق به واللَّه لقد جاءنا اللَّه بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكه.

ثمّ مشى النبي ﷺ بالناس حتى أصبح وصدر يومه ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس ووقعوا نياماً وذلك أن النبي ﷺ لا يريدهم أن يتكلموا بهذا الأمر فأتعبهم في المشي حتى إذا وصلوا ناموا أما عبد اللَّه بن أُبي فإنه علم أن زيداً بلّغ النبي ﷺ الخبر فذهب إلى النبي وحلف وقال: واللَّه يا رسول اللَّه ما قلت وإنما كذب عليَّ زيد. وقال من حضر من الأنصار: يا رسول اللَّه عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل فصدقه. قال زيد بن أرقم: فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله قط لأنه يُتهم بالكذب أو بعدم الفهم يقول: فجلست في بيتي من الحزن يقول فأنزل اللَّه جلّ وعلا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٨].

هنا بين اللَّه تبارك وتعالى أن زيداً لم يكذب رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه وإنما صدق بما قال وأن عبد اللَّه بن أبي بن سلول كاذب في مدعاه، فأرسل رسول اللَّه ﷺ إلى زيد فقرأها عليه ثم قال له: إن اللَّه قد صدقك.

موقف إيماني

كان عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن أبي بن سلول رجلًا صالحاً من أصحاب النبي ﷺ فبلغه أن والده قال هذا الكلام عن رسول اللَّه وأصحابه فوقف في وجه والده عند دخوله المدينة وقال له: أأنت الذي تقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل تريد رسول اللَّه ﷺ؟ فواللَّه لرسول اللَّه هو الأعز وأنت الأذل.

فحميَّة العقيدة طغت على حميَّة الولادة ثم قال: واللَّه لا تدخل إلى المدينة إلا وأنا قاتلك أو يأذن لك رسول اللَّه ﷺ.

عند ذلك أمره النبي ﷺ أن يتركه ودخل إلى المدينة وفي رواية أنه جاء إلى رسول اللَّه فقال: يا رسول اللَّه إنه قد بلغني أن والدي قال: كيت كيت فإن أردت قتله فدعني أنا أقتله فإني أخشى أن أرى قاتل والدي فلا أصبر.

الحادثة الثانية (الإفك)

الإفك عظيمُ الكذب والافتراء، قال الإمام الزهري رحمه اللَّه تعالى: حدثني عروة أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول اللَّه ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول اللَّه ﷺ

معه قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول اللَّه ﷺ[١]. فخرجت مع رسول اللَّه ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه[٢] فسرنا حتى إذا فرغ الرسول ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل[٣] فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني[٤] أقبلت على راحلتي، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع [والجزع هو الخرز فيه شيء من الطيب كانت تلبسه النساء في ذلك الوقت]، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحّلون لي راحلتي فاحتملوا هودجي فرحلوه على البعير الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنّ اللحم وإنما يأكلن العُلَقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن، [كان لها من العمر ثلاث عشرة سنة] فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب.

---

(١) هذا فيه مشروعية القرعة بين الزوجات إذا كان للرجل أكثر من زوجة وأراد أن يسافر فلا بأس أن يعمل قرعة بين زوجاته ومن خرجت لها القرعة خرجت معه.

(٢) الهودج هو مثل الغرفة الصغيرة التي تجلس فيها المرأة وتوضع فوق الجمل حتى لا يراها أحد وكان حجاب زوجات النبي ﷺ هو أن يستر كل ما فيها من مفرق الرأس إلى أخمص القدم كله يستر وهذا بلا خلاف بين أهل العلم أن زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم كن يغطين وجوههنّ وأما الخلاف الذي وقع بين أهل العلم في تغطية وجه غير زوجات النبي ﷺ وإن كان لاشك الأولى بالنساء المؤمنات أن يغطين وجوههن.

(٣) لأنهم في رحلتهم هذه ولعددهم الكبير وللمسافات الطويلة فهم يسيرون ثم يجلسون ويسيرون ثم يجلسون وهكذا يكون مسيرهم في الليل لأنه أبرد وأروح للإبل فإذا طلع الفجر توقفوا صلوا الفجر وجلسوا وارتاحوا حتى يأتي الليل يسيرون وهكذا .

(٤) تعني لقضاء الحاجة.

[فلتحاول كل امرأة أن تضع نفسها أو ابنتها مكان عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فتاة صغيرة في ليل مظلم وحدها، في مكان مقفر والناس كلهم قد ذهبوا).

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني ويرجعون إليَّ، [وهذا من فطنتها وذكائها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ولو كان غيرها من النساء لصاحت وصارت تركض يميناً ويساراً شرقاً وغرباً تبحث عن أهلها ولكن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لكمال عقلها جلست في مكانها لأنها علمت أنها لو خرجت خلفهم ستضيع].

تقول: فبينا أنا جالسة في منزل غلبتني عيني فنمت [وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأول: شجاعة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الثاني: رعاية اللَّه لها وذلك أن اللَّه تبارك وتعالى ألقى عليها النوم حتى لا تفكر في القوم وفيما سيأتي إليها من حيوانات أو أناس أو غير ذلك].

قالت: وكان صفوان بن المعطّل السُلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج(١) فأصبح عند منزلي [والغريب في هذا الرجل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان هو وقبيلته كلهم معروفين بكثرة النوم حتى إنه جاء في حديث أن زوجته جاءت تشتكيه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتقول: يا رسول اللَّه إن صفوان لا يصلي الفجر فناداه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسأله؟ قال: يا رسول اللَّه إننا قوم قد عُرفنا بالنوم ننام حتى تطلع الشمس](٢).

فالقصد أن صفوان بن المعطّل كان متأخراً عن الجيش ولعله بسبب النوم وأنه سار على طريقهم فوجد عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نائمة في مكانها، تقول عائشة:

---

(١) مشى في الليل.
(٢) رواه أحمد (٣/ ٨٥).

فرأى سواد إنسان نائم من بعيد فأتاني فعرفني حين رآني [لأنها لما كانت نائمة كان وجهها مكشوفاً تقول: وكان يراني قبل الحجاب]، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني[١] فخمرت وجهي بجلبابي واللَّه ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطأ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فوصلنا إليهم فهلك من هلك [تقصد أن الناس تكلموا في عرضها لما رأوها قادمة مع صفوان لوحدها فتكلم فيها من تكلم من المنافقين، حتى إنه نقل فيما نقل من كلامهم كلام عبد اللَّه بن أبي بن سلول أنه قال: واللَّه ما جاءا إلا بعد أن فجر بها وفجرت به. والعياذ باللَّه فلعنة اللَّه عليه] وكان الذي تولى الإفك عبد اللَّه بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول اللَّه ﷺ اللطف الذي كنت أراه منه حين أشتكي! إنما يدخل علي رسول اللَّه ﷺ فيسلم ويقول كيف تيكم؟[٢] ثمّ ينصرف فذاك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، [وذاك أن النبي ﷺ كان إذا مرضت عائشة يلاطفها ويسليها كما في الحديث المشهور لما قالت عائشة رضي الله عنها: وارأساه فقال النبي ﷺ: «بل أنا وارأساه وما ضرك يا عائشة لو مِتِّ لغسلتك وكفنتك وصليت عليك وأنزلتك في قبرك»[٣].

وهي أحب الناس إلى رسول اللَّه ﷺ كما سأله عمرو بن العاص: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة». قال: ومن الرجال؟ قال: «أبوها»)[٤].

---

(١) قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون.
(٢) كيف حالك؟
(٣) رواه ابن ماجه (١٤٦٥).
(٤) رواه البخاري (٣٦٦٢).

الصدمة

قالت عائشة[١]: حتى خَرجتُ بعدما تَقَهْتُ[٢] معي أم مِسطح (بكسر الميم) قبل المناصع[٣] وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلًا وذلك قبل أن تُتخذ الكُنُف[٤] قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول بالتبرز قِبَل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح [وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق] فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فَعَثَرت أم مسطح في مِرطها[٥] فقالت: تَعِسَ مسطح.

فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلًا شهد بدراً؟! قالت: أي هنتاه[٦] أولم تسمعي ما قال ؟ قالت عائشة: وما قال؟ قالت عائشة: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي.

[لك أختي أن تتصوري نفسك وقد اتهمت في عرضك كيف تكون حياتك؟ وكيف تنعمين؟ وأعز ما عند المرأة عرضها، قد تتهم بكذب أو بسرقة أو بغيبة أو بربا أو بتبرج، لكن أن يصل الأمر إلى العرض فهذا أخطر شيء تصاب به المرأة]، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول اللَّه ﷺ سلّم ثم قال: كيف تيكم؟ أي [لم يتغير من قبل الرسول ﷺ شيء ولكن

(١) رواه البخاري: (٢٦٦١).
(٢) تعافيت.
(٣) مكاناً لقضاء الحاجة قرب المدينة.
(٤) وهي الحمامات.
(٥) في ثوبها.
(٦) وتقال للبنت المغفلة وهنا وصفت عائشة بالغفلة.

الذي تغير أن عائشة علمت السبب، الآن عرفت لماذا تغير حال الرسول ﷺ معها] فقلت: أتأذن لي أن آتي أَبَويَّ؟ قال ﷺ: نعم.

قالت عائشة: وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قبلهما، فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاه[1] ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هَوِّني عليك، فواللَّه لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان اللَّه! أَوَ قد تحدث الناس بهذا؟! فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[2] ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

النبي ﷺ يستشير

دعا رسول اللَّه ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي، يستأمرهما في فراق أهله وهذه الفترة يذكر أنها استمرت أكثر من شهر والناس يتكلمون في عائشة ويخوضون فيها والوحي منقطع، والرسول ﷺ لا يدري حقيقة الأمر وهذا يبين أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، أما علي رضي الله عنه فهو زوج ابنته وابن عمه وأقرب الناس إليه من حيث النسب وأما أسامة فهو قد تربى في بيت النبي ﷺ وهو حِبُّ رسول اللَّه ﷺ وابن حبه فلذلك استشارهما النبي ﷺ لقربهما من بيته ولمعرفتهما بعائشة رضي الله عنها، أما أسامة فأشار على رسول اللَّه ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول اللَّه أهلك ولا نعلم إلا خيرا. وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول اللَّه لم يضيق اللَّه عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل

(١) وأمها أم رومان بنت عامر الكنانية.
(٢) لا ينقطع.

الجارية تصدقك. أسامة رضي الله عنه نظر في صالح عائشة ولذلك برأها وأما علي فنظر إلى صالح النبي ﷺ والهَمَّ الذي ركبه من هذه القضية فدعا رسول اللَّه ﷺ بريرة خادمة عائشة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله [وهي الحيوانات التي تعيش في البيت كالغنم والدجاج].

تقديم أخف المفسدتين

فقام رسول اللَّه ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد اللَّه بن أبي بن سلول، فقال رسول اللَّه ﷺ على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فواللَّه ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا [يريد صفوان بن المعطل] ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري وهو سيد الأوس فقال: يا رسول اللَّه أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

أما سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج فقد احتملته الحمية فقال: كذبت لعمر اللَّه لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وهو من الأوس فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر اللَّه لنقتلنّه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. [أي هذا التصرف منك تصرف المنافقين وهذا يبين لنا أنه يجوز إطلاق كلمة المنافق على من تصرف تصرفات المنافقين أي

في هذه الصفة وهذا يسمى النفاق العملي وليس النفاق الاعتقادي]، تقول عائشة: فتساور الحيان [وفي رواية أخرى فتثاور الحيان]، الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول اللَّه ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول اللَّه يُخفّضهم حتى سكتوا وسكت، وترك أمر عبد اللَّه بن أبي بن سلول.

قالت عائشة: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي وقد كنت بكيت ليلتين ويوماً يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فجلست تبكي معي، [وهذا مما يهوّن على صاحب المصيبة ولذلك قالت الخنساء لما مات أخوها صخر:

ولولا كثرة الباكينَ حَوْلي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يَبْكِين مِثْلَ أخي ولكن أُعَزِّي النفسَ عنه بالتسلي

شدة الابتلاء

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول اللَّه ﷺ فسلّم ثمّ جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، فتشهد رسول اللَّه ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد، يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك اللَّه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللَّه وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه». فلما قضى رسول اللَّه ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول اللَّه ﷺ. قال: واللَّه ما أدري ما أقول لرسول اللَّه ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول اللَّه

ﷺ. قالت: واللَّه ما أدري ما أقول لرسول اللَّه ﷺ، [موقف عجيب وابتلاء من اللَّه تبارك وتعالى لعائشة رضي الله عنها] فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني واللَّه لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة واللَّه يعلم أني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر واللَّه يعلم أني منه بريئة لتصدقنّي، واللَّه ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] ثم تحولت(١).

اشتدي يا أزمة تنفرجي

فأضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن اللَّه مبرئي، ولكن واللَّه ما كنت أظن أن اللَّه منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم اللَّه فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّه ﷺ في النوم رؤيا يبرئني اللَّه، [لأن رؤيا الأنبياء حق]، فواللَّه ما رام رسول اللَّه ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء(٢) حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجُمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] قالت فلما سُرِّي عن رسول اللَّه ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة أما اللَّه عز وجل فقد برأك. فقالت أمي: قومي إليه(٣) فقلت: واللَّه لا أقوم إليه ولا أحمد إلا اللَّه عز وجل فأنزل اللَّه

(١) أعطتهم ظهرها.
(٢) العرق الكثير.
(٣) يعني إلى رسول اللَّه ﷺ.

تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ١١-٢١] فلما أنزل اللَّه قرآناً في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: واللَّه لا أنفق على مسطح شيئاً أبدا فأنزل اللَّه جل وعلا: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر: بلى واللَّه إني أحب أن يغفر اللَّه لي فرجع إلى النفقة [وهذا يدل على أنهم كانوا وقَّافين مع كتاب اللَّه].

بل هو خير لكم

قول اللَّه تبارك وتعالى في براءة عائشة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تُتهم عائشة في عرضها والرسول ﷺ يُتهم في عرضه، ويحزن صلوات اللَّه وسلامه عليه، ويبقون شهراً كاملًا، ويتكلم الناس فيها، ويفرح المنافقون بهذا، فأين الخير هنا؟ ذكر أهل العلم أموراً كثيرة ظهرت فيها الخيرية في هذه القضية منها:

١- الابتلاء، حيث ابتلى اللَّهُ رسولَه ﷺ كما ابتلى عائشة وابتلى صفوان بن المعطل فخرجوا من البلاء كالذهب الخالص، والابتلاء ثمراته طيبة لأن فيه رفع درجات.

٢- تنقية الصفوف، فلو لم تحدث هذه الحادثة لما تميز المؤمنون من المنافقين، فمثل هذه الحوادث يظهر فيها المنافقون رؤوسهم ويتكلمون ويظهرون تبجحهم وهزأهم وسخريتهم بالمؤمنين.

٣- فضل عائشة رضي اللَّه تبارك وتعالى عنها، ومحبة اللَّه لها حيث أنزل فيها قرآناً يُتلى.

٤- في هذه الحادثة بيان أن اللَّه تبارك وتعالى يدافع عن عباده المؤمنين.

ولذلك قال اللَّه تبارك وتعالى في الحديث القدسي «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»(١)، فظهر من هذه القصة أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أولياء اللَّه تبارك وتعالى فلذلك دافع اللَّه عنها سبحانه وتعالى، وهذا يعطي الولي التقي اطمئناناً أن اللَّه سبحانه وتعالى سيدافع عنه ولذلك قالت عائشة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ فلجأت إلى اللَّه فما خيبها ربها سبحانه وتعالى.

٥- أن اللَّه تبارك وتعالى أظهر لنا حُكماً شرعياً في قوله جل وعلا ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] وما كان سيظهر هذا الحكم لولا أن وقعت هذه الحادثة فإذا حدثت حوادث أخرى نعرف كيف نتعامل معها.

٦- وضعت قواعد عامة لمثل هذه القضايا مثل أن الأصل في المسلم العدالة والأصل فيه أنه برئ حتى تثبت التهمة، فهذه القواعد العامة ما كنّا لنعرفها لولا أن وقعت هذه الحادثة.

٧- أن اللَّه تبارك وتعالى فضح المنافقين وعراهم أمام المؤمنين.

٨- بيان فضل صفوان بن المعطّل رضي الله عنه وأن اللَّه تبارك وتعالى دافع عنه كما دافع عن عائشة رضي الله عنها.

٩- بيان حكم القذف.

وهنا مسألة ذكرها ابن القيّم رحمه اللَّه تبارك وتعالى وهي عبارة عن فوائد طيبة جداً ذكرها في الزاد نذكرها لعل اللَّه تبارك وتعالى ينفعنا بها:

أولًا: فإن قيل فما بال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف باللَّه وبمنزلته عنده وبما يليق به، وهلّا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم كما قاله فضلاء الصحابة؟ والجواب أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعلت هذه القصة سبباً لها وامتحاناً وابتلاءً لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ولجميع الأمّة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين ويزيد اللَّه الذين اهتدوا هدى وإيماناً ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبس (بضم الحاء) الوحي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شهراً في شأنها لا يوحى إليه في ذلك شيء، لتتم حكمته التي قدّرها وقضاها،

وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق وحسن الظن باللَّه ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصدّيقة وأبويها لما قالت: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والافتقار إلى اللَّه والذل إليه وحسن الظن به والرجاء له ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقام حقه لما قال لها أبواها: قومي إليه. وقد أنزل اللَّه عليه براءتها فقالت: واللَّه لا أقوم إليه ولا أحمد إلا اللَّه هو الذي أنزل براءتي. وأيضاً فكان من حكمة حبس الوحي شهراً أن القضية محّصت (بفتح الميم) وتمحّضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحي اللَّه إلى رسوله فيها، وتطلّعت إلى ذلك غاية التطلّع فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول اللَّه ﷺ وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه والمؤمنون، فورد الوحي عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسُرّوا به أتم السرور وحصل لهم غاية الهناء بهذا الوحي، فلو أطلع اللَّه رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها.

ثانياً: إن اللَّه سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه جل وعلا الدفاع والمنافحة عنه والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم، وبأمر لا يكون له فيه عمل، أي ليس الرسول ﷺ هو الذي يدافع عن زوجه بل اللَّه يدافع عن رسوله وعن أهل بيته، ولا يُنسب إلى الرسول ﷺ بل يكون هو وحده أي اللَّه جل وعلا المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

ثالثاً: إن رسول اللَّه ﷺ هو المقصود بالأذى والتي رُميت زوجته فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، فهذا لا يكفي أو ظنّه الظن المقارب للعلم ببراءتها ولا يظن بها سوءاً قط وحاشاه وحاشاها ولذلك لما استعذر من أهل الإفك قال: من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي واللَّه ما علمت في أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فكان عنده صلوات اللَّه وسلامه عليه من القرائن التي تشهد ببراءة الصدّيقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه وحسن ظنه بربه وثقته به وفّى مقام الصبر والثبات وحسن الظن باللَّه حقه، حتى جاءه الوحي بما أقر عينه وسرّ قلبه وعظّم قدره وظهر لأمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه.

رابعاً: من تأمل قول الصدّيقة لمّا قال لها أبواها: قومي إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت: واللَّه لا أقوم إليه ولا أحمد إلا اللَّه.

من نظر إلى قولها ذلك وتأمله عَلِمَ معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها لربها وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له، وثقتها بمحبة رسول اللَّه لها قالت ما قالت إدلالًا لحبيب على حبيبه ولاسيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال فوضعته موضعه، وللَّه ما كان أحبّها إليه حين قالت: لا أحمد إلا اللَّه فإنه هو الذي أنزل براءتي. وللَّه ذلك الثبات والرزانة منها وهو أحب شيء إليها [أي الرسولَ ﷺ] ولا صبر لها عنه وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً ثم صادفت منه الرضا والإقبال، فلم تبادر إلى القيام إليه والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له وهذا غاية الثبات والقوة. انتهى.

❊ ❊ ❊

موقف إيماني

بقي أن نعرف أن بعض المؤمنين كأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قالت له امرأته: يا أبا أيوب هل سمعت ما قال الناس في عائشة؟ فالتفت إليها وقال: يا أم أيوب أوتفعلينه أنت؟ قالت: لا ما أفعله.

قال: واللَّه لعائشة خير منك.

وفيهما نزل قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

فهي أم المؤمنين وزوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال اللَّه تبارك وتعالى في كتابه ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] اختارها اللَّه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أتفعله لا واللَّه ما تفعله أبداً.

حكم من يتهم عائشة بالزنى

وبعد هذا كله من يتكلم في عائشة الآن بعد أن برأها اللَّه تبارك وتعالى واتهمها بالزنى فلاشك أنه كافر خارج من ملة الإسلام لأنه مكذب للَّه جل وعلا، بل على الصحيح من أقوال أهل العلم أن كل من اتهم أي زوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالزنى فإنه كافر لأنه مكذب لقول اللَّه تبارك وتعالى ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

* * *

عمرة الحديبية سنة ٦هـ

أُري الرسول ﷺ في المنام وهو في المدينة أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأنهم طافوا واعتمروا وحلق بعضهم وقصّر آخرون، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك ففرحوا فرحاً شديدا وذلك لشوقهم إلى بيت اللَّه تبارك وتعالى، فأمر الصحابة بالتجهّز فتجهزوا ليخرجوا مع النبي ﷺ، واستنفر صلوات اللَّه وسلامه عليه العرب ومن حولهم من البوادي ليخرجوا معه، فأبطأ كثير من الأعراب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وخرج منها كما هو مشهور في يوم الاثنين في أول ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة، وكان قد أخذ من نسائه في تلك السفرة أم سلمة.

ولم يأخذ معه سلاحاً صلوات اللَّه وسلامه عليه إلا سلاح المسافر إذ لم يكن خروجه صلوات اللَّه وسلامه عليه لقتال وإنما خرج للعمرة، ووصل صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى الحديبية، والحديبية تقع غرب مكة على بعد ٢٢ كيلومتراً على الطريق إلى جدة وقد تغير اسمها اليوم إلى منطقة الشميسي واختلف أهل العلم هل هي من الحِل أم من الحرم وذهب بعضهم أنها جمعت بين الحل والحرم وهذا قول الإمام الشافعي رحمه اللَّه تعالى.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه(١): عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قال: خرج رسول اللَّه ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إن خالد بن

---

(١) (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

الوليد بالغميم(١) في خيل لقريش بطليعة(٢) فخذوا ذات اليمين يقول الراوي: فواللَّه ما شعر بهم خالد، حتى إذا هم بقترة الجيش(٣) فتفاجأ أهل مكة بالغبار يرونه من بعيد فانطلق من انطلق يركض نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حلْ، حلْ(٤) فَأَلَحَّت فقالوا: خلأت القصواء [أي تمنعت عن المشي والقصواء هي ناقة النبي ﷺ وكان من عادته أن يسمي دوابه وهذه سنة غابت عن الكثيرين في هذا الزمان وهي أن يسمي الإنسان دابته وبعض حاجياته]، فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل [وحابس الفيل: هو لما أراد أبرهة أن يهدم الكعبة، وكان قد جاء معه بالفيلة وكان يترأس الفيلة فيل عظيم يقال له محمود، فكانوا إذا أرادوه إلى طريق مكة امتنع عليهم وبرك، فإذا أرادوه إلى غير ذلك الطريق قام مسرعاً، فقال النبي ﷺ: بل حبس القصواء حابس الفيل وهي رحمة اللَّه تبارك وتعالى بهذا البيت وأهل هذا المكان] والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم(٥) حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء(٦) يتربضه الناس تربضاً(٧) فلم يلبثه

---

(١) والغميم مكان بين مكة والمدينة.

(٢) وذلك أن قريشاً سمعت أن النبي ﷺ قد خرج من المدينة يريد مكة فخرج له خالد بن الوليد بطليعة ليرده.

(٣) بغبار الجيش لأن الخيل والإبل والهدي الذي ساقه معه النبي ﷺ لها غبار.

(٤) وهذه كلمة تقال للناقة إذا أرادوها أن تمشي.

(٥) عن الدخول إلى مكة.

(٦) والثمد هي حفرة يكون فيها الماء.

(٧) يأتون ويأخذون منه بعض الماء ليواصلوا طريقهم.

الناس حتى نزحوه[١] وشُكي إلى النبي ﷺ العطش فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه (أي أن يجعلوا السهم في الثمر) فواللَّه مازال يجيش لهم بالرِي حتى صدروا عنه [وهذه آية وعلامة على صدق النبي ﷺ وعلى أنه مبعوث من رب العزة تبارك وتعالى] فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول اللَّه ﷺ من أهل تهامة[٢] فقال بديل بن ورقاء: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[٣] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت [وبنو كعب بن لؤي هم أهل مكة] فقال رسول اللَّه ﷺ: إنّا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة[٤]، ويُخَلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإن لا فقد جمّوا[٥]، دماءهم، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[٦]، ولينفذنّ اللَّه أمره[٧] قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى إذا أتى قريشاً قال: إنّا جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولًا فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا [وهذا فيه تحضيض ليسمعوا بإنصات] فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء.

---

(١) وذلك لكثرة من مع النبي ﷺ وذاك في حديث جابر أنهم ألف وخمسمئة.
(٢) وعيبة النصح هم الناصحون للنبي ﷺ والذين يبث لهم أسراره ويأتمنهم.
(٣) نوع من الإبل.
(٤) صلحاً بمدة.
(٥) منعوا.
(٦) حتى أموت في سبيل هذا الأمر.
(٧) لينصرنّ اللَّه دينه بمحمد أو بغير محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه.

وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول.

قال: سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قومي ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى.

قال: أَوَلَسْت بالولد؟ قالوا: بلى.

قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلّحوا (أي امتنعوا) عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى.

قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آته.

قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ.

فقال النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك(١)، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى(٢)، فإني واللَّه لا أرى وجوهاً وإني لأرى أشواباً(٣)، من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ وأبو بكر هنا سبّ عروة بن مسعود (أي اذهب إلى إلهك الذي تدعوه ومص فرجه).

فقال عروة بن مسعود للنبي ﷺ: من ذا؟ فقال النبي ﷺ: هذا أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها

---

(١) قتلتهم.
(٢) يعني استأصلوك هم.
(٣) أشباحاً.

لأجبتك، [وذلك أن عروة بن مسعود كانت عليه دية قبل بعثة النبي ﷺ فساعده أبو بكر في ديته تلك]، وفي بعض الروايات أنه قال له: ولكن هذه بتلك.

قال الراوي: وجعل عروة بن مسعود يكلم النبي ﷺ، فكلّما تكلم كلمة أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ معه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب المغيرة يد عروة بنعل السيف(١) وقال له: أخّر يدك عن رسول اللَّه ﷺ [وعروة كان رجلًا معظماً في قومه، ولما أُنزل القرآن على النبي ﷺ قالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون به عروة بن مسعود] فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ فقال له: المغيرة بن شعبة فقال له عروة: أي غُدَر ألست أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فغدر بهم وقتلهم وأخذ أموالهم ثمّ جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء.

[فيذكر أن عروة بن مسعود دفع المال بدل المغيرة ودفع الدية عنه لأنه ثقفي والمغيرة ثقفي]، ثمّ إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فواللَّه ما تنخّم رسول اللَّه ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده(٢)، وإذا أمرهم ابتدروا، وإذا توضأ كادوا يقتتلون

(١) بقبضة السيف.
(٢) التبرك هو طلب البركة والأصل في البركة أنها أمر توقيفي فاللَّه جل وعلا هو الذي يجعل البركة في الأشياء، فذكر عن عيسى ويحيى أنهما مباركان وكل الأنبياء مباركون وجعل سبحانه ماء زمزم مباركاً ويوم الجمعة مباركاً وليلة القدر مباركة وشجرة الزيتون مباركة والخيل مباركة. والنبي محمد رجل مبارك وآثاره من شعره ولباسه وريقه ويده وعرقه كلها مباركة ولأجل ذلك كان يعطي شعره لأصحابه ويأخذون عرقه وملابسه لطلب البركة وهكذا هنا أخذوا نخامته =

على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، [وعن عمرو بن العاص رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه أنه قال: قبل أن أسلم كان محمد أبغض خلق اللَّه إليَّ، فلما أسلمت كان واللَّه أحب خلق اللَّه إليَّ واللَّه ما كنت أشبع منه نظراً إجلالًا له صلوات اللَّه وسلامه عليه حتى لو قيل لي: صفه ما استطعت].

قال المسور: فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم واللَّه لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي واللَّه إن رأيت مليكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا، واللَّه إن يتنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، [هذه الأمور التي رآها عروة بن مسعود من أصحاب النبي ﷺ إنما فعلوا ذلك لأمر ألا وهو أنه قال عروة بن مسعود أول ما جاء: هؤلاء أشواب من الناس سينصرفون عنك وليسوا بفرسان وسيتركونك تقتل، فأراه أصحاب النبي ﷺ بعض محبتهم للنبي ﷺ، ولذلك لم يكن من عادتهم أنه إذا بصق يأخذون نخامته في المدينة أبداً ما نقل هذا إلا هنا وكذلك اقتتالهم على وضوئه، أما بقية الأمور كخفض الصوت وعدم حد النظر إلى النبي ﷺ وابتدار الأمر فهذا في كل مكان وزمان].

= وإن كان أخذ النخامة ليس من عادتهم ولكنهم أرادوا أن يظهروا لعروة مدى محبتهم للنبي ﷺ.

وبحث هذا يطول ويمكن مراجعته في كتب التوحيد وفي القول المفيد شرح كتاب التوحيد لشيخنا ابن عثيمين كلام طيب في التبرك.

قال عروة: وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة يقال له الحُلّيس وهو من الأحابيش(١) قال: دعوني آته.

قالوا: اته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول اللَّه ﷺ: هذا فلان وهو من قوم يعظمون البُدن(٢)، فابعثوها له فبُعثت له واستقبله الناس يلبّون فلما رأى ذلك قال: سبحان اللَّه ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلّدت وأُشعرت فما أرى أن يُصَدوا عن البيت. [وهذا يبين لنا أن لكل مقام مقالا وأن الهدي ليس خاصاً بالحج بل حتى العمرة فيها هدي، وتقليدها هو وضع علامة على الإبل يعرف منها من يراها أنها هدي سيقدم للَّه جلّ وعلا، وأما الإشعار فهو جرح السنام ليخرج منه الدم ويسيل على جسد البعير وهذا وإن كان في ظاهره إيذاء للحيوان إلا أن له مصالح كثيرة منها أنه عندما يراه الرائي من بعيد يعرف إنه قدّم هدياً للَّه جلّ وعلا فلا يقدم أحد على سرقته، وإذا فقد فوجده أحدهم عرف أنه هدي. وغير ذلك].

❊ ❊ ❊

(١) والأحابيش مجموعة من الناس خرجوا من قبائلهم وعاشوا في مكة.
(٢) وهي الهدي من الإبل.

صلح الحديبية سنة ٦ هـ

لما رجع الأحابيش قام رجل من قريش اسمه مِكرز بن الحفص فقال: دعوني آته [وهذا يبين لنا أن قريشاً خائفة من الحرب ولذلك كل فترة يرسلون رجلًا لكي يكلم النبي ﷺ]، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر، فجعل مكرز يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال مَعْمَر [وهو راوي الحديث]: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: قد سَهُل لكم من أمركم [وهذا من باب التفاؤل بالأسماء الحسنة، فبنى النبي ﷺ سهالة الأمر على مقدمتين:

الأولى: ما كان يعرفه من سهيل .

والثانية: اسم سهيل من السهولة].

فجاء سهيل فقال النبي ﷺ: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب [وهو علي بن أبي طالب] فقال: اكتب باسم اللَّه الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن فما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللَّهم كما كنت تكتب. وفي بعض الطرق: اكتب كما كان يكتب آباؤك، وفي بعض طرق هذا الحديث أن علياً كتب بسم اللَّه الرحمن الرحيم. فقال: امحها. فقال المسلمون: واللَّه ما نكتب إلا بسم اللَّه الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللَّهم، ثم قال النبي ﷺ: هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللَّه. قال سهيل: واللَّه لو كنا نعلم أنك رسول اللَّه ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبداللَّه. فقال النبي ﷺ: واللَّه

إني لرسول اللَّه وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبداللَّه فقال علي بن أبي طالب: لا أمحوها.

فقال النبي ﷺ: امحها.

فقال: لا أمحوها [تعظيماً لاسم النبي ﷺ]، وفي بعض الطرق أن الرسول ﷺ قال: ضع يدي عليها فمحاها لأنه ما كان يقرأ صلوات اللَّه وسلامه عليه، فقال النبي ﷺ: على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به.

فقال سهيل :واللَّه لا تتحدث العرب أنّا أُخذنا ضُغْطَةً ولكن ذلك من العام المقبل.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

فقال المسلمون: سبحان اللَّه! كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وهو مسلم وقد قيده أبوه في بيته.

فرآه أبوه حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ فقال النبي ﷺ: إنّا لم نقض الكتاب بعد.

فقال سهيل: فواللَّه إذاً لم أصالحك على شيء أبدا، فقال النبي ﷺ: فأجزه لي.

فقال سهيل: ما أنا بمجيزه لك.

قال النبي ﷺ: بلى فافعل.

قال: ما أنا بفاعل. فقال مكرز: بلى قد أجزناه لك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟!
قال عمر: فأتيت نبي اللَّه ﷺ فقلت: ألست نبي اللَّه حقاً؟ قال له النبي ﷺ: بلى.

قلت (أي عمر): ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى.

قال: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ فقال الرسول ﷺ: إنّي رسول اللَّه ولست أعصيه وهو ناصري.

قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى.

فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟ قال عمر: لا.

قال الرسول ﷺ: إنك آتيه ومطوّف به.

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي اللَّه حقا؟ قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: أيها الرجل إنه لرسول اللَّه ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه[١] فواللَّه إنه على الحق.

[وهذا يبين لنا رجاحة عقل أبي بكر الصديق رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه]،
قال عمر: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال أبو بكر: بلى.

فأخبرك أنك ستأتيه العام؟ قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به.

---

(١) والغَرْز هو مثل لجام الخيل ولكن يكون للإبل أي تمسك بمحمد ﷺ.

قال عمر: فعملت لذلك أعمالا فما زلت أصوم وأتصدق .

فلما فرغ من قضية الكتاب قال الرسول ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثمّ احلقوا [وهذا يسمى في الشرع الحَصْر والإنسان إذا حصر يهدي الهدي الذي معه وتنتهي عمرته وهذا لمن كان معه الهدي ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾].

فواللَّه ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت: يا نبي اللَّه أتحب ذلك؟ اخرج ثمّ لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج النبي ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق لبعض حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّا، [نرى هنا أن النبي ﷺ أمر الصحابة وما نفذوا هل تعتبر هذه معصية؟ نقول: هم ما نفذوا أمر النبي ﷺ ولكن لِم لَم ينفذوا أمره؟ هم تمنوا أن ينزل اللَّه تبارك وتعالى أمره بالدخول إلى مكة، أو أن يغير النبي ﷺ رأيه ويعزم على الدخول، وذلك لأنهم كانوا متلهفين لدخول مكة، ولكن أم سلمة رضي اللَّه تبارك وتعالى عنها كانت راجحة العقل، فهمت أن الصحابة رضي الله عنهم إنما امتنعوا عن ذلك لأجل هذين الأمرين فلذلك أشارت عليه بأن ينحر ويحلق ثمّ ينظر كيف تكون ردة الفعل، فقبل رأيها صلوات اللَّه وسلامه عليه فنحر وحلق فلما رأى الصحابة ذلك نحروا وحلقوا بدون أمر] ثمّ جاء نسوة

مؤمنات فأنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ﴾ أي من المهر ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي بعد انفساخ العقد وانقضاء العدة ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ﴾ أي المهر ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي لا تجعلوا الكافرات في عصمتكم كما أن المؤمنة لا يجوز لها أن تعيش مع الكافر ثم قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي كما إنكم تعطونهم ما أنفقوا أيضاً أنتم اسألوا من الكافرات اللاتي تفسخون عقدهن، وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم اللَّه يحكم بينكم واللَّه عليم حكيم.

فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية، وبعد صلح الحديبية نزلت سورة الفتح كاملة ولذلك يسمي أهل العلم صلح الحديبية فتحاً .

شروط صلح الحديبية

أولًا: أن يرجع المسلمون ذلك العام ولا يصلوا إلى مكة.

ثانياً: أن النبي ﷺ ومن معه يعتمرون من السنة القادمة في الوقت نفسه ويقيمون في مكة ثلاثة أيام فقط.

ثالثاً: لا يدخلون مكة بسلاح إلا سلاح الراكب، السيف في القِرب.

رابعاً: من جاء النبي ﷺ من قريش بغير إذن وليه يردّه عليه ومن جاء

قريشاً من المسلمين لا يرده إليهم.

خامساً: من أراد أن يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه وله مثل شرطه ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه وله مثل شرطها، فدخلت بنو بكر مع قريش ودخلت خزاعة مع النبي ﷺ.

سادساً: أن بين النبي ﷺ ومكة عيبة مكفوفة أي معقودة.

سابعاً: أنه لا إسلال ولا إغلال.

ومعنى الشرطين السادس والسابع أي بيننا وبينهم في هذا الصلح صدراً معقوداً على الوفاء بما في الكتاب نقياً من الغل والغدر والخداع.

ثامناً: توضع الحرب بينهم عشر سنين.

هذه الهدنة في ظاهرها إجحاف للنبي ﷺ ومن معه، ولكن ليس الأمر كذلك يقول ابن القيم رحمه اللَّه تبارك وتعالى في الزاد في الإشارة إلى بعض الحكم الذي تضمنتها هذه الهدنة: هي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا اللَّه جلّ وعلا الذي أحكم أسبابها ووقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته سبحانه وتعالى منها:

* أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز اللَّه به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين اللَّه أفواجا فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه.

* أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر ما كان مختفياً بالإسلام، ودخل

فيه في مدة الهدنة من شاء اللَّه أن يدخل، ومن أشهر من دخل في الإسلام في هذه المدة خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، وغيرهما من الصحابة.

* ما سبّبه اللَّه سبحانه وتعالى للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان والانقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضا بقضاء اللَّه تبارك وتعالى وتصديق موعوده.

* أن النبي ﷺ تفرّغ للدعوة إلى دين اللَّه تبارك وتعالى فصار صلوات اللَّه وسلامه عليه يرسل رسله، فأرسل إلى هرقل وقيصر وأرسل إلى النجاشي والمقوقس وإلى غيرهم كلهم يدعوهم إلى الإسلام.

فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً

رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير [رجل من قريش] وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفع النبي ﷺ أبا بصير إلى الرجلين [لأنه لا يغدر صلوات اللَّه وسلامه عليه] فخرجا بأبي بصير حتى بلغوا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: واللَّه إني لأرى سيفك يا فلان لا يخيب. فاستله وقال: أجل واللَّه إنه كذلك لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى بَرَد[1]. وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول اللَّه ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا. فلما انتهى

(١) حتى مات.

إلى النبي ﷺ قال: قُتِل واللَّه صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير ومعه السيف فقال: يا نبي اللَّه قد واللَّه أوفى اللَّه ذمتك قد رددتني عليهم ثم أنجاني اللَّه منهم. فقال النبي ﷺ: مِسْعَر حرب. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج من المدينة حتى أتى سيف البحر، وانفلت أبو جندل مرة ثانية فذهب إلى أبي بصير عند سيف البحر، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة فواللَّه ما يسمعون بعِير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده اللَّه والرحم من أتاه فهو آمن فأرسل الرسول ﷺ إليهم موافقته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٤- ٢٦] يقول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي كف القتال بالصلح الذي كان بينهم من بعد أن أظفركم عليهم أي كان اللَّه تبارك وتعالى سيظفر النبي ﷺ على أهل مكة كما أظفرهم اللَّه في الخندق وفي بدر، قال ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أهل مكة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لما خرج النبي ﷺ ومن معه معتمرين. ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي منعوا الهدي أن يبلغ محله وأن ينحر عند البيت يقول: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن

تَطَءُوهُمْ﴾ أي الضعفاء كأبي جندل وأبي بصير وغيرهم من المؤمنين الذين كانوا في مكة ولا يستطيعون الهجرة يقول: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَءُوهُمْ﴾ أي قد تقتلون من المؤمنين وأنتم لا تعلمون يقول: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي تعيرون بعد ذلك بهذا ويقال قتلتم أصحابكم وقتلتم المؤمنين بغير علم منكم أن هؤلاء من المؤمنين، قال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي من عباده قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو انفصل المؤمنون الذين في مكة عن الكافرين: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي السبب في عدم تعذيب اللَّه لأهل مكة هو وجود الضعفاء من المؤمنين داخل مكة قال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك في قولهم إنه من خرج من عندنا مؤمناً تعيده لنا مرة ثانية قال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

أحداث في الحديبية

الأول: أنها نزلت فيها حادثة كعب بن عُجرة رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه كما أخرج الإمام البخاري في صحيحه[1] عن كعب بن عجرة قال: وقف عليّ رسول اللَّه ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت منه قمل فقال النبي ﷺ: أيؤذيك هوامّك؟ [وكان محرماً] قلت: نعم.

فقال النبي ﷺ: فاحلق رأسك.

وقال: وفيَّ نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن

(١) (١٨١٥).

صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النبي ﷺ: صم ثلاثة أيام أو تصدق بفَرَق[١] بين ستة أو انسك بما تيسر[٢].

الثاني: مسألة عقائدية

أخرج البخاري[٣] رحمه اللَّه عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى لنا رسول اللَّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثْر سماء[٤] كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس وقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم.

قال اللَّه: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال: مُطِرنا بفضل اللَّه ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب.

وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب.

[لماذا؟ لأنه نسب إنزال المطر إلى شيء ليس له بسبب أصلًا وهو الكوكب بل إن الأمر كله للَّه، ويفرق أهل العلم بين مطرنا بنوء كذا أو مطرنا في نوء كذا فإذا قال: مطرنا بنوء كذا بالباء السببية فهذا هو الشرك والعياذ باللَّه وأما إذا قال مطرنا في نوء كذا فهذا ليس بشرك إن كان يقصد أنه مطرنا في نوء كذا في الظرفية أي في الوقت الذي كان فيه النجم الفلاني في المكان الفلاني نزل المطر فهذا لا بأس به، فهنا ثلاثة أحوال:

(١) ذبيحة.
(٢) الفرق ثلاثة آصع والصاع ٢,٥ كجم تقريباً.
(٣) (٨٤٦).
(٤) مطر.

١- إذا اعتقد أن النجم هو الذي أنزل المطر فهذا شرك أكبر.

٢- إذا اعتقد أن النجم سبب في نزول المطر فهذا شرك أصغر. لأن السبب إما أن يكون شرعيا أو طبيعياً وهو هنا ليس كذلك.

٣- إذا اعتقد أن المطر نزل في الوقت الذي كان فيه النجم في هذا المكان فهذا جائز لا بأس به.

الثالث: قال أبو المليح قد رأيتنا مع الرسول ﷺ يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تَبُلَّ أسافل نعالنا فنادى منادي رسول اللَّه ﷺ صلوا في رحالكم.

فمن سنة الصلاة إذا نزل المطر أن المنادي ينادي أن الصلاة في الرحال، أي البيوت وذلك بدل قوله حي على الصلاة.

وكذلك وقعت آيات للنبي ﷺ فمنها ما ذكرناه من وضع السهم، وكذلك ما ذكره الإمام البخاري في صحيحه(١) عن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول اللَّه ﷺ بين يديه رِكوة(٢) فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقال الرسول ﷺ: ما لكم؟ قالوا: يا رسول اللَّه ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما في ركوتك.

قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه صلوات اللَّه وسلامه عليه كأمثال العيون.

قال جابر: فشربنا وتوضأنا.

فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مئة [يعني ألف وخمسمئة].

---

(١) (٣٥٧٦).

(٢) وهي الإناء الصغير من الجلد.

بيعة الرضوان

مَرَّ بنا أن قريشاً قبيل صلح الحديبية أرسلوا للنبي ﷺ عروة بن مسعود ثم أرسلوا زعيم الأحابيش، ثم جاء سهيل بن عمرو وخلال هذه اللقاءات كان النبي ﷺ كذلك قد أرسل إليهم رسولا، إذ دعا الرسول ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول اللَّه ﷺ، ثم انطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول اللَّه ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين بلّغ رسالة رسول اللَّه ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول اللَّه ﷺ [وهذا أدب رفيع ومحبة عظيمة لرسول اللَّه ﷺ وإلا فعثمان بن عفان كغيره من أصحاب النبي ﷺ كله شوق إلى الطواف ببيت اللَّه العظيم ولكنه امتنع عن الطواف لا رغبة عنه ولكنه أدباً مع رسول اللَّه ﷺ]، فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول اللَّه ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، وهذا الأمر وارد وبينهم قتال: بدر وأُحد والخندق، والرسول قد جاء بعدد كبير، وهم مستعدون لقتال، وهم لا يتقون اللَّه تبارك وتعالى، فلا يستبعد أن يقع من أمثال هؤلاء الجرأة على قتل عثمان رضي الله عنه ! قال ابن إسحاق: فحدثني عبد اللَّه بن أبي بكر أن الرسول ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا رسول اللَّه ﷺ إلى البيعة وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم

رسول اللَّه ﷺ على الموت.

وقال جابر رضي الله عنه : لم يبايعنا رسول اللَّه على الموت ولكن بايعنا على ألّا نفر.

بعض الصحابة ذكر أن هذه البيعة كانت بيعة للموت في سبيل اللَّه وبعضهم ذكر أنه بايعهم على ألّا يفروا وهما متلازمان، لأن من لا يفر متعرض للموت، فبايع رسول اللَّه ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا رجل واحد وهو جد بن قيس أخو بني سلمة ولقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: لن يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر[١] وصاحب الجمل الأحمر هو الجد بن قيس، وبايع النبي ﷺ الصحابة في هذا اليوم العظيم وبايع عن عثمان بيده صلوات اللَّه وسلامه عليه وقال: وهذه لعثمان فبايع عنه وكانت يده لعثمان أكرم من يد عثمان لنفسه[٢].

وكان بعد ذلك صلح الحديبية ورجع عثمان.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) دون زيادة إلا صاحب الجمل الأحمر.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٨).

التفرغ للدعوة، ومكاتبة الملوك

بعد صلح الحديبية راسل النبي ﷺ الملوك والأمراء يدعوهم إلى اللَّه تبارك وتعالى وأرسل صلوات اللَّه وسلامه عليه رسائل كثيرة نذكر منها رسالتين:

رسالته إلى كسرى

بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللَّه إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن باللَّه ورسوله وشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية اللَّه فإني أنا رسول اللَّه إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

واختار النبي ﷺ لحمل هذا الكتاب عبداللَّه بن حذافة السهمي رضي الله عنه فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولما وصل الكتاب إلى كسرى مزقه وقال في غطرسته عن رسول اللَّه ﷺ: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي. فلما بلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ قال: مزّق اللَّه ملكه [وقد كان كما قال].

وقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلدين فليأتياني به، فاختار باذان رجلين من عنده وبعثهما بكتاب إلى رسول اللَّه ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وهذا أمر عجيب من هذا الرجل وهو كسرى فهو استهان بأمر العرب فلم يرسل جيشاً بل ولا سرية صغيرة لتأتي برسول اللَّه ﷺ وإنما يرسل رجلين

اثنين ليأتياه برسول اللَّه ﷺ، هكذا نظرة فارس والروم إلى العرب كانوا يحتقرونهم ولا يعدونهم شيئاً، فأعزّهم اللَّه جل وعلا بالإسلام فما هي إلا سنوات قليلة إلا وقد ظهر الإسلام وأنهى اللَّه جل وعلا دولة فارس كلها، فهذا فضل اللَّه سبحانه وتعالى وقد جاء في الحديث(١): أن هذين الرجلين جاءا إلى النبي ﷺ وقد حلقا لحيتيهما وأطلقا شاربيهما فلما رآهما النبي ﷺ صدّ عنهما وكره أن ينظر إليهما ثم قال: ويحكما من أمركما بهذا؟ [وهو إطلاق الشارب وحلق اللحية] قالا: ربنا(٢) فقال النبي ﷺ: أمّا ربي فأمرني أن أُعفي لحيتي وأن أحف شاربي فهذه سنة النبي ﷺ وهذا هديه.

رسالته إلى هرقل

أخرج الإمام البخاري(٣) رحمه اللَّه جل وعلا: عن عبداللَّه بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره [وهذه القصة وقعت لأبي سفيان قبل إسلامه ولكنه حدّث بها بعد أن أسلم وهي قصة عجيبة فيها من الفوائد والحكم والعبر الشيء الكثير] قال أبو سفيان: كنا تجاراً بالشام(٤) وأنه أرسل إليه هرقلُ وإلى من كان معه في المدة التي كان رسول اللَّه ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء(٥) فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ودعا بترجمانه(٦) فقال:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب المغازي باب ما ذكر في كتب النبي ﷺ وبعوثه.
(٢) يعنيان كسرى.
(٣) (٧، ٥١).
(٤) في فترة صلح الحديبية.
(٥) في الشام.
(٦) لأنه لا يعرف العربية.

أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي[(١)]؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقرب الناس نسباً [فأبو سفيان هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والنبي ﷺ هو محمد بن عبداللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فجد أبي سفيان الرابع عبد شمس وجد النبي ﷺ الرابع هاشم، وهاشم وعبد شمس أخوان أبوهما عبد مناف] فقال: أدنوه منّي، قال: وقَرِّبوا أصحابه واجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: فواللَّه لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت[(٢)]، ثم كان أول ما سألني عنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب وفي رواية أنه قال: هو من أوسطنا نسباً [أي من أفضلنا نسباً وأوسط الشيء أفضله لذلك قالوا عن الجوهرة في العقد: واسطة العقد وكذلك يقال عن صلاة العصر: الصلاة الوسطى.

قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أي الفُضلى] قال هرقل: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: هل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

---

(١) بعد أن جاءته الرسالة من النبي) وأتى بهذه الرسالة دحية بن خليفة الكلبي.
(٢) وهذه مسألة ينبغي أن نقف عندها قليلاً، أبو سفيان يقول هذا الكلام حال كفره ويستحيي من الكذب والآن الملايين من المسلمين يكذبون ولا يستحون فاللَّه المستعان.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، [أي يمكن أن يغدر لا أدري فهذه الكلمة الوحيدة التي استطعت أن أُلقي فيها شبهة على النبي الكريم صلوات اللَّه وسلامه عليه]، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منّا وننال منه.

قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا اللَّه وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، وكذلك يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

قال هرقل للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، [لماذا تبعث الرسل في نسب قومها؟ قالوا: لأن لوطاً عليه الصلاة والسلام لما جاءه قومه يهرعون إليه يريدون (قبحهم اللَّه) أن يفعلوا الفاحشة في الملائكة الذين زاروه فقال مقولته التي ذكرها اللَّه جل وعلا عنه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي ليس لي قبيلة تحميني وتدفع عني.

وقال اللَّه جل وعلا عن شعيب عليه السلام أن قومه لما يئسوا منه قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١]].

قال: وسألتك هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: إنه رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب مُلك آبائه.

وسألتك: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللَّه، [وهذا استدلال لطيف من هرقل].

وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم [وفي رواية: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب].

وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا اللَّه وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

ثم قال: فإن كان ما تقول حقا فَسَيَمْلك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم.

[فبنو إسرائيل بشكل عام اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن هذا أوان خروج نبي كريم ولكن كانوا يظنون أن هذا النبي من بني إسرائيل، وعيسى عليه السلام قد بشّر به فقال اللَّه تبارك وتعالى عن عيسى ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾

[الصف: ٦] وبشر به موسى كما في التوراة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، فالقصد أن هرقل وغيره يعرفون أن هذا أوان خروج نبي كريم صلوات اللَّه وسلامه عليه].

قال هرقل: فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. [فهذه كلمات عظيمة يقولها ملك بين حاشيته وأمام أبي سفيان رأس الكفر في ذلك الزمان]، ثم دعا بكتاب رسول اللَّه ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد عبد اللَّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تَسْلَم يؤتك اللَّه أجرك مرتين(١)، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين(٢)، ثم قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] قال أبوسفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِر أَمْر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر(٣)،

(١) فلو تساءلنا لماذا يؤتيه اللَّه أجره مرتين؟ والجواب لأنه آمن بنبيه الذي بعث في قومه وهو عيسى عليه الصلاة والسلام وآمن بمحمد ﷺ.

(٢) والأريسيون هم الفلاحون وعامة الناس لأن هذا سيكون هو السبب في صدهم ومنع الهداية من الوصول إليهم.

(٣) وأمر أمره أي عَظُم.

[وابن أبي كبشة هو رسول اللَّه ﷺ وهذه يعيرونه بها كما يزعمون، وعلى المشهور أن أبا كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ، فحليمة السعدية تكون أماً له من الرضاعة وأبو كبشة زوجها يكون أباً له من الرضاعة، فإذا أرادوا أن يعيروا النبي ﷺ قالوا له أنت ابن أبي كبشة]، يقول: فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل اللَّه عليّ الإسلام(١)، وكان ابن الناطور صاحب إيلياء سُقفاً على نصارى الشام وهو صديق لهرقل، وكانا ينظران في النجوم يحدّث: أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس فقال بعض بطارقته وهم رجال الدين عندهم: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاءً ينظر في النجوم(٢)، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان ظهَر فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنّك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود.

يقول: فبينما هم على أمرهم أُتي هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول اللَّه ﷺ فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا وانظروا امختتن هو أم لا؟ فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب؟ فقال: هم يختتنون فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم ير حمصاً حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه يقول: فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له في حمص(٣)، ثم أمر بأبواب الدسكرة فغلّقت ثم اطلع فقال: يا معشر الروم

(١) وذلك أنه أسلم عام الفتح.
(٢) منجّم.
(٣) الدسكرة هو بناء مثل القصر يكون للخدم والحواشي فيه بيوت كثيرة.

هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش [أي أرادوا الهرب ومنه قول اللَّه تبارك وتعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١]،] إلى الأبواب فوجدوها قد غلّقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي، ثم قال: إني قلت مقالتي آنفاً اختبر بها شدّتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له، [وهذا الرجل عزّت عليه الدنيا، وضنّ على ملكه، وخاف عليه، ونسي الآخرة واللَّه المستعان، وهكذا الإنسان يضيع الخير العظيم ويضيع الآخرة التي هي دار القرار لدنيا تافهة قد يتنعم فيها، وقد لا يتنعم ومن تنعم فيها غُمس غمسة واحدة في نار جهنم ثم يقال له: هل مرّ بك خير قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا لم أر نعيماً قط]، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

وهنا قد يسأل سائل هل أسلم هرقل؟ ظاهره هنا أنه أراد أن يسلم وأنه صدّق بالنبي ﷺ ولكن هل يكفي مجرد التصديق؟ أو لابد من الإقرار؟ لابد من الإقرار فالإيمان لا يكون بمجرد التصديق فإبليس مصدق أن اللَّه خالقه وأن اللَّه بارئه وأن اللَّه مصوره وأن اللَّه له الأمر وله النهي سبحانه وتعالى ومع هذا لم يستجب، وجاء أنه كتب من تبوك (أي هرقل) إلى النبي ﷺ يقول: إني مسلم.

فقال النبي ﷺ: كذب بل هو على نصرانيته[١]، وقال الحافظ ابن حجر: في كتاب الأموال لأبي عبيد بسند صحيح من مرسل بكر بن عبد اللَّه المزني أنه قال أي النبي ﷺ عن هرقل: كذب عدو اللَّه ليس بمسلم.

---

(١) فتح الباري (١/ ٥٠).

عدالة الإسلام

أخرج الإمام مسلم في صحيحه[١] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إن نفراً من عُكل [وهي قبيلة عربية من عدنان] ثمانية قدموا على رسول اللَّه ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا الأرض وسقمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها؟ [وأبوال الإبل طاهرة على الصحيح من أقوال أهل العلم وكذا كل مأكول اللحم] فقالوا: بلى.

فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحّوا [ولكن كيف كان جزاء هذا المعروف؟] فقتلوا الراعي وطردوا الإبل فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فبعث في آثارهم، فأُدركوا فجيء بهم فأمر بهم صلوات اللَّه وسلامه عليه فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِرت أعينهم[٢] ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا.

هذا عقاب من يفسد في الأرض واللَّه تبارك وتعالى قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥] ولذلك قال أنس: إنما سَمَل (بفتح السين والميم) أعين أولئك أنهم سملوا أعين الرعاء[٣] فهم بدءوا بهذا فعاملهم النبي ﷺ بجنس عملهم، وذلك أنهم اعتدوا فاعتدي عليهم بمثل ما اعتدوا وإن كان الاعتداء الثاني ليس اعتداء في حقيقته وإنما هو قصاص.

---

(١) (١٦٧١).
(٢) بالمسامير.
(٣) أخرجه مسلم (١٦٧١).

غزوة خيبر سنة ٧هـ

وهي بعد صلح الحديبية بأشهر قليلة، ذكرنا أن اللَّه تبارك وتعالى أنزل سورة الفتح كاملة على النبي ﷺ بعد الحديبية مباشرة وقد أنزل اللَّه تبارك وتعالى في تلك السورة قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠] وهذه التي عجّلها هي خيبر.

يقول ابن القيّم رحمه اللَّه تبارك وتعالى: قدم الرسول ﷺ المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرّم فنزل رسول اللَّه ﷺ في الرجيع(١) قال سلمة بن الأكوع: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلًا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك(٢). وكان عامر رجلًا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تَصَدَّقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا ... وثبّت الأقدامَ إن لاقينا
وأنزِلَنْ سكينةً علينا ... إنّا إذا صِيْحَ بنا أتينا
وبالصياح يعوّلوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

سمع الرسول ﷺ كما سمع غيره هذا النشيد فقال رسول اللَّه ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: هذا عامر.

فقال رسول اللَّه ﷺ: رحمه اللَّه.

فقال رجل من القوم: وجبت يا رسول اللَّه لولا أمتعتنا به [أي علموا من

(١) وادي بين خيبر وغطفان.
(٢) يعني من كلامك الطيب.

قول النبي ﷺ رحمه اللَّه أنه سيموت في هذه المعركة] قال: فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة[١] فلما أمسوا أوقدوا نيراناً كثيرة فقال رسول اللَّه ﷺ: ما هذه النيران؟ وعلى أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم.

قال: على أي لحم؟ قالوا: على لحم حمُر إنسية.

فقال رسول اللَّه ﷺ: أهريقوها وأكسروها.

فقال رجل: يا رسول اللَّه أو نهريقها ونغسلها؟ قال: أو ذاك.

فلما تصافّ القوم (أي من الغد) للقتال خرج مرحبٌ اليهودي وهو يخطر بسيفه يقول:

قد علمتْ خيبرُ أني مَرْحَبُ شاكِ السلاح بطل مُجَرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تَلَهَّبُ

فنزل إليه عامر المنشد قريباًوهو يقول:

قد علمت خيبر أني عامر شاك السلاح بطل مغامر

وهذه كانت عادتهم في السابق قبل المعركة تبدأ المبارزة كما ذكرنا في بدر لما تبارز حمزة وعلي وأبو عبيدة بن الحارث مع الوليد بن عتبة وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وكما تبارز علي بن أبي طالب مع عمرو بن عبد ود، والزبير مع كبش الكتيبة، فكذلك هنا خرج هذا الرجل للمبارزة فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر فذهب عامر يسْفُل عليه أي يريد أن يضربه بالسيف من الأسفل لأن سيف مرحب تعطل عن العمل يقول:

(١) جوع شديد.

وكان سيف عامر فيه قصر فرجع عليه ذباب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه فقال سلمة للنبي ﷺ: زعموا أن عامراً حبط عمله [لأنه قتل نفسه]، فقال النبي ﷺ: «كذب من قال ذلك إن له أجرين» وجمع صلوات اللَّه وسلامه عليه بين إصبعيه وقال: «إنه لجاهِدٌ مُجاهِدٌ قَلَّ عربي مشى بها مثله». أخرجه الإمام البخاري في صحيحه(١).

وكان النبي ﷺ لما قدم صلى بها الصبح وركب المسلمون فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم (أي أدوات الزراعة) لا يشعرون بمجيء النبي ﷺ وأصحابه إليهم فلما رأوا الجيش قالوا: محمد واللَّه محمد والخميس(٢) ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم، فقال النبي ﷺ: «اللَّه أكبر خربت خيبر اللَّه أكبر خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فلما دنا النبي ﷺ وأشرف على خيبر قال: قفوا فوقف الجيش ثم قال: اللَّهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم اللَّه». وهذه الرواية في إسنادها كلام.

ولما كانت ليلة دخول خيبر وبعد مقتل عامر بن الأكوع قال رسول اللَّه ﷺ: «لأعطينّ الراية غداً رجلًا يحب اللَّه ورسوله ويحبه اللَّه ورسوله يفتح اللَّه على يديه» فباتوا يدوكون أيهم يُعطاها [أي يتكلمون في هذا الأمر كل واحد يتمنى أن يكون هو ذاك الرجل] فلما أصبح الناس غدوا على رسول اللَّه

---

(١) (٤١٩٦).

(٢) الجيش.

ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال ﷺ: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول اللَّه هو يشتكي عينيه.

قال: فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول اللَّه ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال (أي علي بن أبي طالب): أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

قال: انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه فيه، فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم[(١)]. أخرجاه في الصحيحين[(٢)] فخرج مرحب وهو يقول أي كعادته لما خرج في المرة الأولى:

قد علمت خيبر أني مرحب شاك السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه علي وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة[(٣)] كليث غابات كريه المنظرة
أُوفِيهُمُ بالصاعِ كَيْلَ السَنْدَرة

فضرب مرحباً ففلق هامته ثم كان الفتح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[(٤)].

وجاء في حديث جابر بن عبد اللَّه أن محمد بن مسلمة هو الذي قتل

(١) الإبل الحمراء.
(٢) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٣) لما ولد علي سمته أمه أسداً لأن جده من أمه اسمه أسد فغيره أبو طالب وسماه علياً وحيدرة اسم من أسماء الأسد.
(٤) (١٨٠٧).

مرحباً، قال جابر في حديثه: خرج مرحب اليهودي من حصن خيبر قد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول: من يبارز؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: من لهذا؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول اللَّه أنا واللَّه الموتور الثائر قتلوا أخي بالأمس [يعني محمود بن مسلمة وكان قتل بخيبر] فقال ﷺ: قم إليه اللَّهم أعنه عليه» فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة أي صار كل واحد خلف هذه الشجرة فجعل كل واحد منهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه من دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت الشجرة بينهما كالرجل القائم، ما فيها فنن أي الأغصان كلها قطّعت ثم حمل مرحب على محمد فضربه فاتقاه بالدرقة أي الدرع الذي يمسكه بيده فوقع سيفه فيها وضربه محمد بن مسلمة فقتله. إسناده صحيح(١).

ولا يهم من قتل مرحباً اليهودي المهم أنه قتل ولكن رواية مسلم أصح لأنها في صحيح مسلم فإنها تقدّم.

وفي هذه الغزوة جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، فقال للرسول ﷺ: أهاجر معك.

فأوصى به بعض أصحابه، فلما انتهت غزوة خيبر غنم رسول اللَّه ﷺ أموالًا كثيرة فقسمه بين أصحابه وللأعرابي لأنه شارك، قال: أعطوه لفلان كان يرعى الإبل فلما جاء الرجل أعطوه وقالوا له: هذا حقك .

فقال الرجل: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول اللَّه ﷺ.

فأخذه الأعرابي وجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول اللَّه؟ قال:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٨٥).

«قسم قسمته لك».

قال: يا رسول اللَّه ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت وأدخل الجنة.

فقال ﷺ: إن تصدق اللَّه يصدقك ثم نهض ﷺ إلى قتال العدو فأُتي بالأعرابي إلى النبي ﷺ وهو مقتول فقال ﷺ: أهو هو؟ قالوا: نعم يا رسول اللَّه.

قال: صدق اللَّه فصدقه، فكفنه النبي ﷺ في جبّته ثم قدمه فصلى عليه، وكان من دعائه صلوات اللَّه وسلامه عليه أنه قال: اللَّهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك قتل شهيداً وأنا عليه شهيد، [فهذه شهادة عظيمة من نبي عظيم ﷺ][1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما[2] أن رسول اللَّه ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الزرع والنخل والأرض فصالحوه على أن يَجْلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول اللَّه ﷺ الصفراء[3] والبيضاء[4] واشترط عليهم ألّا يكتموا ولا يغيّبوا شيئا، فإن فعلوا فلا ذمّة لهم ولا عهد قال عبد اللَّه بن عمر: فغيّبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب وكان احتمله معه إلى خيبر حين أُجليت بنو النضير، فقال رسول اللَّه ﷺ لعم حيي بن أخطب: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ قال: اذهبته النفقات والحروب يا رسول اللَّه.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢/ ٥٢٣) والنسائي (١٩٥٢).
(٢) رواه البيهقي في كتاب السير، باب من رأى قسمة الأراضي.
(٣) الذهب.
(٤) الفضة.

فقال ﷺ: العهد قريب والمال أكثر من ذلك.

فشك النبي ﷺ في أنهم قد غيّبوا شيئاً، فأرسله النبي ﷺ إلى الزبير فمسّه بعذاب[(١)] حتى يعترف [وهذا يدل على أنه إذا كانت ريبة وشك في أنه كاذب أوسارق أوقاتل فلا بأس أن يُمس بعذاب حتى يعترف] فمسّه بعذاب فقال: إنه كان قبل ذلك قد دخل خربة فقال: قد رأيت حيياً يطوف بخربة فذهبوا وطافوا فوجدوا المسك في الخربة.

فقتل رسول اللّه ابني أبي الحقيق وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى الرسول ﷺ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، لأنهم نكثوا العهد وأراد أن يجليهم منها فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بها منكم.

ولم يكن لرسول اللّه ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر ما بدا لرسول اللّه أن يقرّهم على ذلك.

الزواج بصفية

وأخذ النبي ﷺ في هذه الغزوة صفية بنت حيي بن أخطب سبياً ثم أعتقها وتزوجها صلوات اللّه وسلامه عليه وجعل عتقها مهرها فصارت من أمهات المؤمنين.

---

(١) ضربه.

القلوب أمرها إلى اللَّه

أخرج الإمام البخاري رحمه اللَّه في صحيحه[١] عن سهل بن سعد الساعدي رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول اللَّه ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول اللَّه ﷺ رجل لا يدع لهم شاذّة ولا فاذّة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقيل: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان فقال رسول اللَّه ﷺ: أما إنه من أهل النار.

فقال رجل من القوم: أنا صاحبه فخرج معه فكلما وقف، وقف معه وإذا أسرع أسرع معه لأنه يعلم يقيناً أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه (أي سن السيف) ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل الذي تابعه إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: أشهد أنك رسول اللَّه.

قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به فخرجت في طلبه ثم جُرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول اللَّه ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة .وفي بعض طرق هذا الحديث أن هذه القصة وقعت في خيبر .

---

(١) (٢٨٩٨).

وأخرج الإمام البخاري[١] أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا خيبر فقال رسول اللَّه ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراح فكاد بعض الناس يرتاب [أي يرتاب كيف يقاتل هذا الرجل قتالًا شديداً ثم يكون من أهل النار] فوجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول اللَّه صدّق اللَّه حديثك انتحر فلان قتل نفسه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «قم يا فلان فأذّن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، إن اللَّه يؤيد الدين بالرجل الفاجر».

فعلى الإنسان ألّا يحكم على الناس من ظاهرهم وقد بوّب الإمام البخاري باباً في صحيحه: لا يقال فلان شهيد. لأن هذا الإنسان ظاهره شهيد ومع هذا أخبرهم النبي ﷺ أن باطنه خلاف ظاهره وأنه كافر، ولذلك جاء ببعض طرق الحديث أنه قيل له: قاتلت وفعلت. قال: إنما قاتلت دفاعاً عن قومي. فلا يشهد لشخص معين إنه في الجنة أو في النار أو إنه شهيد أو غير ذلك وإنما يقول كما قال النبي ﷺ: «فإن كان لابد قائلًا نحسبه كذلك واللَّه حسيبه»[٢].

* * *

(١) (٦٦٠٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦٢).

عودة المهاجرين من الحبشة

وفي هذه الغزوة قدم على رسول اللَّه ﷺ ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس وأصحابه ومعهم الأشعريون عبد اللَّه بن قيس أبو موسى وأصحابه، قال أبو موسى: بلغنا مخرج النبي ﷺ [أي من مكة إلى المدينة] ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين أنا وإخوان لي وأنا أصغرهما أحدهما أبو رهم والآخر أبو بردى في بضع وخمسين رجلًا من قومي، فركبنا سفينة وألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده فقال جعفر: إن رسول اللَّه ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا.

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا فوافقنا رسول اللَّه ﷺ حين أفتتح خيبر فأسهم لنا[١] وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا أصحاب سفينتنا وكان ناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة.

قال: ودخلت أسماء بنت عميس رضي الله عنها على حفصة أم المؤمنين فدخل عليها عمر فقال: من هذه يا حفصة؟ قالت: هذه أسماء.

فقال عمر: سبقناكم بالهجرة نحن أحق برسول اللَّه ﷺ منكم.

فغضبت وقالت: يا عمر كلا واللَّه لقد كنتم مع رسول اللَّه ﷺ يُطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء وذلك في اللَّه وفي رسوله، وأيم اللَّه لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول

(١) أعطاهم سهماً من خيبر.

اللَّه ﷺ، قالت: وكنا نؤذى ونخاف سأذكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ واللَّه لا أكذب ولا أزيد على ذلك.

فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا رسول اللَّه إن عمر قال كذا وكذا.

قال: ما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا.

فقال ﷺ: «ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

وكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتون أرسالًا[1] يسألون عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول اللَّه ﷺ، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[2].

ولما قدم جعفر ابن أبي طالب على الرسول ﷺ تلقاه وقبّل جبهته وقال: «واللَّه ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[3].

محاولة قتل النبي ﷺ

في هذه الغزوة سُمّ (بضم السين) النبي ﷺ وذلك أنه أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية وهي امرأة سلّام بن مشكم شاة مشوية قد سمّتها، وسألت أي اللحم أحب إلى رسول اللَّه ﷺ؟ قالوا: الذراع. فأكثرت من السم في الذراع.

(١) مجموعات.
(٢) رواه البخاري (٤٢٣٠، ٤٢٣١) ومسلم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(٣) زاد المعاد (٢/ ١٣٩).

فلما انتهش النبي ﷺ أخبره الذراع بأنه مسموم [وهذه آية من اللَّه تبارك وتعالى] فلفظ الأكلة ثم قال: اجمعوا لي مَنْ من اليهود فجُمِعوا له فقال لهم: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي فيه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان.

قال: كذبتم، أبوكم فلان قالوا: صدقت.

قال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال ﷺ: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها.

فقال ﷺ: اخسؤوا فيها فواللَّه لا نخلفكم فيها أبدا.

[وكما قال اللَّه تبارك وتعالى ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]]، ثم قال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم.

قال: أجعلتم في هذه الشاة سمّا؟ قالوا: نعم.

قال: فما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك وإن كنت نبياً لن يضرك(١).

وجيء بالمرأة إلى رسول اللَّه ﷺ وقالت: أردت قتلك.

فقال رسول اللَّه ﷺ: ما كان اللَّه ليسلّطك عليَّ.

قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٧٧).

ولم يتعرّض لها رسول اللَّه ﷺ وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قتلها.

وذلك أنه قد أكل مع النبي ﷺ بشر بن البراء فمات من السم. وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال في مرض موته: «مازلت أجد من الأُكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر فهذا أوان انقطاع الأبهر[١] مني»[٢].

قال الزهري فتوفي رسول اللَّه ﷺ شهيدا.

* * *

---

(١) العرق.

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٨).

غزوة ذات الرقاع سنة ٧هـ

بعد أن فرغ النبي ﷺ من اليهود في خيبر، بلغه صلوات اللَّه وسلامه عليه اجتماع بعض قبائل العرب منها قبيلة أنمار، وبني ثعلبة، وبني محارب وكلهم من غطفان، فأسرع النبي ﷺ في الخروج إليهم في أربعمئة من أصحابه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

وهذه الغزوة تسمى بذات الرقاع. وأكثر أهل العلم يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة والذي يظهر - واللَّه العالم - أنها في السنة السابعة وذلك أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ذكر أنه كانْ موجوداً في هذه المعركة، وهو لم يأت إلا زمن خيبر مع الأشعريين .

وكذلك الأمر بالنسبة لأبي هريرة. أخرج البخاري(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه فنقبت أقدامنا(٢) ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا.

الله يحميه

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع فأتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ فنزل الرسول ﷺ، فتفرق الناس في العضاة(٣)

---

(١) رواه البخاري (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦).
(٢) تورمت وجرحت.
(٣) في أماكن النبت.

يستظلون بالشجر، ونزل رسول اللَّه ﷺ تحت شجرة فعلّق فيها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول اللَّه ﷺ ثم قال: أتخافني؟ قال صلوات اللَّه وسلامه عليه [الذي سمع قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]]، لا.

قال: فمن يمنعك مني؟ قال: اللَّه.

قال جابر: فإذا رسول اللَّه ﷺ يدعونا فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال: فمن يمنعك مني؟ قلت: اللَّه».

فإذا هو ذا جالس ثم لم يعاتبه صلوات اللَّه وسلامه عليه(١).

وفي رواية أخرى عند أبي عوانة أن النبي ﷺ لما قال له: «اللَّه يمنعني منك» سقط السيف من يد الأعرابي فأخذه رسول اللَّه ﷺ فقال له: من يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كن خير آخذ.

فقال النبي ﷺ: تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه»؟ قال الأعرابي: أعاهدك ألّا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

قال: فخلى سبيله، فجاء الأعرابي إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

[لاشك أنه خير الناس صلوات اللَّه وسلامه عليه: إيماناً باللَّه، توكلًا، ثقةً، ثم بعد ذلك كله العفو عند المقدرة].

وهذا الأعرابي اسمه غورث بن الحارث.

---

(١) رواه البخاري (٤١٣٦)، وأحمد (٣/ ٣٦٥) واللفظ له.

سمحاً إذا اشترى

وفي هذه الغزوة روى لنا جابر بن عبداللّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قصة أخرى قال[١] : خرجت مع رسول اللّه ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع، من نخل[٢] على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول اللّه ﷺ من هذه الغزوة جَعَلَتْ الرفاق تمضي وجَعَلْتُ أتخلف، حتى أدركني رسول اللّه ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول اللّه أبطأ بي جملي هذا، قال: أنخه.

قال: فأنخته، وأناخ رسول اللّه ﷺ ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك أو اقطع عصا من شجرة قال: ففعلت.

فأخذها رسول اللّه ﷺ فنخسه بها نخسات[٣]، ثم قال: اركب.

قال: ركبت فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة[٤] قال: وتحدثت مع رسول اللّه ﷺ فقال: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قال: بل أهبه لك.

قال: لا، ولكن بعْنِيه، قال: قلت فَسُمْنِيْه[٥]؟ فقال رسول اللّه ﷺ: قد أخذته بدرهم.

قال جابر: لا، إذاً تغبنني يا رسول اللّه.

قال: فبدرهمين.

قال: قلت: لا.

---

(١) رواه الأحمد (٣/ ٣٧٦).
(٢) من منطقة نخل.
(٣) ضربه ضرباً خفيفاً.
(٤) يقاربها.
(٥) قل السعر.

فلم يزل رسول اللَّه ﷺ يرفع لي حتى بلغ أوقية فقلت: قد رضيت، هو لك يا رسول اللَّه.

قال صلوات اللَّه وسلامه عليه: أخذته.

قال جابر: ثم قال رسول اللَّه: يا جابر هل تزوجت؟ قال: قلت: نعم يا رسول اللَّه.

قال: أثيباً أم بكرا؟ قال: قلت: بل ثيباً.

قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ [وهذا يبين لنا أن الأفضل أن يتزوج بكراً إن تيسر له ذلك]، قال: قلت: يا رسول اللَّه إنَّ أبي أصيب يوم أحد وترك بناتاً لي سبعاً، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن فتقوم عليهن [وهذا من الإيثار لأنه آثر أخواته على نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، فقال له النبي ﷺ: أصبت إن شاء اللَّه، أما إن لو جئنا صراراً[1] أمرنا بجزورٍ فنحرت فأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها[2] قال: فقلت: واللَّه يا رسول اللَّه ما لنا نمارق. قال: إنّها ستكون فإذا أنت قدمت فاعمل عملًا كيساً.

فلما أمسى رسول اللَّه ﷺ دخل ودخلنا، قال: فحدثت المرأة الحديث وما قال لي رسول اللَّه ﷺ قالت: فدونك فسمعٌ وطاعة، فلمّا أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول اللَّه ﷺ ثم جلست في المسجد قريباً منه.

وخرج رسول اللَّه ﷺ فرأى الجمل فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول اللَّه هذا جمل جاء به جابر.

---

(١) اسم لمكان.

(٢) وزعت الوسائد.

قال: فأين جابر؟ فدُعيت له.

فقال لي: يا ابن أخي، خذ برأس جملك فهو لك، ثم دعا بلالًا فقال: اذهب بجابر فأعطه أوقية قال: فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيرا.

قال: فواللَّه مازال ينمي عندي ويُرى مكانه من بيننا حتى أُصيب أمس فيما أُصيب لنا(١) وفي رواية أن جابراً اشترط على النبي ﷺ أن يركبه إلى المدينة.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة فمنها:

أولًا: أن النبي ﷺ اشترى الجمل من جابر فساومه وأرضاه بالسعر، وفيه جواز المساومة.

ثانياً: أن النبي ﷺ من أرفق الناس بأصحابه، وذلك أنه تأخر حتى أدركه جابر بن عبداللَّه.

ثالثاً: فيه حب الصحابة للنبي ﷺ، وذلك عندما قال النبي ﷺ لجابر: بعنيه فقال جابر: بل أهبه لك.

رابعاً: استحباب الزواج من البِكر، كما أمر النبي ﷺ جابراً بذلك.

خامساً: فيه جواز الزواج بالثيب كذلك.

سادساً: بيان كرم النبي ﷺ، وذلك أنه بعدما اشترى البعير ردّه إلى جابر رضي الله عنه هبة.

سابعاً: أن جابر بن عبداللَّه اشترط على النبي ﷺ لما اشترى منه الجمل أن يركبه إلى أن يصل به إلى المدينة، واستدل أهل العلم بهذا على جواز الاشتراط أي بيع وشرط. واللَّه أعلم.

---

(١) يعني يوم الحرة سنة ٦٣هـ.

مواقف وعبر

* أرصد رسول اللَّه ﷺ رجلين ربيأة للمسلمين[1] وهما عبّاد بن بشر وعمّار بن ياسر، فنام عمّار وجلس عبّاد يصلي، فجاء رجل من المشركين ورمى عبّاداً وهو يصلي، فنزعه واستمر في صلاته، فرشقه بسهم آخر فنزعه واستمر في صلاته، فرماه بالثالث فلم ينصرف حتى سلّم رضي الله عنه، فأيقظ صاحبه فلما رآه قال: سبحان اللَّه هلّا نبهتني.

قال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها، [والمشهور أنه كان يقرأ سورة الكهف].

* وفي هذه السنة استعمل رسول اللَّه ﷺ رجلًا من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوه، فأغضبوا أميرهم فقال لهم: اجمعوا لي حطباً. فجمعوا له.

فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوا.

ثم قال: ألم يأمركم رسول اللَّه ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى.

قال: فادخلوها.

[وهذا أمر عجيب جداً لأنه فهم أنه طالما أن النبي ﷺ أمرهم بالسمع والطاعة له إذاً يطيعونه في كل شيء حتى لو كان في معصية اللَّه تبارك وتعالى].

(١) يحرسان النبي ﷺ وأصحابه.

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول اللَّه ﷺ هرباً من النار لا لكي نسقط فيها.

قال: فسكن غضبه.

فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا ذلك فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة بالمعروف»[(١)].

* * *

(١) البخاري (٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠).

عمرة القضاء سنة ٧هـ

مرّ بنا أن النبي ﷺ وأصحابه صُدوا عن المسجد الحرام حتى تمّ صلح الحديبية، قال أبو عبد اللّه الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية فخرجوا إلا من استشهد بين هذه وهذه.

فكانت عدة النبي ﷺ ومن معه ألفين سوى النساء والصبيان، وساق معه صلوات اللّه وسلامه عليه ستين بَدَنة[(١)]، وأحرم من ذي الحليفة وخرج مستعداً بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش الغدر، فلما بلغ يأجج[(٢)] وضع الأدوات كلها[(٣)] والحَجَفَ والمِجانّ[(٤)] والنبل والرماح، وخلّف عليها أوس بن خولة الأنصاري في مئتي رجل، ودخل صلوات اللّه وسلامه عليه بسلاح الراكب والسيوف في القِرَب[(٥)]، وكانت قريش قد بعثت مِكرَز بن حفص في نفرٍ من قريش فقال له: يا محمد ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر تدخل بالسلاح في الحرم على قومك؟! وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر فقال النبي ﷺ: إني لا أدخل عليهم السلاح فقال مكرز: هذا الذي تعرف به البرُّ والوفاء. [وهذه شهادة من أحد أعداء النبي ﷺ له، وهي شهادات تترى وهي كثيرة: شهدوا له بالصدق، والأمانة، والبر، والوفاء].

(١) ناقة.
(٢) اسم مكان.
(٣) وضع السلاح.
(٤) التروس وما شابهها.
(٥) في أغمادها.

وكان رسول اللَّه ﷺ عند الدخول راكباً على ناقته القصواء، فخيله ونوقه والحمير والبغال كلها كان يسميها.

فمن خيل النبي ﷺ ما جُمع في بيت شعر:

والخيل سكبٌ لُحَيْفٌ سَبْحَةٌ ضَرِبٌ لِزازٌ مُرْتَجِزٌ وَردٌ لها أسرار(١)

أما من البغال فكان عند النبي ﷺ بغلة سماها دُلْدُلْ وله من الحمير عُفير وله من الإبل القصواء، والعضباء وهذه الناقة لها قصة مشهورة وذلك أنها كانت سريعة لا تُسبق فجاء أعرابي فسابقها بناقته فَسَبقَها فشقّ ذلك على المسلمين فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن حقاً على اللَّه ألا يرفع من الدنيا شيئاً إلا وضعه».

دخل النبي ﷺ راكبا على ناقته القصواء والمسلمون متوشحو السيوف محدقون(٢) برسول اللَّه ﷺ يُلَبُّون، وخرج المشركون من مكة إلى جبل في شمال مكة يقال له قعيقعان وقال بعضهم لبعض: يقدم عليكم وفدٌ وهنتهم حُمَّى يثرب، فالنبي ﷺ كأنه بلغه هذا أو استشعره، فأمر أصحابه أن يرسلوا الأشواط الثلاثة الأولى(٣) وأن يمشوا ما بين الركنين، لأن أهل مكة يرونهم إذا طافوا من الحجر إلى الركن اليماني أما بين الركن اليماني، والحجر فلا يرونهم، وذلك أن النبي ﷺ كان يحب مكايدة قريش، وصار الرمَل بعد ذلك سنة ليس فقط في عمرة القضاء بل سنة دائمة لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه لما حج رمل ولكن في البيت كله.

دخل النبي ﷺ مكة وعبد اللَّه بن رواحة بين يدي النبي ﷺ وكان شاعره،

---

(١) هذه الأسماء لها أسرار.
(٢) ملتمون.
(٣) يرملوا وهو المشي السريع.

وشعراء النبي ﷺ ثلاثة وهم: حسان بن ثابت، كعب بن مالك، وعبداللَّه بن رواحة.

فكان عبداللَّه بن رواحة متوشحاً سيفه يقول:

خلّوا بَنِي الكفار عن سبيله　　خلّوا فَكُلُّ الخير في رسوله
قد أَنْزَل الرحمنُ في تنزيله　　في صُحُف تتلى عَلى رسوله
يا ربِّ إني مؤمنٌ بِقِيلِهِ　　إني رأيتُ الحَقَّ في قَبُوله
بأن خيرَ القتلِ في سبيلهِ　　اليومَ نَضْرِبُكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهامَ عن مقيله　　ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

وجاء عمر فقال: يا ابن رواحة بين يدي رسول اللَّه ﷺ وفي حرم اللَّه تقول الشعر! فقال له النبي ﷺ: خلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[١] [أي هذا الشعر أشد عليهم من النبال].

فلما رمل النبي ﷺ ثلاثة الأشواط الأولى ومن معه ورآهم المشركون قالوا: هؤلاء قد زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟! فهؤلاء أجلد من كذا وكذا.

لما فرغ من السعي وكان قد جعل الهدي الذي ساقه ﷺ[٢] عند المروة قال: هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر فنحر عند المروة وحلق هناك ﷺ.

وأقام رسول اللَّه ﷺ في مكة ثلاثاً فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك أخرج عنّا فقد مضى الأجل وذلك، لأنهم اتفقوا مع النبي ﷺ أنه يعتمر لمدة ثلاثة أيام فخرج النبي ﷺ ونزل في سَرِف[٣] وأقام فيها.

---

(١) الستين بدنة.
(٢) الترمذي (٣٠٨٤) نحوه.
(٣) مكان قريب من مكة.

الخالة بمنزلة الأم

لما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة تبعته ابنة حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ واسمها عمارة.

وتناديه: يا عم يا عم، [وهنا قولها لنبي اللَّه ﷺ يا عم وهي ابنة عمه لأنه عمها من الرضاعة، حيث إن النبي ﷺ أرضعته فهيرة مولاة أبي لهب وكذلك أرضعت حمزة، وإما نادته كذلك لفارق السن بينها وبين النبي ﷺ) وكان حمزة هاجر من مكة وترك ابنته مع أمها، فتناولها علي رضي الله عنه ثم اختصم فيها مع جعفر وزيد بن حارثة كل منهم يريد أن يربيها، فحكم النبي ﷺ بينهم وقال لعلي: أنت مني وأنا منك.

وقال لجعفر: أشبهت خَلْقِي وخُلُقي.

وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه(١).

ولكن النبي ﷺ قضى فيها لجعفر بن أبي طالب، فعلي طالب بها لأنه ابن عمها وزوجته فاطمة بنت عمها، وزيد طالب بها لأنه آخى النبي ﷺ بينه وبين حمزة في المدينة وهما يتوارثان قبل أن تنزل أحكام المواريث.

أما جعفر فهو ابن عمها وزوجته أسماء بنت عُمَيْس خالتها لأن أمها سلمى بنت عميس أخت أسماء.

وقال الرسول ﷺ: الخالة بمنزلة الأم.

وذلك أن الرجل لا يجوز له أن يجمع بين البنت وخالتها فحكم بها لجعفر.

---

(١) (٢٦٩٩).

وقد قيل للنبي ﷺ: ألا تتزوجها (أي بنت حمزة)؟ قال: لا، إنها ابنة أخي من الرضاعة.

الزواج من ميمونة

في هذه العمرة تزوج النبي ﷺ ميمونة بنت الحارث العامرية رضي الله عنها، وهي خالة عبداللَّه بن عباس، وخالة خالد بن الوليد.

فبنى بها النبي ﷺ بسَرِف وهذا هو الصحيح ولم يتزوجها وهو محرم كما جاء في بعض الروايات، وقدّر اللَّه تبارك وتعالى أن تموت ميمونة أم المؤمنين بِسَرِف في المكان الذي تزوجها فيه النبي ﷺ.

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء لأنها عبارة عن مقايضة (أي مصالحة) بين قريش والنبي ﷺ فلما اتفقت قريش على أن يأتي النبي ﷺ في السنة القادمة صارت هذه العمرة تسمى بعمرة القضاء.

وقيل سميت كذلك لأنها كانت بدل أو قضاءً عن عمرة الحديبية.

بعد هذه العمرة أسلم رجلان كان لهما أثر في الإسلام بعد ذلك ألا وهما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.

إسلام خالد بن الوليد

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: لما أراد اللَّه بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حب الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها

على محمد فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإني أُرى في نفسي أني مُوْضَع في غير شيء وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول اللَّه ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول اللَّه وأصحابه بعُسفان(١) فقمت بإزائه وتعرضت له(٢) فصلى الرسول ﷺ بأصحابه آمناً منّا، فهممت أن أغير عليه وهو في الصلاة ثم لم يُعزَم لنا(٣) ولقد كانت فيه خِيرة.

فاطّلع على ما في أنفسنا من الهَمِّ به، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منّي موقعاً فقلت: الرجل ممنوع، ثم افترقنا وعدل عن سَنَنِ خيلنا وأخذت ذات اليمين، فلما صالح قريشاً في الحديبية ودافعته قريش بالراحة(٤) قلت في نفسي: أي شيء باقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية فأقيم مع عجم تابعاً، أو أقيم في داري فمن يبقى؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول اللَّه ﷺ في عمرة القضية وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتاباً [وفي هذا الكتاب خير عظيم] فلما قرأت الكتاب فإذا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلُك عقلُك، ومثل الإسلام جهِلَه أحد؟ وقد سألني رسول اللَّه ﷺ فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتِ اللَّه به.

فقال: ما مثل خالدٍ جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجِدّه مع

(١) مكان قريب من مكة.
(٢) أريد القتال.
(٣) لم يقدّر اللَّه لنا.
(٤) منعته ﷺ وردته بالإقناع.

المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدَّمناه على غيره.

فاستدرك يا أخي ما فاتك منه فقد فاتتك مواطن صالحة، [إي واللَّه.

فقد فاتته بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان والحديبية وخيبر].

قال خالد: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبةً في الإسلام وسرّني مقالة رسول اللَّه ﷺ، وأُرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة فخرجت إلى بلد أخضر وأوسع، فقلت: إنّ هذه لرؤيا. (فقدمت المدينة فقلت: لأذكرنّها لأبي بكر (يعني بعد إسلامه).

قال: فذكرتها له.

فقال: هو مخرجك الذي هداك اللَّه للإسلام والضيق الذي كنت فيه الشرك.

فلما أجمعت أن أذهب إلى النبي ﷺ قلت: من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس[1] وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد فاتبعناه، فإن شرف محمد شرف لنا، فأبى أشد الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبداً.

فافترقنا، فقلت: هذا رجل موْتُور، يطلب وتراً، قُتل أبوه وأخوه ببدر.

قال خالد: فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثلما قلت لصفوان فقال لي مثلما قال صفوان.

قلت: فاطوِ ما ذكرت لك.

(١) عدد قليل لو أكلناها.

قال: لا أذكره.

فخرجت بعدها إلى منزلي فأمرت براحلتي تُخْرَج إليّ إلى أن ألقى عثمان ابن طلحة فقلت: إن هذا لي لصديق ولو ذكرت له ما أريد، ثم ذكرت من قُتل من آبائه، فكرهت أُذَكِّرَه.

ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل في ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صُبَّ عليه ذَنوب من ماء خرج، كما قلت له نحو ما قلت لصاحبي.

فأسرع الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بِفَخٍّ مُنَاخَة[١].

فابتعدت أنا وهو بيأجُج[٢] إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت، فأدلجنا سُحرة[٣] فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج فغدونا حتى التقينا بالهدة[٤]، فنجد عمرو بن العاص بها، فقال: مرحباً بالقوم.

قلنا: وبك.

قال: أين مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام، واتباع محمد ﷺ.

قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحرة وأُخبِر بنا

(١) مكان قريب من مكة.
(٢) المكان نفسه الذي وقف فيه النبي ﷺ لما ذهب إلى عمرة القضاء.
(٣) آخر الليل.
(٤) مكان بعد يأجج.

رسول اللَّه ﷺ فسرّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول اللَّه ﷺ فلقيني أخي [أي الوليد]، قال: أسرع، فإن رسول اللَّه ﷺ قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم.

فأسرعت المشي، فطلعت فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة(١).

فردّ عليّ السلام بوجه طِلقٍ.

فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأنك رسول اللَّه.

فقال رسول اللَّه ﷺ: الحمد للَّه الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلًا، ورجوت ألا يُسْلِمَكَ إلا إلى خير.

قلت: يا رسول اللَّه، قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادعُ اللَّه يغفرها لي.

فقال رسول اللَّه ﷺ: الإسلام يجبُّ ما كان قَبلُه.

قلت يا رسول اللَّه: على ذلك [أي أيضاً ادعُ لي] فقال: اللَّهم اغفر لخالد ابن الوليد كلما أوضع من صدٍ عن سبيلك.

قال خالد: وتقدّم عمرو وعثمان فبايعا رسول اللَّه ﷺ وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ من الهجرة.

---

(١) قلت السلام عليك يا نبي اللَّه.

إسلام عمرو بن العاص

قال عمرو بن العاص: لما انصرفنا من الخندق جمعت رجالًا من قريش وقلت: واللَّه إن أمر محمد يعلو علواً منكراً واللَّه ما يقوم له شيء، وقد رأيت رأياً.

قالوا: وما هو؟ قال: أن نلحق بالنجاشي على حاميتنا، فإن ظفر قومنا فنحن من قد عرفوا نرجع إليهم، وإن يظهر محمد فنكون تحت يدي النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد.

قالوا: أصبت.

قلت: فابتاعوا له الهدايا، وكان من أعجب ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم(١).

فجمعنا له أدماً كثيراً وقدمنا عليه فوافقنا عنده عمرو بن أمية الضمري قد بعثه النبي ﷺ في أمر جعفر وأصحابه الذين كانوا في الحبشة، فلما رأيته قلت لعلّي أقتله، وأدخلت الهدايا على النجاشي.

فقال النجاشي: مرحباً وأهلًا بصديقي.

فقال عمرو: أيها الملك، إني رأيت رسول محمد عندك، وهو رجل قد وترنا، وقتل أشرافنا، فأعطِنيه أضرب عنقه.

فغضب النجاشي، وضرب أنفه ضربةً، ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها.

فقلت للنجاشي: لو ظننت أنك تكره هذا لم أسألك.

---

(١) الجلود.

فقال لي: سألتني أن أعطيَك رسول رجلٍ يأتيه الناموس[١] الذي كان يأتي موسى الأكبر تقتله؟! قلت: وإنّ ذاك لكذلك؟ قال: نعم. هو كذلك.

ثم قال النجاشي لعمرو بن العاص: واللَّه، إني لك ناصحٌ فاتبعه، واللَّه ليظهرنّ كما ظهر موسى وجنوده.

قلت: أيها الملك، فبايعني أنت له على الإسلام.

فقال: نعم. فبسط يده، فبايعته لرسول اللَّه ﷺ على الإسلام.

وخرجت على أصحابي، وقد حال رأيي[٢].

فقالوا: ما وراءك؟ قلت: خير.

فلما أمسيت جلست على راحلتي وانطلقت وتركتهم، فواللَّه، إني لأهوي إذ لقيت خالد بن الوليد بالهدة هو وعثمان بن طلحة، فقلت: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: أذهب واللَّه أُسلِم، إنه واللَّه قد استقام المَيْسَم[٣]، إن الرجل لنبي ما أشك فيه.

فقلت: وأنا واللَّه.

فقدمنا المدينة، فقلت: يا رسول اللَّه أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي.

فقال لي: يا عمرو، بايع فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله.

❋ ❋ ❋

---

(١) جبريل عليه الصلاة والسلام.
(٢) غيرت رأيي.
(٣) وضح الأمر.

معركة مؤتة سنة ٨هـ

أعظم حرب مخيفة خاضها المسلمون في حياة رسول اللّه ﷺ، وكانت في أول السنة الثامنة من الهجرة في جمادى الأولى، قريباً من بيت المقدس بثمانين كيلو متراً.

سبب هذه المعركة أن رسول اللّه ﷺ بعث الحارث بن عمير بكتابه إلى عظيم بُصرى، فعرض له في الطريق شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر، فأخذه وأوثقه ثم قدمه فضرب عنقه.

والأصل في ذلك إن هذا رسول والرسل لا تقتل مهما كان.

عند ذلك جهّز إليهم النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهذا أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبله مثله إلا في الأحزاب قريباً من هذا العدد، وأمّر رسول اللّه ﷺ على هذا الجيش زيد بن حارثة وقال: «إن قُتل زيد فجعفر وإن قُتل جعفر فعبد اللّه بن رواحة». وعقد لهم لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة ويُسمى بعث الأمراء (لأنه رَتَّب فيه ثلاثة أمراء)، ثم أوصاهم صلوات اللّه وسلامه عليه بما كان يوصي به الجيوش إذا خرجت.

عن بريدة قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا أمّر أميراً على جيشٍ أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللّه ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم اللّه، في سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، اغزوا ولا تغلوا[1]، ولا

(١) لا تأخذوا شيئاً من الغنيمة قبل تقسيمها.

تغدروا، ولا تمثلوا[١]، ولا تقتلوا وليدا، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهنّ ما أجابوك فأقبل منهم وخُفّ عنهم: [فهذا يبين أن النبي ﷺ ليس حريصاً على القتال ولكنه يُضطر إليه اضطراراً]:

الأولى: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين[٢]، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن رفضوا أن يتحولوا منها (أي أن يهاجروا) فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين[٣]، يجري عليهم حكم اللَّه الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، [لأنهم رفضوا الهجرة، والفرق بين الغنيمة والفيء، الغنيمة التي تؤخذ من قتال الكفار، والفيء الذي يؤخذ من الكفار من غير قتال] ولا يكون لهم شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

الثانية: إن هم أبوا، فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.

الثالثة: إن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم.

فإن حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة اللَّه ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك، وذمة أصحابك، فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة اللَّه وذمة رسوله.

وإن حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم اللَّه، فلا تنزلهم على حكم اللَّه ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم اللَّه

---

(١) تشويه القتلى من قطع الأيدي أو الآذان أو ما شابه ذلك.
(٢) في حال إسلامهم أن يهاجروا إلى المدينة وهذا كان قبل فتح مكة.
(٣) البادية.

فيهم أم لا[١].

وليس في هذا أي تعارض مع قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فنحن لا نقاتل الناس للدخول في الإسلام، ولكن نقاتل إذا رفضوا الإسلام ورفضوا الجزية فالقتال وسيلة وليس غاية.

ولكن لماذا يدفع الجزية؟ لابد أن نعلم أن الأرض للَّه، فإذا كان الأمر كذلك فإن اللَّه إنما خلق الناس على هذه الأرض ليعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فرفض كثير من الناس أن يعبدوا اللَّه، وسكنوا في أرضه، فأرسل اللَّه عباداً له، وأمرهم أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن رفضوا فالجزية، فإن رفضوا أمرهم أن يقاتلوا أولئك القوم الذين جلسوا في أرضه وامتنعوا عن الدخول في دينه، وعبادته سبحانه وتعالى، وامتنعوا عن دفع الجزية.

تهيأ الجيش الإسلامي للخروج، وأوصاهم النبي ﷺ، وسلم عليهم، وعند ذلك بكى أحد قادة الجيش، وهو عبد اللَّه بن رواحة رضي الله عنه، فقالوا: ما يبكيك؟ قال: أما واللَّه ما لي حب للدنيا، ولا صبابة بكم[٢]، ولكني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقرأ آية من كتاب اللَّه يذكر فيها النار قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١] فكيف لي بالصدر[٣] بعد الورود؟.

ودّعهم النبي ﷺ وودّعهم أصحابه الذين بقوا معه في المدينة، هنا قال عبد اللَّه بن رواحة:

---

(١) رواه مسلم (٣/١٧٣١).
(٢) غير حريص أن أجلس معكم.
(٣) الخروج.

لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً وضربةً ذات فَدْغ تَقْذِفُ الزبدا
أو طعنةً بِيَدَيْ حَرّان مُجْهِزةً بحَرْبة تنفذُ الأحشاءَ والكبدا
حتى يُقال إذا مَرُّوا على جَدَثي[١] أَرْشَدَ اللَّه من غازٍ وقد رشدا

تحرك الجيش حتى نزل منطقة يقال لها مِعان من أرض الشام، فوصلتهم الأخبار أن هرقل نزل بمنطقة يقال لها مآب في أرض البلقاء، في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم مئة ألف من نصارى العرب، المسلمون لم يتوقعوا أبداً أن يخرج لهم جيش بهذه الضخامة، فجلسوا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم ويتشاورون، فقالوا: نكتب إلى رسول اللَّه، فنخبره بعدد عدونا، إما أن يمدّنا برجال وإمّا أن يأمرنا فنمضي.

فقال عبد اللَّه بن رواحة: يا قوم، واللَّه إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون[٢]، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا اللَّه به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

فاستقر الأمر على قول عبداللَّه بن رواحة وما راسلوا النبي ﷺ، وذلك إن تلك الكلمة الملتهبة لعبد اللَّه أثرت فيهم تأثيراً عظيماً فاختفت من الصفوف مشاعر التردد وقرروا أن يواجهوا القوم رضي الله عنهم جميعاً.

لما دنا العدو من المسلمين انحاز المسلمون إلى مكان يقال له مؤتة، فعسكروا هناك وتعبأوا للقتال.

فالتقى الفريقان مئتا ألف مقابل ثلاثة آلاف، ولكنه الإيمان إذا هبّت رياحه جاء بالعجائب.

---

(١) على قبري.
(٢) الشهادة.

أخذ الراية زيد بن حارثة وجعل يقاتل بضراوة وبسالة، فلم يزل يقاتل حتى قُتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخرّ صريعاً.

وزيد هذا يقول سلمة بن الأكوع عنه: غزوت مع زيد تسع غزوات كان النبي ﷺ يأمّره علينا.

والنبي ﷺ يقول: دخلت الجنة فاستقبلتني جارية شابة، قلت: لمن أنت؟ قالت: لزيد بن حارثة(١).

بعدما استشهد زيد أخذ الراية جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصار يقاتل قتالًا شديداً حتى إذا أرهقه القتال قال:

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبةٌ بارد شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذابها
كافرةٌ بعيدة أنسابها
عليّ إن لاقيتها ضرابها

فصار يقاتل حتى نزل عن فرسه فعقرها، وهو أول من عقر فرسه في الإسلام، وأمسك الراية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقُطعت يمينه فأخذ الراية بشماله فقطعت شماله فاحتضن الراية بعضديه، فلم يزل رافعاً لها حتى قُتل، فأبدله اللَّه بجناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء.

ولذلك يقال له: جعفر الطيار.

وكان عبد اللَّه بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا سلم على ولده عبداللَّه يقول له: السلام

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٠) وقال الذهبي: إسناده حسن.

عليك يا ابن ذي الجناحين. أخرجه البخاري في صحيحه[١].

وكان يقال لجعفر كذلك أبو المساكين، وقد كان هاجر الهجرتين الحبشة والمدينة.

وأخرج البخاري[٢] في صحيحه عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أنه وقف على جعفر في مؤتة وهو قتيل فيقول: عددت به خمسين ما بين طعنة وضربة، ليس منها شيءٌ في دبره[٣].

وقد مات جعفر وعمره ثلاثٌ وثلاثون سنة.

ثم استلم الراية من بعد استشهاد جعفر رضي الله عنه عبد اللَّه بن رواحة، تقدّم بها فصار شيء من التردد فقال لنفسه يخاطبها:

أَقْسَمْتُ يا نفسُ لتنزِلِنّ
كارهةً أو لتطاوعنّ
إن أجلب الناسُ وشدوا الرنّه
ما لي أراكِ تكرهين الجنة

ثم نزل فأتاه ابن عمٍ له بعرقٍ من لحم[٤]، فقال: شُدّ بهذا صلبك.

فأخذه من يده، فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده وأخذ سيفه وتقدم وقاتل حتى قُتل والراية معه.

فتقدّم رجل من بني عجلان يقال له ثابت بن أرقم فأخذ الراية وقال: يا

(١) (٣٨٠٩)، (٤٢٦٤).
(٢) (٤٢٦٠).
(٣) كلها في صدره.
(٤) عظم فيه لحم.

معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم.

فلابد من أمير يأمر فيطاع، فقالوا: أنت.

فقال: ما أنا بفاعل.

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالًا شديداً.

أخرج البخاري(١) عن خالد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، ما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية.

وقد أخبر النبي ﷺ عمّا وقع، حيث كان جالساً على المنبر والصحابة حوله فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيون النبي ﷺ تذرفان من الدموع، [فهم ثلاثة من صحابته فزيد مولاه فكان يقال له زيد بن محمد، وجعفر ابن عمه، وعبداللَّه شاعره ومن كبار الخزرج].

قال النبي ﷺ: حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه حتى فتح اللَّه عليهم(٢).

وقد فتح اللَّه عليهم في هذه المعركة العظيمة بأنه لم يقتل من المسلمين إلا عدد قليل، والذين قتلوا من أهل الشام أكثر.

ولما أخذ خالد الراية صمد طوال النهار حتى أظلم الليل، فتوقف القتال، فقام بخطة عجيبة رضي الله عنه، أخذ الميمنة فجعلها ميسرة وأخذ الميسرة فجعلها ميمنة، والمقدمة مؤخرة وجعل المؤخرة مقدمة.

---

(١) (٤٢٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٢٦٢).

وقيل إنه أرسل مجموعة يثيرون الغبار من بعيد عند الفجر، فلما أصبح الناس، الروم على ما كانوا عليه، فالذين كانوا يقاتلون في الميمنة تغيرت عليهم الأوجه وكذلك الذين في الميسرة والمقدمة كما أنهم يرون غباراً من بعيد، فعلموا يقيناً أن المسلمين جاءهم مدد، فقالوا في أنفسهم: إذا كان العدد بذلك القلة ما استطعنا، فكيف وقد جاءهم المدد؟ عند ذلك تراجع الروم عن القتال فتراجع خالد، وانحازوا إلى بلادهم وانحاز خالد بمن معه إلى المدينة.

فهذا هو النصر، إنه استطاع أن ينقذ المسلمين من قتل محتّم.

وقد قُتل في هذه المعركة من المسلمين: زيد، جعفر، ابن رواحة، مسعود بن الأسود، وهب بن سعد ابن أبي السرح، عبّاد بن قيس، الحارث ابن النعمان، سراقة بن عمرو، أبو كليب، جابر بن عمرو، عمرو بن سعد بن الحارث، وعامر بن سعد بن الحارث، وعددهم اثنا عشر.

في هذه المعركة ظهرت شجاعة وبسالة بلغت حداً لم تعرفه أمة من الأمم، وهذه الروح الإيمانية التي كانت عندهم أعطتهم إقداماً عجيباً حقّر أمامهم كبرياء هذه الأمم التي كانت تُعْرف بالعدد والكثرة.

وكل هذا يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما عرفه الناس كلهم.

بعد هذه المعركة دخل في الإسلام بعض قبائل العرب، منهم: بنو سليم وأشجع وغطفان وفزارة.

رجع المسلمون إلى المدينة، ففرح المسلمون بقدومهم.

وأما الرواية التي تقول: إنهم لما رجعوا استقبلهم أهل المدينة يقولون

لهم: يا فُرّار، يا فُرّار.

فقال النبي ﷺ: بل هم الكرّار.

فهي رواية ضعيفة، لا تصح.

❊ ❊ ❊

غزوة ذات السلاسل سنة ٨هـ

أراد النبي ﷺ أن يؤدب بعض قبائل العرب التي شاركت الروم في قتالهم للمسلمين، فعقد النبي ﷺ لعمرو بن العاص لواءً أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمئة من سُراة أي كبار المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره بأن يستعين بمن مرّ به من قبائل: بِلا، وعذرا، وبلقين وهي قبائل عربية على الطريق.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث إلى رسول اللّه ﷺ يستمدّه، فأرسل إليه النبي ﷺ أبا عبيدة في مئتين وعقد له اللواء، وبعث معه أبا بكر وعمر، وأمرهم أن يلحقوا بعمرو بن العاص، وأن يكونوا جميعاً ولا يختلفوا.

فلما لحق أبو عبيدة بعمرو بن العاص اختلفا في الإمامة فقال عمرو: أنا القائد وأنت جئت مدداً.

فقال أبو عبيدة: كما تقول لئن عصيتني لأطيعنك.

فكان عمرو بن العاص هو القائد.

فدخل عمرو بلاد قضاعة فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقي جمعاً فقام عليهم بالسلاح فتفرقوا، ورجعوا بدون قتال فوضعوا شيئاً من الهيبة في قلوب الكفار.

وهذه ما تسمى بذات السلاسل، وهي بعيدة عن المدينة مسيرة عشرة أيام.

التيمم بسبب البرد

قال عمرو: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلِك، فتيممت.

ثمّ صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جُنُب؟!

قال: فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وإني سمعت اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك الرسول ﷺ ولم يقل شيئاً[١].

معزى حملت حتفها

وممن وفد على النبي ﷺ الحارث بن حسان البكري[٢].

قال الحارث: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي [والي البصرة] إلى رسول اللَّه ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت: يا عبد اللَّه، إن لي إلى رسول اللَّه حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها.

فأتيت المدينة فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق وبلال

(١) أبو داود (٣٣٤).
(٢) وفد الحارث على النبي في السنة الثامنة وإنما ذكر هنا لارتباطه بذكر الوفود.

متقلّد السيف بين يدي رسول اللَّه ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً[(١)]، قال: فجلست، فدخل منزله أو قال: رحله، فاستأذنت عليه.

فأذن لي، فدخلت، فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم.

وكانت الدائرة عليهم[(٢)]، ومررت بعجوز من بني تميم منقطعٌ بها، فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب فأذن لها، فدخلت.

فقلت: يا رسول اللَّه، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميمٍ حاجزاً فاجعل الدهناء، وفي رواية واجعل الدهناء لنا.

فحميت العجوز (أي غضبت)، واستوفزت.

وقالت: يا رسول اللَّه، أين يضطر مُضَرك؟ [أي أنت من مضر وتميم من مضر وهذا بكري من ربيعة فكيف تكون معه ضد مضر] فقال البكري: إن مثلي ومثلك مثل ما قال الأول: مِعْزَى حملت حتفها.

حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ باللَّه ورسوله أن أكون كوافد عاد.

قال: وما وافد عاد؟ فقال: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قيل.

فمرّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان.

فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة وقال: اللَّهم إنك تعلم لم آت إلى

(١) يرسله إلى ذات السلاسل.
(٢) غلبناهم.

مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللَّهم اسق عاداً ما كنت تسقيه.

فمرّت به سحابات سود، فنودي منها: اختر.

فأومى إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً، رمداً، لا تبقي من عادٍ أحداً.

قال: فما بلغني أنه أُرسل إليهم من الريح إلا بقدر ما يجري بخاتمي هذا حتى هلكوا. [أي إن هذا الرجل بدل من أن يطلب لهم المطر طلب لهم العذاب وهو لا يشعر].

* * *

فتح مكة سنة ٨ هـ

قال ابن القيم رحمه اللَّه تبارك وتعالى عن فتح مكة: هو الفتح الأعظم الذي أعز اللَّه به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدىً للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضُربت أطناب عزّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين اللَّه أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً. اهـ

هذا هو فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وكان سبب ذلك الفتح أن النبي ﷺ قد عقد صلح الحديبية مع كفار مكة، وكان من شروط ذلك الصلح أنه من أراد من قبائل العرب أن يدخل في حلف وعهد النبي ﷺ دخل، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش وعهدها دخل، فدخلت بنو بكر مع قريش في عهدها، ودخلت خزاعة مع النبي ﷺ في عهده.

وكان بين خزاعة وبني بكر ثأر في الجاهلية قبل أن يدخلوا في ذلك الحلف.

وقصته: أن رجلًا يقال له مالك بن عبّاد كان حليفاً لآل الأسود بن رزين من بني بكر، خرج فلما توسط أرض خزاعة عدى عليه أهل خزاعة فقتلوه، وأخذوا ماله، وذلك قبل الإسلام بمدة، عند ذلك عدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فقامت خزاعة وعدت على ثلاثة من بني بكر فقتلوهم، فلما جاء الإسلام حجر بين الفريقين، وانشغلوا به عن أنفسهم وثأرهم، ولكن بني بكر مازال لهم ثأر عند خزاعة، فلما تمّ الصلح ودخلت خزاعة في عهد النبي ﷺ وبنو بكر في عهد قريش، اغتنمت بنو بكر فرصة أن خزاعة

آمنة منهم وأرادوا أن يصيبوا ثأرهم القديم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر، وذلك في شهر شعبان من السنة الثامنة من الهجرة، فأغاروا على خزاعة ليلًا، وكان لخزاعة ماء يقال له الوتير فأصابوا منهم رجالًا، وتناوشوا واقتتلوا فقامت قريش وأعانت بني بكر بالسلاح، وقاتل رجال من قريش كذلك في ظلمة الليل مع بني بكر ضد خزاعة، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وذلك أن خزاعة ما كانت متأهبة لحرب، فلما انتهوْا لهذا المكان الحرام، قالت بنو بكر لقائدهم: يا نوفل إنّا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك [أي يُحرم عليك أن تقاتلهم في الحرم].

فقال نوفل (قبّحه اللَّه): لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه.

فدخلت خزاعة إلى مكة ولجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي وإلى دار مولى لهم يقال له رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة إلى رسول اللَّه ﷺ، فلمّا دخل على رسول اللَّه ﷺ في المسجد قال:

يا ربّ إني ناشدٌ محمدا
حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمُ ولداً وكنا والدا
ثَمَّتَ أسلمنا ولم نَنْزع يدا
فانصرْ هداكَ اللَّهُ نصراً أيِّدا؟
وادعُ عباد اللَّه يأتوا مددا
فيهم رسول اللَّه قد تجردا
أبيضُ مثلُ البدرِ يسمو صعدا

إن سِيم خسفاً وجهُهُ تَرَبَّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مُزْبِدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كَدَاء رَصَدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بَيَّتونا بالوتير هُجَّدا
وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

عندها قال رسول اللَّه ﷺ: نُصرت يا عمرو بن سالم.

(هذه القصة في إسنادها ضعف، ولكن أهل السير اتفقوا على ذكرها، وليس كل شيء في السيرة يوجد له إسناد صحيح، ولذلك ذكر أهل العلم أن السيرة مما يتسامح فيها، وكل ما ليس فيه أحكام ولا اعتقادات).

أحست قريش بسوء فعلها وبغدرها ، فاضطرّت أن تبعث أبا سفيان قائدها ممثلًا لها ليقوم بتجديد العقد مع النبي ﷺ، وذلك ليعيد للعقد المهدر حرمته.

موقف إيماني

قدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول اللَّه ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنيّة أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ [أي هل أبعدت الفراش إكراماً لي أم أبعدتيه إكراماً للفراش عني] فقالت: بل هو فراش الرسول ﷺ، وأنت رجل مشركٌ نجس.

فقال: واللَّه لقد أصابك بعدي شر. وهذه القصة إسنادها ضعيف، ولكن لا يبعد أن تكون قد وقعت.

ثمّ خرج أبو سفيان من عند ابنته حتى أتى رسول اللَّه ﷺ فكلمّه، فلم يرد النبي ﷺ عليه شيئاً، فذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلّم رسول اللَّه ﷺ فقال: ما أنا بفاعل.

ثمّ أتى عمر بن الخطاب فكلّمه فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول اللَّه؟ واللَّه لو لم أجد إلا الذَر(١) لجاهدتكم به.

ثمّ جاء أبو سفيان ودخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة فقال: يا علي، إنك أمس الناس بي رحماً [وذلك أن علي بن أبي طالب وأبا سفيان والرسول ﷺ يلتقون في الجد الرابع عبد مناف] وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد.

فقال علي: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول اللَّه ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه. [فهذا أدب علي رضي الله عنه مع رسول اللَّه ﷺ].

فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة وقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا أي الحسن رضي الله عنه فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: واللَّه ما يبلغ ابني ذلك أن يجير بين الناس، [ثمّ تأتي الكلمة الطيبة التي قالتها فاطمة رضي الله عنها] وما يجير أحد على رسول اللَّه ﷺ.

فلما يئس أبو سفيان قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني.

---

(١) النمل الصغير الأصفر.

فقال علي: واللَّه ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة[١] فقمْ، فأَجِرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال: أوَ ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا واللَّه ما أظنّ، ولكني لا أجد غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فواللَّه ما رد عليّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أدنى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار عليّ شيئا فصنعته، فواللَّه ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت.

فقالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا.

قالوا: ويلك، إن زاد الرجل أن لعب بك.

قال: لا واللَّه ما وجدت غير هذا.

عند ذلك أمر النبي ﷺ الناس بالجهاز وأعلمهم أنه سائر إلى مكة صلوات اللَّه وسلامه عليه، وقال: اللَّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

---

(١) قريشاً.

كل ابن آدم خطاء

حاطب بن أبي بلتعة أحد أصحاب النبي ﷺ وقع منه خطأ كبير، كتب إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول اللَّه ﷺ إليهم، ثمّ أعطاه امرأة يقال لها سارة وجعل لها جُعلًا(١) على أن تبلغه قريشاً فجعلته في قرون رأسها(٢)، وأتى رسولَ اللَّه ﷺ الخبُر من السماء بما صنع حاطب، فبعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو خلف هذه المرأة وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ(٣) فإن بها ضعينة معها كتاب إلى قريش، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة بذلك المكان الذي أخبر به النبي ﷺ، فأوقفوها وقالوا لها: أمعك كتاب؟ قالت: ما معي كتاب.

ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً، فقال لها علي رضي الله عنه: أحلف باللَّه ما كُذب رسول اللَّه ﷺ ولا كُذبنا، واللَّه لتخرجنّ الكتاب أو لَنُجَرِّدَنَّك الثياب.

وهذا جائز وذلك أن الأمر إذا كان بهذا الخطورة وعلموا يقيناً كما هو الخبر من النبي ﷺ، جاز لهم أن يجردوها من ملابسها إذا تحتّم الأمر.

وإن كانت هذه مفسدة ولكن المفسدة التي تأتي من أخذها الكتاب أعظم.

ومن القواعد الشرعية دفع أعظم المفسدتين إذا كان لابد من الوقوع في إحداهما.

فلما رأت الجِد من علي قالت: أعرض(٤)، فأعرض فحلّت قرون رأسها

---

(١) مالًا.
(٢) ضفائرها.
(٣) مكان.
(٤) صد عني.

وأخرجت الكتاب، فدفعته إليه.

فأتى به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير الرسول ﷺ، فدعا رسول اللَّه ﷺ حاطباً فقال: ما هذا يا حاطب؟! فقال: لا تعجل عليّ يا رسول اللَّه واللَّه إني لمؤمن باللَّه ورسوله، وما ارتددت وما بدلت، ولكني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ولست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. [اعتذر حاطب، ما العذر؟ قال: لي أولاد وأقارب في مكة وأنا لست من أهل مكة فأخشى على أولادي وقرابتي الذين هم هناك، فإذا علمت قريش أني أرسلت هذا الكتاب قد لا يضرون قرابتي ولا يؤذونهم]، وفي رواية: وقد علمت أن اللَّه إذا أراد أمراً أمضاه [أي هذا الكتاب لا يقدم ولا يؤخر]، عند ذلك قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: يا رسول اللَّه دعني أضرب عنقه فإنه قد خان اللَّه ورسوله، وفي رواية إنه قال: يا رسول اللَّه إن حاطباً قد نافق.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «إنه قد شهِد بدراً، وما يدريك يا عمر لعل اللَّه قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

فذرفت عينا عمر رضي الله عنه فقال: اللَّه ورسوله أعلم. اهـ

(إن حاطب بن أبي بلتعة شفع له ماضيه وذلك أنه كان ذا سابقة مع رسول اللَّه ﷺ، فقد شهد بدراً وأحداً والخندق وغيرها من المشاهد مع النبي ﷺ وهاجر وترك الأهل والأولاد في سبيل اللَّه، فهذه الغلطة مما غفر اللَّه له مقابل ذلك الأمر العظيم الذي قدمه للَّه ورسوله).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤).

وفي قول عمر رضي الله عنه إنه قد نافق يقول ابن القيّم: إن المسلم إذا نسب أخاه المسلم إلى النفاق والكفر متأولًا وغضباً للّه ورسوله ودينه لا لهواه فإنه لا يكفر بذلك بل لا يأثم به بل يثاب على نيته وقصده، وفي حاطب نزل قول اللّه تبارك وتعالى: بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ١ - ٣] بيّن اللّه تبارك وتعالى الحق الذي يجب أن يلتزمه المسلمون في حياتهم.

انطلاقة الجيش

تحرك جيش النبي ﷺ في شهر رمضان بعد عشرة أيام منه من المدينة إلى مكة شرفها اللّه تبارك وتعالى، وذلك في عشرة آلاف من أصحابه رضي الله عنهم، وكان من بني سليم ألف، ومن مزينة ألف، ومن غفار أربعمئة، ومن أسلم أربعمئة، وطوائف كثيرة من قيس وأسد وتميم وغيرهم والمهاجرون والأنصار من الأوس والخزرج.

فلما وصل النبي ﷺ الجُحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب وكان قد خرج مسلماً مهاجراً إلى اللّه ورسوله، فسار مع النبي ﷺ فلما بلغ الأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد اللّه بن

أبي أمية أخو هند بنت أبي أمية (أم سلمة أم المؤمنين) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وعبد اللّه بن أبي أمية هو الذي كان مع أبي جهل حين منعا أبا طالب أن يقول كلمة الإسلام قائلين: أتترك ملة عبد المطلب؟

جاءا مسلميْن فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة وأذى، أما أبو سفيان فكان يهجو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في شعره فقالت له أم سلمة: يا رسول اللّه لا يكونا ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك.

وذهب أبو سفيان بن الحارث إلى علي بن أبي طالب وقال له: يا علي إني قد جئت مسلماً مهاجراً إلى اللّه ورسوله فما بال رسول اللّه يفعل بي هكذا؟ فقال علي: أما علمت ما فعلت برسول اللّه؟ تهجوه وتؤذيه.

فقال: فما أصنع؟ هنا تنبه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قضية مهمة وهذا يدل على ذكائه واستحضاره فقال له: ائت رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من قِبل وجهه فقل له: تاللّه لقد آثرك اللّه علينا وإن كنا لخاطئين أي كما قال أخوة يوسف ليوسف فجاء أبو سفيان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فاستقبله في وجهه فقال: تاللّه لقد آثرك اللّه علينا وإن كنا لخاطئين.

فقال رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما قال أخوه يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين.

فقال أبو سفيان:

لَعَمْرُكَ إني حين أَحْمِلُ رايةً — لِتَغْلِبَ خيلُ اللاتِ خيلَ محمدٍ
لكالمدلجِ الحيرانِ أظلمَ ليلُه — فهذا أواني حين أُهدَى فأهتدي
هداني هادٍ غير نفسي ودَلَّني — على اللّه مَنْ طَرَّدْته كُلَّ مَطْرِدِ

فضرب رسول اللَّه ﷺ صدره وقال: أنت طرّدتني كل مطردِ، وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ قد رد على أبي سفيان حين هجا رسول اللَّه ﷺ، وكان الرسول ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن اللَّه ورسوله.

وهذه قصيدة حسان التي رد فيها على أبي سفيان حين هجا رسول اللَّه ﷺ:

عَدِمنا خيلَنا إن لم تَرَوْها تُثيرُ النَّقْع موعِدُها كَداءُ
ينازِعن الأَعِنَّة مُصْعِداتٍ على أكتافها الأَسَلُ الظماءُ
تَظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النساءُ
فإمّا تُعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتحُ وانكشفَ الغِطاءُ
وإلا فاصبروا لجِلادِ يوم يُعِزُّ اللَّهُ فيه من يشاءُ
وجبريلٌ رسول اللَّه فيناً وروح القدس ليس له كِفاءُ
وقال اللَّهُ قد أَرسلتُ عبداً يقول الحق إن نفع البلاءُ
شهِدتُ به فقوموا صَدِّقوه وقلتم لا نقوم ولا نشاءُ
وقال اللَّه قد سيرت جندا هم الأنصار عُرْضَتُها اللقاءُ
لنا في كل يومٍ مِنْ مَعَدٍ سبابٌ أو قتال أو هجاءُ
فَنُحكِمُ بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماءُ
ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برِح الخفاءُ
بأن سيوفنا تَرَكَتْكَ عبداً وعبدُ الدار سادتها الإماءُ
هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند اللَّه في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداءُ
هجوتَ مباركاً براً حنيفاً أمينَ اللَّه شيمته الوفاءُ
أمن يهجو رسولَ اللَّه منكم ويمدحه وينصره سواءُ

فــإن أبــي ووالــدَهُ وعــرضــي لعرض محمد منكم وقاءُ
لـسـانـي صـارمٌ لا عـيـب فـيـه وبـحـري لا تـكـدرهُ الـدلاءُ

هذا شاعر رسول اللَّه ﷺ ينافح عنه فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: واللَّه لشعر حسان أشد عليهم من وقع النبل.

ليس من البر الصيام في السفر

دخل رسول ﷺ مكة صائماً حتى بلغ مكاناً يقال له الكُدَيد(١) فأفطر وأفطر الناس معه(٢).

قال ابن عباس: صام رسول اللَّه ﷺ في السفر وأفطر فمن شاء صام ومن شاء أفطر.

وهكذا هي السنة أن الإنسان إذا سافر مخير بين أن يصوم وبين أن يفطر.

وإن كان هناك مشقة فالصوم محرّم فلا يجوز.

ولذلك قال النبي ﷺ(٣): «ليس من البر الصيام في السفر».

وذلك لما رأى رجلًا ساقطاً قد أُغمي عليه من التعب ثم أمر بالماء فشرب ﷺ وأمر من معه أن يشربوا وأن يفطروا.

---

(١) ماء بين عسفان وقُدَيد.
(٢) رواه البخاري (١٩٤٨)، ومسلم (١١١٣).
(٣) رواه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

إسلام أبي سفيان

قال العباس: واللّه إني لأسير على بغلة رسول اللّه ﷺ إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وكانا خرجا من مكة يتحسسان، فلقد توقعا مجيء الرسول ﷺ ولكن لم يعلما متى.

فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل: هذه واللّه خزاعة خمشتها الحرب.

فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فعرفت الصوت فقلت: أبا حنظلة؟ [كنية أبي سفيان).

فقال أبو سفيان: أبو الفضل؟.

قلت: نعم.

قال: ما لك؟ قال العباس: فداك أبي وأمي، هذا رسول اللّه ﷺ في الناس واصباح قريش واللّه.

فقال أبو سفيان: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي.

قال العباس: واللّه لإن ظفر بك رسول اللّه ﷺ ليضربن عنقك.

[فإن سأل سائل لماذا لم يضرب رسول اللّه عنقه في المدينة عندما قدم إليه؟ الجواب: لأنه كان رسولًا والرسل لا تقتل].

قال: فاركب معي حتى آتي بك رسول اللّه ﷺ فأستأمنه لك.

فركب أبو سفيان ورجع صاحبه بديل بن ورقاء، قال العباس: فجئت به

فكلما مررت على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول اللَّه ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول اللَّه ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر، فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان معي، قال: أبو سفيان عدو اللَّه الحمد للَّه الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ثم خرج عمر يشتد نحو رسول اللَّه ﷺ، فركب العباس البغلة قال: وسبقت عمر فاقتحمت عن البغل(١) فدخلت على رسول اللَّه ﷺ ودخل عمر فقال عمر: يا رسول اللَّه هذا أبو سفيان دعني أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول اللَّه إني قد أجرته.

ثم جلست إلى رسول اللَّه ﷺ فأخذت برأسه فقلت: واللَّه لا يناجيه الليلة أحد دوني.

فلما أكثر عمر في شأنه، قلت: مهلًا يا عمر، فواللَّه لو كان من رجال بني عدي ما قلت مثل هذا.

فقال عمر: مهلًا يا عباس، فواللَّه لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول اللَّه ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول اللَّه ﷺ: اذهب به يا عباس (أي خذ أبا سفيان)، فإذا أصبحت فائتني به.

فذهب به فلما أصبح غدا به إلى رسول اللَّه ﷺ.

فلما رآه الرسول ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا

(١) نزلت.

إله إلا اللَّه؟ فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أن لو كان مع اللَّه إله غيره لقد أغنى عني شيئاً.

قال رسول اللَّه ﷺ: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول اللَّه؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها شيئاً.

فقال العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه قبل أن تُضرب عنقك.

فأسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول اللَّه إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً.

فقال النبي ﷺ: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

❊ ❊ ❊

دخول مكة

في صباح السابع عشر من رمضان، تحرك النبي ﷺ إلى مكة وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان في مضيق الوادي حتى يرى الجيش وهو يمر، ففعل، فمرت القبائل فكل قبيلة معها رايتها، فكلما مرت به قبيلة يقول: يا عباس من هذه؟ فيقول: سليم.

فيقول أبو سفيان: ما لي ولسليم.

ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول: مُزيْنة.

فيقول: ما لي ولمُزينة.

حتى نفذت القبائل فما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالي ولبني فلان، ما لنا طاقة أن نقاتل كل هؤلاء، حتى مرّ به الرسول ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد[١]، قال: سبحان اللَّه يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول اللَّه ﷺ والمهاجرون والأنصار.

قال أبو سفيان: ما لأحدٍ بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة.

ثم قال: واللَّه يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما.

قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة.

قال: فنَعَم إذاً إنها النبوة.

---

(١) فقط عيونهم التي ترى من الحديد.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة رضي الله عنه، فمر سعد بأبي سفيان فقال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة[١]، اليوم أذلّ اللَّه قريشا.

فلما حاذى رسولُ صلى الله عليه وسلم أبا سفيان قال لرسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: يا رسول اللَّه أما تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ قال: قال كذا وكذا.

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول اللَّه ما نأمن أن يكون له في قريش صولة[٢].

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: بل اليوم يومٌ تعظم فيه الكعبة اليوم يومٌ أعز اللَّه فيه قريشا ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى ابنه قيس.

وقيل إن اللواء لم يخرج عن سعد وقيل دُفع إلى الزبير، واللَّه أعلم.

فدخل أبو سفيان وقال لقريش: قد جاءكم ما لا قِبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا: قاتلك اللَّه، وما تُغني عنّا دارك[٣].

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد وأصبحت أم القرى وقد قيّد الرعب حركاتها، واختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة يرتقبون مصيرهم وهم واجمون وإن العزة للَّه ولرسوله وللمؤمنين.

---

(١) نقتلكم.
(٢) يقتل في قريش.
(٣) ما تكفينا.

يوم الخندمة

وخرجت مجموعة تريد الدفاع منهم عكرمة بن أبي جهل، صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وحمّاس بن قيس ومعهم آخرون واجتمعوا في مكان يقال له الخَنْدَمَة.

وحمّاس بن قيس كان يجهز سلاحاً له فقالت له امرأته: لماذا تعد هذا السلاح؟ قال: لمحمد وأصحابه.

قالت: واللَّه ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء.

قال: إني واللَّه لأرجو أن أُخْدِمَك بعضهم(١).

ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فما لي علة
هذا سلاح كامل وألَّة
وذو غرارين سريع السلة(٢)

دخل رسول اللَّه ﷺ وكان قد جعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ومعه أسلم وسليم وغِفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب.

فأمره أن يدخل مكة من أسفلها وقال: إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا.

وكان الزبير على المجنبة اليسرى وكانت معه راية رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) أن يكونوا خدماً لك.
(٢) يعني السيف.

وكان شعار المسلمين على ثلاث أما المهاجرون فكان شعارهم يا بني عبد الرحمن وأما الأوس فكان شعارهم يا بني عبيد اللَّه وأما الخزرج فكان شعارهم يا بني عبد اللَّه.

دخل الجيش وما واجهوا أي صعوبة للدخول إلى مكة، أما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه، وقتل ممن مع خالد كرز بن جابر، وخنيس بن خالد كانا شذا عن الجيش، ولقي خالد أهل الخندمة عكرمة وصفوان وسهيل وحمّاس وغيرهم فناوشوهم شيئاً من القتال فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلًا وانهزم البقية كما انهزم حمّاس بن قيس فدخل على امرأته وقال: أغلقي الباب.

فقالت: أين ما كنت تقول:

إن يقبلوا اليوم فما لي علة
هذا سلاح كامل وألَّة
وذو غرارين سريع السلة

فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة
إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة
لَهُم نَهِيتٌ خلفنا وهمهمة
لم تنطقي باللوم أدنى كلمة

فأقبل خالد حتى وصل الصفا إلى رسول اللَّه ﷺ، وأما الزبير فتقدم حتى

نصب راية رسول اللَّه ﷺ عند المسجد، ثم نهض رسول اللَّه ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ودخل المسجد الحرام، وأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يُعيد.

(هذه كانت قبل قليل آلهة مقدسة تعبد وتدعى ويستغاث بها، أما الآن فهي جص وتراب كما قال نبي اللَّه إبراهيم صلوات اللَّه وسلامه عليه لقومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٣].

فدخل النبي ﷺ إلى بيت اللَّه الحرام ثم دخل الكعبة وصلى هناك وكبّر في نواحي البيت ووحد اللَّه سبحانه وتعالى، ورأى داخل الكعبة صوراً لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام[(١)] كفعل أهل الجاهلية وقال: «قاتلهم اللَّه واللَّه ما استقسما بهما قط»، ثمّ أمر بالصور فمُحيت ولم يصل في البيت حتى مُحيت فلما محيت صلى داخل البيت ركعتين، وفي وهذا دليل على كراهية الصلاة في المكان الذي فيه صور.

ثم جلس في المسجد صلوات اللَّه وسلامه عليه وقام إليه علي بن أبي طالب ومعه مفتاح الكعبة فقال له: يا رسول اللَّه اجمع لنا الحجابة مع السقاية [يريد مفتاح الكعبة والسقاية] صلى اللَّه عليك.

فقال رسول اللَّه ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدُعي له.

فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان.

---

(١) الاستقسام بالأزلام: هو وضع النبال في علبة ثم يخرج منها سهماً مكتوب عليه افعل أو سهماً مكتوب عليه لا تفعل.

اليومُ يوم بِرٍّ ووفاء، ثم أعطاه المفتاح.

وقال له: خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم. واستمرت مفاتيح الكعبة مع بني شيبة يقول ابن حزم: فهي اليوم في ولده، وهذا الكلام كان سنة ست وخمسين وأربعمئة من الهجرة، واليوم في يومنا هذا سنة ست وعشرين وأربعمئة وألف من الهجرة والمفتاح مازال مع بني شيبة).

وقيل إن أهل مكة جاءوا إلى النبي ﷺ فقال لهم: «يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم.

قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء»، ولكنه ضعيف لا يصح سنداً[(١)] ولكن ثبت أنه عفا عنهم ﷺ.

ثم لما جاء وقت الصلاة، أمر الرسول ﷺ بلالًا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس في فناء الكعبة.

فقال عتاب: لقد أكرم اللَّه أسيداً ألا يكون سمع هذا [أي إن والدي مات ولم يسمع الأذان، فيسمع منه ما يغيظه].

فقال الحارث: أما واللَّه، لو أعلم أنه حقٌ لاتبعته.

فقال أبو سفيان: أما واللَّه ما أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء.

فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: قد علمت الذي قلتم ثم ذكر ذلك لهم.

---

(١) رواه البيهقي في سننه كتاب السير/ باب فتح مكة.

فالنبي صلوات اللَّه وسلامه عليه لا يعلم الغيب ولكنه الوحي من اللَّه تبارك وتعالى.

فقال الحارث وعتاب: نشهد إنك لرسول اللَّه، واللَّه ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

ودخل رسول اللَّه ﷺ دار أم هانئ أخت علي بن أبي طالب، فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها، فقال بعضهم هي سنة الفتح فاتخذها بعض القادة إذا فتحوا بلاداً سنة، وقال بعضهم هي صلاة الضحى.

وأجارت أم هانئ حموين لها أراد علي بن أبي طالب أن يقتلهما فقال لها الرسول ﷺ: قد أجرنا من أجرت.

ولما دخل الرسول ﷺ المسجد جاء أبو بكر بأبيه يقوده لأنه كان أعمى فلما رآه الرسول ﷺ قال: هلّا تركت الشيخ في بيته حتى أجيئه؟ فقال: يمشي هو إليك يا رسول اللَّه أحق من أن تمشي إليه.

فأجلسه ثم مسح الرسول ﷺ على صدره فقال: أسلم تسلَم.

فأسلم فقال رسول اللَّه ﷺ: «غيروا الشيب ولا تقربوه سواداً».

(وهذه العائلة عائلة أبي بكر أسلم الجد وهو أبو قحافة والد أبي بكر فيكون صحابياً وأبو بكر صحابي وعبد الرحمن بن أبي بكر صحابي ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي بكر أيضاً صحابي وهذه العائلة الوحيدة التي فيها أربعة أجيال كلهم صحابة.

ويصدق هذا على أربعة آخرين وهم عبد اللَّه بن الزبير صحابي أمه أسماء صحابية جده أبو بكر صحابي وجد أمه وهو والد أبي بكر الصديق صحابي كذلك.

إهدار دم بعض المجرمين

دخل الرسول ﷺ مكة وأهدر دماء تسعة نفر كانوا من أكثر المجرمين إجراماً، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة.

وهم عبد العزى بن خطل، عبد اللّٰه بن أبي سرح، عكرمة بن أبي جهل، الحارث بن نفيل بن وهب، مقيس بن صبابة، هبّار بن الأسود، قينتان كانتا تغنيان وتهجيان النبي ﷺ وسارة وهي مولاة لبعض بني عبد المطلب التي وجد معها الكتاب الذي أرسله حاطب بن أبي بلتعة.

أمّا ابن أبي سرح فجاء إلى عثمان واستجار به فذهب به عثمان إلى النبي ﷺ وشفع له فشفّعه به النبي ﷺ.

وأمّا عبد العزى بن خطل فوجد متعلقاً بأستار الكعبة فجيء به إلى النبي ﷺ فأمر بقتله.

وأمّا مقيس بن صبابة فكذلك قتل قتله نميلة بن عبد اللّٰه.

ومقيس كان قد أسلم ثمّ ارتد بعد ذلك وقتل رجلًا من الأنصار ولحق بالمشركين.

وأمّا الحارث بن نفيل بن وهب فكان شديد الأذى لرسول اللّٰه ﷺ بمكة فقتله علي بن أبي طالب.

وأمّا هبّار بن الأسود وهو الذي كان قد آذى زينب بنت النبي ﷺ، فرّ مع عكرمة ثم أسلم.

وأما القينتان فقتلت أحداهما والأخرى استؤمنت ثم أسلمت.

وأمّا سارة قيل أسلمت وقيل قتلت.

إسلام عكرمة

فرّ عكرمة إلى اليمن وركب البحر مع قوم فأصابهم عاصف[1] فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا. (سبحان اللَّه، في وقت السعة يدعون الآلهة وفي وقت الشدائد لا يدعون إلا اللَّه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

أما في وقتنا هذا فإن المشركين ممن ينتسبون إلى الإسلام إذا اشتدت بهم الأمور أشركوا باللَّه وسألوا غيره سبحانه وتعالى فلاشك أن المشركين في ذلك الزمان أحسن حالًا منهم اليوم.

ولذلك قال ابن القيم رحمه اللَّه: مشركوا الزمان الأول أهون من مشركي زماننا).

فهنا عكرمة تنبه لكلمة أصحاب السفينة وقال: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص فما ينجيني في البر غيره، اللَّهم إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أني آتٍ محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنّه عفواً كريماً فنجاه اللَّه.

فجاء إلى النبي ﷺ فأسلم فقبل منه ﷺ إسلامه.

---

(١) ريح في البحر.

إسلام صفوان بن أمية

صفوان بن أمية لم يكن ممن أهدر الرسول ﷺ دمه، ولكنه كان زعيماً كبيراً من زعماء قريش ففر واستأمن له عمير بن وهب الجمحي فأمّنه رسول اللَّه ﷺ وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فردّه فقال صفوان لرسول اللَّه ﷺ: اجعلني بالخيار شهرين.

فقال له رسول اللَّه ﷺ: أنت بالخيار أربعة أشهر.

ثم بعد ذلك أسلم، وكانت امرأته قد أسلمت قبله فأقرهما النبي ﷺ على نكاحهما السابق.

وفي اليوم الثاني، قام رسول اللَّه ﷺ خطيباً فقال: «أيها الناس، إن اللَّه حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن باللَّه وباليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد بها شجرة، فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول اللَّه ﷺ فقولوا: إن اللَّه أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما حلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلّغ الشاهد الغائب».

وقال: «لا يُعضد شوكه [أي الحرم]، ولا ينفّر صيده، ولا تُلتقط ساقطته [أي كمن يجد ديناراً أو درهماً] إلّا من عرّفها، ولا يُختلى خلاه.

فقال العباس: إلا الإذخر[١] فإنه لقينهم[٢] وبيوتهم فقال رسول اللَّه ﷺ: «إلا الإذخر».

---

(١) نوع من أنواع النباتات.
(٢) قبورهم.

فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: اكتب لي يا رسول اللَّه.

فقال: «اكتبوا لأبي شاه»[(١)].

وفي دخول النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه مكة لفتحها دليل على جواز دخول مكة بغير إحرام لأنه لم يدخل محرماً، فمن أراد دخول مكة لحج أو عمرة فلا يجوز له الدخول إلا محرماً.

أما من أراد دخولها من غير حج أو عمرة فقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه يجوز أن يدخلها بدون إحرام كسائق الأجرة أومن أراد تجارة أو زيارة مريض، وذهب آخرون إلى أنه لابد أن يحرم.

أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين ويُفطر.

تحريم نكاح المتعة

وفي هذه الغزوة حرّم الرسول ﷺ متعة النساء، ومن زعم أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي حرّم نكاح المتعة فهو إما أن يكون كاذباً وإما أن يكون جاهلًا، وذلك أنه ثبت عن النبي ﷺ أنه حرّم نكاح المتعة.

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نهى رسول اللَّه ﷺ عن متعة النساء، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. متفق عليه[(٢)].

وعن سبرة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع رسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ: «يا أيها الناس، إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢) ومسلم (١٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٦)، ومسلم (١٤٠٧).

اللّه قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليُخلِّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً». أخرجه مسلم[١].

وعن سلمة بن الأكوع قال: رخّص رسول اللّه ﷺ في متعة النساء ثلاثة أيام عام أوطاس (أي عام الفتح) ثم نهى عنها. أخرجه مسلم[٢].

وأحاديث أخرى عن زواج المتعة فليس هذا مجال ذكرها.

هدم الأصنام

لما اطمأن رسول اللّه ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليهدمها، وبعث عمرو بن العاص ليهدم سواعاً، وبعث سعد بن زيد ليهدم مناة، فهذه أصنام الجاهلية.

* خرج خالد بن الوليد إلى العزى وكانت بنخلة[٣] وكانت لقريش وجميع كنانة ولذلك قال أبو سفيان في غزوة أحد بعد أن انتهت المعركة: لنا العزى ولا عزى لكم.

فالعزى هي صنم قريش وهي أعظم أصنامهم وكان سدنتَها بنو شيبان، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها فهدمها، ثم رجع إلى رسول اللّه ﷺ فقال له النبي ﷺ: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا.

قال: فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها.

---

(١) (١٤٠٦).
(٢) (١٤٠٥).
(٣) مكان قرب مكة.

فرجع خالد وقد جرّد سيفه فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناشرة الرأس وهذه جنية كانت مع العزى فجعل السّادن المسؤول عن الصنم أو يصيح بها فضربها خالد فجزلها اثنتين، ثم رجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره، فقال: تلك العزى قد أيست أن تعبد في بلادكم أبدا.

* أما عمرو بن العاص فقد أمره الرسول ﷺ بهدم سواع وهو صنم لهذيل، على ثلاثة أميال من مكة، فلما جاءه عمرو قابله السّادن وقال له: ماذا تريد؟ قال: أمرني رسول اللَّه ﷺ أن أهدمه.

قال: لا تقدر على ذلك.

قال: لِمَ؟ قال: تُمنع.

قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك فهل يسمع أو يُبصر؟! ثم دنا عمرو إليه فكسره وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئاً.

ثم قال عمرو للسّادن: كيف رأيت؟ مُنعت؟ قال: أسلمت للَّه.

* وخرج سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت للأوس والخزرج فلما انتهى إليها سعد قال له سدنتها: ما تريد؟ قال: أريد هدم مناة.

قالوا: أنت وذاك.

فأقبل فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ثائرة الرأس، تدعو بالويل وتضرب صدرها.

فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك [يطلب منها أن تفعل شيئاً لمن عصاها].

فضربها سعد فقتلها وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره.

وكانت السدنة تقول للعزى ومناة وغيرها: دافعي وادفعي، ولكنها لا تستطيع عمل شيءٍ. كما قيل:

يا عِزُّ شدي شدة لا سواكها على خالد ألقِ الخمار وشمّري
فإنك إلا تقتلي المرء خالداً تبوئي بذنب عاجلٍ وتقصّري

إنها أصنام لا تُغني شيئاً قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٣] وهكذا فتح اللَّه تبارك وتعالى مكة لنبيه صلوات اللَّه وسلامه عليه، وعاد إليها بعد أن أخرجه قومه منها.

* * *

النصر المبين

كان فتح مكة فتحاً من جميع الوجوه هو فتحٌ عسكري، وفتحٌ اجتماعي، وفتحٌ ديني، وفتحٌ من أوجه كثيرة ولذلك قال اللَّه تبارك وتعالى: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

بعده دخل العرب أفواجاً في دين اللَّه تبارك وتعالى، وذلك أن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين، وأنصاره، والعرب في ذلك تبع لقريش، وهو مصداق قول النبي ﷺ: «الناس تبع لقريش في الخير والشر»[(١)].

ولذلك صار من القواعد المؤصلة والثابتة عن النبي ﷺ أن الإمامة في قريش، لكونهم قادة، يقول النبي ﷺ: «الأئمة من قريش»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٨١٥).
(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٩).

غزوة حنين سنة ٨هـ

في السنة الثامنة كانت غزوة حنين وتسمى «أوطاس» وتسمى «هوازن» لأن الغالبية ممن قاتل النبي ﷺ هم من هوازن، وهذه الغزوة كانت بعد أن سمع النبي ﷺ أن بطون هوازن وثقيف واجتمعت إليهم نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال اجتمعوا كلهم على رجل يقال له: مالك بن عوف النصري، وقررت هذه القبائل أن تقاتل النبي ﷺ.

سمع النبي ﷺ بخروجهم، وكان قد أرسل رجلًا فقال: إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم ونعمهم وشائهم قد اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبي ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء اللَّه. أخرجه أبو داود[١].

أمر مالك بن عوف النصري الناس أن يسوقوا معهم أموالهم وأن يخرجوا معهم أبناءهم ونساءهم ليشعر كل رجل منهم وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه، فلا يفرّ عنها، ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وكان معهم رجل معروف بالحرب في زمنه ولكنه قد شاخ ويبقى له الرأي، يقال له دريد بن الصِّمَّة، وكان شجاعاً مجرباً، فقال دريد للناس: بأي واد أنتم؟ قالوا: أوطاس. قال: نِعم مجال الخيل، لا حَزْنٌ ضَرْس ولا سهلٌ دَهْس [أي ليس هو بالوعر، ولا بالناعم الذي لا تستطيع أن تجري فيه الخيل].

ثم قال: ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصبي وثغاء الشاة؟

---

(١) (٢٥٠١).

قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم.

فدعا مالكاً وسأله: لماذا فعلت ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجلٍ أهله وماله ليقاتل عنهم.

فقال له دريد: إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك.

فقال له مالك: واللَّه ما أفعل، إنك قد كَبُرت وكَبُر عقلك(١) واللَّه لتطيعنّي هوازن، أو لأتكأنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري.

وكره مالك أن يكون لدريد رأي في هذه الحرب، فقالوا لمالك: أطعناك.

فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني، ثم قال:

يا ليتني فيها جَذَع
أخبُّ فيها وأَضَع
أقودُ وطْفاء الدَمَع
كأنها شاة صَدَع

يعني يتمنى أن لو كان شاباً قوياً جلداً، حتى يقاتل النبي ﷺ.

نُقلت الأخبار إلى النبي ﷺ وسمع بخروج هؤلاء لقتاله، فبعث النبي ﷺ أبا حدرج الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم.

فخرج الرجل وأتاه بالخبر، وقد ذُكِرَ للنبي ﷺ أن صفوان بن أمية، عنده أدراع وسلاح فأرسل إليه.

(١) خرفت.

فلما جاءه قال له: يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا غداً.

فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟

قال: لا. بل عاريّةٌ مضمونة حتى نؤديها إليك.

فأعطاه إياها، أخرجه الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح(١).

وهذا كان قبل إسلام صفوان، وهذه الاستعانة من النبي ﷺ من باب الاستعانة بالكفار في الحرب.

حكم الاستعانة بالكفار

ذكر أهل العلم قولين بخصوص ذلك:

الأول: إنه يجوز الاستعانة بالمشركين.

الثاني: لا يجوز.

وهو الصحيح لقول النبي ﷺ لما خرج في إحدى غزواته فجاءه رجل وقال: أجاهد معك.

قال: تشهد أن لا إله إلا اللَّه.

قال الرجل: لا.

قال النبي ﷺ: ارجع فإننا لا نستعين بمشرك.

وقد فصلنا القول في هذه المسألة في كلامنا على غزوة أحد وقلنا: يجوز

(١) الحاكم (٣/ ٤٨) والبيهقي كتاب العارية باب العارية المضمونة.

عند الحاجة فقط، وإلا فعند عدم الحاجة لا يجوز أن يستعين المسلم بالمشركين. وهذا الذي يدل عليه فعل النبي ﷺ.

خروج النبي ﷺ إلى حنين

خرج النبي ﷺ في شوال من السنة الثامنة من الهجرة، من مكة في اثني عشر ألفاً من المسلمين، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

والذين خرجوا مع النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه عشرة آلاف من أصحابه، وألفان من أهل مكة.

وقفة تربوية

وفي طريقهم إلى حنين، وقعت حادثة مهمة لابد من التنبيه عليها ألا وهي: أن الذين كانوا مع النبي ﷺ فيهم حدثاء عهد بجاهلية، وفي الطريق مروا على سدرة عظيمة يقال لها ذات أنواط، وكانت العرب تعلّق عليها أسلحتها تبركاً لينتصروا، فلما وصل الجيش إلى سدرة، قالو: يا رسول اللَّه، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

فقال النبي ﷺ: اللَّه أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال موسى عليه السلام: إنكم قوم تجهلون. إنها السّنن، لتركبن سَنَن من كان قبلكم[١].

(١) أحمد (٥/ ٢١٨).

هذا الحديث العظيم يبين لنا قضية مهمة، ألا وهي: إنه لابد من تطهير الصف مما قد يؤثر فيه مستقبلًا، فالنبي ﷺ لم يقل إننا الآن ذاهبون إلى قتال، لا بأس نعطيكم ذات أنواط بعد ذلك، أو سكت على مضض ولم يرد عليهم إلى أن تنتهي المعركة، أبداً.

بل وقف صلوات اللَّه وسلامه عليه وقفة القائد الناصح، أوقف الجيش وقال لهم ما ذكرنا سابقاً.

ولذلك لا يجوز أن يقال المهم أنه مسلم في ظاهره بغض النظر عن معتقده أو فكره فهذا كلام باطل، بل لابد من تصفية الصفوف وتنقيتها وتركيز الإيمان في قلوب الناس والاعتقاد الصحيح، ثم بعد ذلك يكون القتال ومن ثَمّ يأتي النصر من عند اللَّه تبارك وتعالى.

المفاجأة

بعض الناس لما رأى العدد الكبير للمسلمين قال: لن نُغلب اليوم من قلة.

ومالك بن عوف سبق المسلمين إلى حنين فأدخل جيشه بالليل في الوادي، وفرّق كُمناءه وهم جماعة من الجيش مختبأة بالطرق والمداخل، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين بالسهام أول ما يطلعون عليهم ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وفي دخول الفجر، كان المسلمون قد دخلوا وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه وهم لا يشعرون بوجود الكمناء، فبينما هم ينحطّون وإذا النبال تمطر عليهم السهام في كل مكان، ثم جاءت خيل العدو وشدّت على

المسلمين شدة رجل واحد.

يقول جابر بن عبد اللَّه ﷺ : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف، حطوط [أي متسع ومنحدر]، إنما ننحدر فيه انحداراً وفي الصبح كان القوم قد سبقونا وكمنوا في شعابه ومضايقه. اهـ

بعد ذلك انتشرت موجة من الفزع بين المسلمين، فتبعثرت الصفوف، واستغل رجال مالك هذا الارتباك فهجمت كتائبهم وحملت الخيل على من أمامها، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوي أحد على أحد، وركبت الإبل بعضها على بعض، لا يدرون ماذا يفعلون.

وثبت مع النبي ﷺ بعض المهاجرين والأنصار.

قال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ : كنت مع النبي ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلًا من المهاجرين والأنصار. أخرجه أحمد[١].

وقال ابن عمر: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولينا وما مع رسول اللَّه ﷺ مئة رجل. أخرجه الترمذي[٢] .

❋ ❋ ❋

(١) (١/ ٤٥٤).
(٢) (١٦٨٩).

المحاولة الثانية لاغتيال النبي ﷺ

ذكر ابن سعد عن شيبة بن عثمان الحجبي قال: لما كان عام الفتح دخل رسول اللَّه ﷺ مكة عنوة.

قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة وأثأر منه فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها.

وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما تبعته أبداً، وكنت مرصداً لما خرجت لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس اقتحم رسول اللَّه ﷺ عن بغلته[1] فأَصْلَتُّ السيف، فدنوت منه أريد ما أريد، ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه[2]، فرُفِع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفت إليّ رسول اللَّه ﷺ ثم ناداني وقال: يا شيبة ادنُ مني.

فدنوت منه فمسح صدري ثم قال: اللَّهم أعذه من الشيطان.

فقال شيبة: فواللَّه، لهو كان ساعتئذٍ أحب إليَّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب اللَّه ما كان في نفسي.

ثم قال لي: ادنُ، وقاتل.

فتقدمت أمامه اضرب بسيفي واللَّه يعلم إني أحب أن أقِيَه بنفسي كل شيء، ولو لقيت أبي تلك الساعة لو كان حياً لأوقعت به السيف فجعلت

(١) نزل منها.
(٢) أقتله.

ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون، فكروا كرة رجل واحد، فقرّبت بغلة رسول اللَّه ﷺ فثوى عليها، وخرج في إثرهم حتى تفرقوا من كل وجهة.

ورجع إلى معسكره فدخل خباءه فدخلت عليه وما دخل عليه أحد غيري حباً لرؤية وجهه وسروراً به فقال: يا شيبة، الذي أراد اللَّه بك خيرٌ مما أردت لنفسك.

ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط.

قال: فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول اللَّه، ثم قلت: استغفر لي.

فقال: غفر اللَّه لك .

ولا أجد تعليقاً على هذه الحادثة إلا أن أقول: أعد قراءتها ثانية وثالثة ورابعة وخامسة.

لماذا وقع العجب في قلوب بعض المسلمين؟

أولًا: أحس جمهور المسلمين أن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة فوقع في قلوب بعضهم عُجب.

ثانياً: اعتمد كثير منهم على كثرة الجيش دون النظر إلى أن النصر من اللَّه.

ثالثاً: رأوا وهم قلة ينتصرون فكيف وهم بهذا العدد.

أشجع الخلق

بعد أن باغت المشركون بقيادة مالك بن عوف المسلمين، وجاءتهم السهام من كل مكان، وصارت الإبل يركب بعضها بعضاً، والخيل تنفر، انهزم بعض

المسلمين لا يدرون أين يذهبون، وبقي النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه لم يفر ومن معه، ولن يفر، فإن الرسول ﷺ فعل العجب وذلك أن الناس يفرون والمشركون يهاجمون، وهو يهجم على المشركين صلوات اللَّه وسلامه عليه وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب صلوات اللَّه وسلامه عليه.

وأبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ كان آخذاً بلجام بغلته، والعباس بركابه يمنعون بغلة النبي ﷺ أن تتقدم والنبي يكرر ويقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

فهذه الشجاعة لا يمكن أن تكون لأحد إلا لرسول اللَّه ﷺ.

ولذلك يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: كنا واللَّه إذا احمر البأس(١)، نتقي به وإن الشجاع منّا من يحاذيه. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(٢).

انتصار الحق

ثم قال النبي ﷺ للعباس: ناد المهاجرين والأنصار، ناد أصحاب السَمُرَة [الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة عند الشجرة وكانت شجرة سَمُر].

فقام العباس ينادي: يا أصحاب السَمُرَة، يا للأنصار، يا للخزرج، [وقد نادى الخزرج دون غيرهم لأنهم كانوا صُبُراً في الحرب].

فأخذ النبي ﷺ حصيات، ورمى بها في وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد.

---

(١) اشتد.
(٢) (١٧٧٦).

فما هو إلا أن رماهم، فكان حدّهم كليلا وأمرهم مدبراً.

قال العباس: فواللّه لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها.

يقولون يا لبيك، يا لبيك.

وكان الرجل منهم يثني بعيره ليرجع معه فكان البعير إذا لم يطاوعه، فينزل عن البعير فيأخذ درعه، ويأتي إلى النبي ﷺ.

وكان الذين بقوا عند النبي ﷺ مجاورين له لم يتحركوا عشرة: أبو بكر وعمر وعلي والعباس والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد وابن مسعود وأيمن ابن أم أيمن (هو أخو أسامة لأمه) وهذا هو الوحيد الذي قُتل من هؤلاء العشرة.

قال العباس:

نصرنا رسول اللّه في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه وأقشعوا
وعاشرنا وافى الحِمَامَ بنفسه لما مسّه في اللّه لا يتوجعُ

وذكر أيضاً ممن ثبت مع النبي ﷺ قثم بن العباس وجعفر بن أبي سفيان ابن الحارث وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب.

فلما رجع أصحاب النبي ﷺ الذين فروا إليه تجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول اللّه ﷺ إلى الحرب، وقال: الآن حمي الوطيس.

من قتل قتيلا فله سلبه

قال أبو قتادة: خرجنا مع النبي ﷺ عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلًا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين، فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف، فقطعت الدرع وأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني (أي إن هذا الرجل ضخم، كبير، عظيم، شجاع، جريء).

فلحقت عمر وقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر اللَّه عز وجل.

ثم رجعوا إلى النبي ﷺ بعد أن ناداهم العباس، فجلس النبي ﷺ بعد أن انتصر من المعركة وقال: «من قتل قتيلًا له عليه بينةٌ فله سَلَبه»[١].

فقلت[٢]: من يشهد لي؟ لا أحد. فجلست.

فقال النبي ﷺ مثله.

قال: ثم قال النبي ﷺ مثله.

فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست.

فقال النبي ﷺ: ما لك يا أبا قتادة؟ فأخبرته.

فقال رجل: صدق وسلبه عندي، فأرضه عني.

فقال أبو بكر: لا هاللَّه[٣]، إذاً لا يعمِد إلى أسدٍ من أسد اللَّه، يقاتل عن اللَّه

(١) ما كان مع المقتول من سيف، من حصان ومال وغيره.
(٢) في نفسه.
(٣) الهاء هذه للتنبيه واو القسم محذوفة.

ورسوله ﷺ ويعطيك سلبه.

فقال النبي ﷺ: صدق، فأعطه.

فقال أبو قتاده: فأخذته.

فابتعت فيه مخرفاً[١] في بني سلمة، فإنه لأول مال تأثلته[٢] في الإسلام.

وكان قد رجع المسلمون إلى النبي ﷺ فقاتلوا الكفار وجالدوهم حتى انتصر النبي ﷺ ومن معه بنصر اللَّه تعالى لهم.

وفيها قال اللَّه جلّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هزيمة ثقيف

انتهت المعركة وانتصر المسلمون في نهايتها وكان ما أخبر به النبي ﷺ أنهم سينتصرون وهرب أكثر ثقيف إلى الطائف وبعضهم ذهب إلى مكان يقال له نخلة، وطائفة إلى مكان يقال له أوطاس.

فأرسل النبي ﷺ طائفة إلى أوطاس يقودهم أبو عامر الأشعري، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على

---

(١) مجموعة أشجار.

(٢) جمعته.

جيش إلى أوطاس، فقتل دريد بن الصمّة وهزم اللَّه أصحابه.

وبعثني مع أبي عامر، ورماه جشميّ بسهم فأثبته في ركبته.

فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إليه وقال: ذاك قاتلي الذي رماني.

قال أبو موسى: فقصدت له فلحقته فلما رآني ولَّى فاتبعته، فجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت، فَكَفَّ؟!.

فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل اللَّه صاحبك.

قال: فانزع هذا السهم.

فنزعته، فنزل منه الماء.

فقال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له يستغفر لي.

ثم استخلفني أبو عامر على الناس، فرجعت ودخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرْمَلٍ وعليه فراش قد أثر السرير بظهره وجنبه.

فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له ما قال أبو عامر.

فدعا النبي ﷺ بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: «اللَّهم اغفر لعبيد أبي عامر».

ورأيت بياض إبطيه (أي بالغ في رفع يديه)، ثم قال: «اللَّهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلْقِك من الناس».

فقال أبو موسى: ولي فاستغفر.

فقال: «اللَّهم اغفر لعبد اللَّه بن قيس ذنبه، وادخله يوم القيامة مُدخلًا كريما».

قال أبو بردة ابن أبي موسى: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى [أي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ][(١)].

بعض آداب الدعاء

وهنا قوله فدعا بماءٍ فتوضأ ثم رفع يديه تدل على أمور، منها:

أولًا: أن النبي كان يدعو لأصحابه صلوات اللَّه وسلامه عليه خاصة إذا طلبوا ذلك منه.

ثانياً: يدل على أن السنة إذا أراد أن يذكر اللَّه تبارك وتعالى بدعاء أو غيره أن يتوضأ.

ثالثاً: يدل على أن السنة في الدعاء رفع اليدين.

رابعاً: جواز طلب الدعاء من الغير.

هذه الطائفة الأولى طاردت المشركين إلى أوطاس، والطائفة الثانية طاردت الذين سلكوا نخلة فأدركت من أدركت وقتلتهم.

جمع الغنائم وحصار الطائف

أما الغنائم فكانت شيئاً عجيباً، بلغت ستة آلاف من السبي وأربعة وعشرون ألفاً من الإبل، وأربعين ألفاً من الغنم، وأربعة آلاف أوقية فضة، فأمر النبي

---

(١) رواه البخاري (٤٣٢٣).

ﷺ بجمعها ثم حبس الغنائم جميعاً في الجِعْرانة ويقال الجِعِرَّانة، ولم يقسمها حتى ذهب إلى الطائف صلوات اللَّه وسلامه عليه، وكان من ضمن السبي الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة.

دخل المشركون الطائف بقيادة مالك بن عوف وتحصنوا بها، ولحق بهم النبي ﷺ وحاصرهم، واستمر الحصار أربعين يوماً، ونصب النبي ﷺ كما هو مشهور المنجنيق على أهل الطائف ورماهم به، ثم نادى منادي النبي ﷺ: أيّما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر.

فخرج إليه ثلاثة وعشرون عبداً منهم أبو بكرة الثقفي.

وكان أهل الحصن استعدوا بذلك وكان عندهم ما يكفيهم سنة كما قيل.

عندها أَذَّنَ النبي ﷺ بالناس، إنّا قافلون غداً إن شاء اللَّه.

فثقل ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول اللَّه، نذهب ولا نفتح الحصن، فكيف ذلك؟ فقال النبي ﷺ: اغدوا إلى القتال.

فغدوْا إلى القتال فأصابهم جراح.

فقال رسول اللَّه ﷺ: إنّا قافلون غداً. فسروا بذلك.

فتبسم النبي ﷺ.

وقيل: يا رسول اللَّه، ادعُ على ثقيف.

فقال: اللَّهم اهد ثقيفاً وأت بهم.

إسلام عروة بن مسعود

لما رجع رسول اللَّه ﷺ إلى الطائف جاءه عروة بن مسعود فاتبعه وأسلم، وعروة هذا هو الذي جاء للنبي ﷺ وتكلم معه قبيل صلح الحديبية، والذي قال بعد أن رجع إلى أهل مكة: دخلت على ملوك فارس والروم ودخلت على النجاشي في ملكه وغيرهم، فما وجدت أحداً يعظّم أحداً كما يعظّم أصحاب محمدٍ محمدا صلوات اللَّه وسلامه عليه.

قال ابن إسحاق: لما انصرف رسول اللَّه ﷺ من الطائف اتبع أثره عروة ابن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام.

فقال رسول اللَّه ﷺ: وما يتحدث قومك إنهم قاتلوك، وعرف رسول اللَّه ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع، فقال عروة: يا رسول اللَّه أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعا.

فخرج يدعُو قومه إلى الإسلام، رجاء أن لا يخالفوه وذلك لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عليّة له (أي مكان مرتفع)، وقد دعاهم إلى الإسلام وقد أظهر لهم دينه، رموْه بالنبل من كل وجه. فأصابه سهم فقتله.

فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني اللَّه بها، وشهادة ساقها اللَّه لي، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول اللَّه ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فدفنوه معهم.

رجع النبي ﷺ من حصار ثقيف بالطائف إلى الجعرانة.

قسمة الغنائم

مكث رسول اللَّه ﷺ في الجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم ينتظر هوازن أن تأتي تائبة فيعطيهم أموالهم.

وأعطى النبي ﷺ أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومئة من الإبل، وأعطى حكيم بن حزام مئة من الإبل، وأعطى صفوان بن أمية مئة من الإبل، ثم مئة ثم مئة.

وأعطى الحارث بن كلدة مئة من الإبل، وأعطى آخرين على خمسين، خمسين (من الإبل).

كل هذا لتأليف قلوبهم، بعضهم من المسلمين الذين أسلموا بالفتح، وبعضهم من الذين مازالوا على الشرك فكان النبي ﷺ يتألفهم بهذه الأموال.

وأعطى بعضهم خمسين وبعضهم أربعين بحسب مكانته من قومه.

فازدحمت عليه الأعراب يطالبون بالمال حتى اضطروه إلى الشجرة.

فقال النبي ﷺ: «أيها الناس، والذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جباناً ولا كذاباً.

أيها الناس، واللَّه ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم».

وساق لنا البخاري فعل بعض الأعراب مع النبي ﷺ، عن أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول اللَّه ﷺ من اليمن

بذهيبة من أديم مقروض لم تُحصّل من ترابها[١] فقسمها بين أربعة نفر، بين عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وزيد الخيل والرابع إما علقمة أو عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً»، فقام إليه رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمّر الإزار فقال: يا رسول اللَّه، اتق اللَّه.

فقال له رسول اللَّه ﷺ: «ويلك أوَ لست أحق أهل الأرض أن يتقيَ اللَّه؟» ثم ولى الرجل، وقال خالد بن الوليد: يا رسول اللَّه، ألا أضرب عنقه.

قال: لا.

لعلّه أن يكون يصلي.

فقال خالد: وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

فقال النبي ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم».

ثم نظر إليه وهو مقفٍ فقال: «إنه يخرج من ضئضئي هذا قوم يتلون كتاب اللَّه رغباً لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»[٢].

وقال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة ومعه بلال، فأتى النبيَّ ﷺ إعرابيٌّ فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: أَبْشِرْ.

---

(١) مازال فيها تراب.
(٢) رواه البخاري (٤٣٥١).

فقال الرجل: قد أكثرت عليّ من أبشر.

فأقبل النبي ﷺ عليَّ وعلى بلال كهيئة الغضبان، فقال: ردّ البشرى فاقبلا أنتما.

قالا: قبلنا.

ثم أُتي بقدحٍ فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه ومجّ فيه[1] ثم قال: اشربا منه وأفرغا علىٰ وجوهكما ونحوركما وأبشرا.

فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر: أن أفضلا لأمكما.

فأفضلا لها، رضي الله عنهم أجمعين.

هكذا فعل أصحاب النبي ﷺ أما أولئك من المنافقين أو الذين ما خالط الإيمان قلوبهم من الغلظة والأذى الذي أوقعوه في النبي ﷺ فأولئك من الخوارج الذين خرجوا على أمة رسول اللّه ﷺ لا يبالون يضربون برّهم وفاجرهم.

غنيمة الأنصار!!

ثم فرض النبي ﷺ الغنائم فقسمها صلوات اللّه وسلامه عليه فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاةً.

ولا شك أن هذه أعظم غنيمة حازها المسلمون في زمانهم.

(١) تفل فيه.

أعطى النبي ﷺ الناس ما أعطاهم، وترك الأنصار ما أعطاهم شيئاً.

الأنصار وجدوا في قلوبهم، فكيف أن الرسول ﷺ يعطي هؤلاء مسلمة الفتح وبعض أهل مكة وبعض الأعراب ونحن لا يعطينا شيئاً؟ وكثر فيهم القول حتى قال بعضهم: لقي واللَّه رسول اللَّه ﷺ قومه ونسينا.

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول اللَّه، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يكن في حي الأنصار منها شيء! فقال النبي ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول اللَّه، ما أنا إلا من قومي.

فقال النبي ﷺ: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

وفي بعض روايات قال: ولا يدخل علينا إلا رجل من الأنصار.

فخرج سعد وجمع الأنصار، فجاء رجال من المهاجرين فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

فأتاهم النبي ﷺ فحمد اللَّه وأثنى عليه، وهذه عادته إذا أراد أن يتكلم يحمد اللَّه ويثني عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وَجِدةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم.

ألم آتِكم ضُلّالًا فهداكم اللَّه؟ وعالة فأغناكم اللَّه؟ وأعداءً فألف اللَّه بين قلوبكم؟».

قالوا: بلى. اللَّه ورسوله أمنُّ وأفضل.

ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول اللَّه؟ للَّه ولرسوله المن والفضل.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «أما واللَّه لو شئتم لقلتم ولصَدَقْتم ولصُدِّقْتُم لو قلتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، مخذولًا فنصرناك، طريداً فآويناك، عائلًا فآسيناك، لو قلتم هذا لصَدَقْتم ولصُدِّقْتم.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألَّفْت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول اللَّه ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، لو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللَّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم من البكاء وقالوا: رضينا برسول اللَّه ﷺ قسماً وحظا.

ثم انصرف رسول اللَّه ﷺ وتفرقوا .

هكذا طيّب النبي ﷺ خاطر الأنصار الذين نصروه ﷺ في ساعة العسرة.

وفاء وصلة رحم

وقد ذكرنا أنه ممن أُسِر عند النبي ﷺ أخته الشيماء، وهذه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، أرضعتها مع النبي ﷺ حليمة السعدية، كانت مع السبي فجاءت إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت: إنّي أختك من الرضاعة.

فقال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها في ظهري، وأنا

متوركتك[١].

فعرف رسول اللَّه ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها قال: إن أحببت الإقامة عندي فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتّعك فترجعي إلى قومك.

فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي.

ففعل صلوات اللَّه وسلامه عليه.

ثم أسلمت فأعطاها رسول اللَّه ﷺ ثلاثة أعْبدٍ وجارية، ونعماً وشاءً وسماها حذافة.

أما الشيماء فهو لقب لها رضي الله عنها.

إسلام هوازن

جاء وفد هوازن مسلمين، وعددهم أربعة عشر رجلًا وعلى رأسهم رجل يقال له زهير بن صُرَج، فقالوا: يا رسول اللَّه مُنّ علينا بالسبي والأموال.

فقال: إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إليّ أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب أحدا،.

فقال: إذا صليت الغداة[٢]، فقوموا فقولوا: إنّا نستشفع برسول اللَّه ﷺ إلى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول اللَّه ﷺ أن يرد إلينا سبينا.

---

(١) فوقك.
(٢) الفجر.

فلما صلى الغداة صلوات اللَّه وسلامه عليه قاموا وقالوا ذلك.

فقال رسول اللَّه ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس.

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ، فقام الأقرع ابن حابس فقال: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقام عيينة بن حصن فقال: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقام العباس بن مرداس فقال: أما أنا وبنو سليم فلا.

فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ.

فقال العباس: وهنتموني.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا.

فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليردّ عليهم وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء اللَّه علينا».

فقال الناس: طيبنا لرسول اللَّه ﷺ فقال: إنّا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، ارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم[(١)] فردوا عليهم نساءهم ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فقط. ثم بعد ذلك ردها بعد مدة.

---

(١) أن يأتي رئيس من كل قبيلة أو فخذ ويذكر من رضي ومن لم يرض.

ولما جاء هذا الوفد سألهم النبي ﷺ: ما حال مالك بن عوف؟ قالوا: هو بالطائف مع ثقيف.

فقال النبي ﷺ: أخبروه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيه مئة من الإبل.

فلما بلغ ذلك الكلام مالكاً انسلّ من ثقيف حتى أتى رسول اللَّه ﷺ فأسلم وحسن إسلامه فردّ النبي عليه ماله وأهله وأعطاه مئة من الإبل، عند ذلك قال مالك بن عوف:

هذا ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمدٍ
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يخبرك عمّا في غدِ
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهريِّ وضرب كل مهنَّد
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادرٌ في مرصدِ

نعم، لقد رأى هذا بعينه، الناس فروا والجيش مقبل والنبي ﷺ مقبلٌ لوحده يواجه الجيش.

فأي شجاعة هذه، إنها شجاعة النبي ﷺ التي لم تكن مثلها شجاعة أبداً.

* * *

حكم وفوائد حنين

أولًا: إن اللَّه تبارك وتعالى من حكمته أنه أذاق المسلمين مرارة الهزيمة، مع كثرتهم، وقوتهم حتى يطامن سبحانه وتعالى رؤوساً رُفعت بالفتح.

ثانياً: إن اللَّه يبين لمن قال: لن نُغلب اليوم من قلة، أن النصر إنما هو من عند اللَّه تبارك وتعالى، لا ناصر غيره جلّ وعلا.

ثالثاً: لما منع اللَّه تبارك وتعالى المسلمين غنائم مكة، عوضهم غنائم حنين فكانت أعظم غنائمٍ حصلوا عليها.

رابعاً: تأليف النبي ﷺ لقلوب الكفار، وحديثي العهد بالإسلام، وذلك من باب جلب أعظم المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

فإذا أعطى الرسول ﷺ السيد تبعه قومه، فهذه مصلحة عظيمة دون المصلحة الأخرى التي فيها المساواة بين الناس في العطاء.

ودفع مفسدة عظيمة، إذا كفر هذا كفر قومه، فلذلك إذا أسلم السادة أسلم قومهم فسعد بن معاذ لما أسلم أسلم قومه، وكذلك سعد بن عبادة.

هدم صنم طيء

أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء يقال له: القلس ليهدمه سنة تسع من الهجرة، وبعثه في مئة وخمسين على مئة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر.

فهدموا الصنم القلس، ورجعوا ومعهم أخت عدي بن حاتم الطائي، وهرب عدي بن حاتم إلى الشام.

وجاءت أخته للنبي ﷺ فقالت: يا رسول اللّه، غاب الوافد وانقطع الوالد(١) وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فَمُنَّ عليَّ مَنَّ اللّه عليك.

فقال: من وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم.

وفي رواية أنه قال: الذي فرّ من اللّه ورسوله.

ثم مضى ﷺ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك، فقال لها كما قال لها في الأولى، فلما كان بعد غدٍ قالت مثل ذلك، فَمَنَّ عليها صلوات اللّه وسلامه عليه.

فلما رجعت إلى أخيها بالشام، لقيته فقالت: لقد فعل فعلةً ما كان أبوك يفعلها ائته راغباً أو راهباً، فجاءه عدي بن حاتم.

وفي رواية أنه قال رجل لعدي بن حاتم: حديث بلغني عنك أحب أن أسمعه منك.

قال عدي: نعم.

لما بلغني خروج النبي ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم، فقدمت على قيصر، فكرهت مكاني هذا أشد من خروجه(٢)، ثم قلت: فواللّه لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذباً فلن يضرني وإن كان صادقاً علمت، فأتيته فلما قدمت قال الناس: عدي بن حاتم، عدي

---

(١) مات.

(٢) وقد كان عدي بن حاتم نصرانياً.

بن حاتم، فدخلت على رسول اللَّه ﷺ فقال لي: يا عدي بن حاتم، أسلِم تسلَم، أسلم تسلم، أسلم تسلم.

قال: قلت: إني على دين.

قال النبي ﷺ : أنا أعلم منك بدينك منك.

فقلت: أنت أعلم بديني مني؟

قال: نعم.

ألست من الرَّكوسِية وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت: بلى.

قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك.

قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها.

فقال: أما إني أعلم أن الذي يمنعك من الإسلام تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب.

أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد سمعت بها.

قال: «فوالذي نفسي بيده، ليُتِمَّنَّ اللَّه هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ولَتَفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز».

قال: قلت: كسرى بن هرمز؟!.

قال: نعم.

كسرى بن هرمز، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد.

قال عدي بعد وفاة النبي ﷺ بمدة: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة تطوف

في البيت من غير جوار[١].

ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول اللَّه ﷺ قد قالها).

فقال عدي: فإني حنيف مسلم، فانبسط وجه النبي ﷺ فرحاً، وأمر له صلوات اللَّه وسلامه عليه برجل من الأنصار[٢]، فصار يأتي النبي ﷺ طرفي النهار حتى اعتنق الإسلام، واتبع النبي ﷺ.

* * *

(١) لا تخاف.
(٢) يضيفه.

غزوة تبوك سنة ٩ هـ

بلغت الأخبار النبي ﷺ وهو في المدينة أن الروم تستعد لقتاله، وأن هرقل هيأ جيشاً عرمرماً، قوامه أربعون ألف مقاتل وأنه أجلب معه قبائل لخم، وجذام، وغيرهما من نصارى العرب وأنهم وصلوا إلى مكان يقال له: البلقاء.

فقرر صلوات اللَّه وسلامه عليه القيام بغزوة فاصلة، يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم، ولا يمهلهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

فأعلن النبي ﷺ في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم وكان قلّما يريد غزوة إلا وَرَّى(١) بغيرها، وفي هذه الغزوة ما وَرَّى ﷺ لخطورة الموقف فأعلن إنه يريد غزو الروم.

فلما سمع المسلمون كلام النبي ﷺ تسابقوا إلى امتثال أمره وتجهزوا للقتال، وأخذت القبائل تدخل إلى المدينة من كل صوب وناحية.

وأمر النبي ﷺ الناس بالاستعداد، فقام رجل اسمه الجد بن قيس وهو من المنافقين فقال له النبي ﷺ: هلّ لك العام في جلاد بني الأصفر(٢)؟ قال: يا رسول اللَّه، أوَ تأذن لي ولا تفتني.

فواللَّه لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجباً بالنساء منّي، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر.

---

(١) التورية هي أن يذكر كلاماً يفهم من السامع خلاف مراده.
(٢) الروم.

فأعرض عنه النبي ﷺ وقال له: قد أذنت لك.

فأنزل اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال قوم من المنافقين لبعضهم: لا تنفروا في الحر.

فأنزل اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾ [التوبة: ٨١].

ثم إن الرسول ﷺ أمر الناس بالتجهز وأمر بالنفقة، فجاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهّز النبي ﷺ جيش العسرة، فصبّها في حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها في يده ويقول: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم». أخرجه الترمذي بإسناد حسن(١).

وقال عبد الرحمن بن خباب بن الأرت: شهدت رسول اللَّه ﷺ وهو يحثُّ على تجهيز جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول اللَّه عليّ مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل اللَّه.

ثم حض النبي ﷺ على تجهيز الجيش، فقال عثمان: يا رسول اللَّه، عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها.

فحض النبي ﷺ كذلك فقام عثمان فقال: عليّ ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل اللَّه.

يقول عبد الرحمن: فأنا رأيت رسول اللَّه ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما فعل بعد هذه». وهذا

(١) (٣٧٠١).

أخرجه الترمذي وفي سنده رجل مجهول[١].

وبعكس الجد بن قيس المنافق كان علبة بن زيد، يصلي من الليل ويبكي ويقول: اللَّهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك ﷺ، ولم تجعل في يدي رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدّق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض.

وهذا الرجل من الفقراء الذين خرجوا للرسول ﷺ يريدون القتال معه فقال لهم النبي ﷺ: لا أجد ما أحملكم عليه، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون).

ثم أصبح هذا الرجل مع الناس، فقام النبي ﷺ بالناس فقال: أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم إليه أحد.

أين المتصدق؟ فليقم.

فقام إليه علبة بن زيد.

فأخبره بما حدث، فقال النبي ﷺ: أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة.

وفي هذه الفترة استخلف على المدينة محمد بن مسلمة وقيل سباع بن عرفطة.

وأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يبقى مع أهله أي مع زوجات النبي ﷺ وابنته فاطمة وأولاده الحسن والحسين ومن ترك من أهل بيته يرعاهم.

---

(١) (٣٧٠٠).

فتكلم بعض المنافقين في علي بن أبي طالب ﷺ وقالوا: ما خلّفه إلا استثقالًا وتخففاً منه.

فأخذ علي ﷺ سلاحه ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ وهو نازلٌ بالجرف[١] ينتظر من تأخر عن الجيش، فقال: يا نبي اللَّه، زعم المنافقون أنك إنما خلّفتني لأنك استثقلتني.

فقال: كذبوا. ولكني خلّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي.

وأخرجه البخاري ومسلم[٢] عن علي أنه أتى الرسول ﷺ وقال: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟.

فقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه ليس نبي بعدي».

وهذه منزلة عظيمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللَّه تبارك وتعالى عنه.

كُن أبا خيثمة

إن أبا خيثمة رجع إلى أهله في يوم حار بعد أن سار الرسول ﷺ أياماً.

فوجد امرأتين له في عريشين[٣] لهما في حائط، وقد رشت كل واحدة منهما

(١) مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال تقريباً.
(٢) البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤).
(٣) مكان الجلوس فوقه جريد النخل.

عريشها وبردته له، وهيأت له فيه طعاماً.

فلما دخل إلى عريشه ليجلس قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتاه له، فقال: رسول اللّه ﷺ في الضحِّ[١] والريح والحر وأبو خيثمة في ظلٍ بارد، وطعام مهيأٍ، وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف[٢]؟ ثم قال: واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول اللّه ﷺ.

فهيّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدّم ناضحه[٣] فارتحل وخرج خلف رسول اللّه ﷺ حتى أدركه في تبوك.

ولقي في الطريق عمير بن وهب الجمحي .

فقال أبو خيثمة: إن لي ذنباً فلا عليك أن تتخلّف عني حتى آتي رسول اللّه ﷺ[٤]، ففعل حتى إذا دنا أبو خيثمة من النبي ﷺ وهو نازلٌ بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول اللّه ﷺ: كن أبا خيثمة.

قالوا: يا رسول اللّه هو واللّه أبو خيثمة.

فلما أناخ بعيره، أقبل فسلّم على رسول اللّه ﷺ.

فقال له صلوات اللّه وسلامه عليه: أولى لك يا أبا خيثمة.

فأخبر رسول اللّه ﷺ خبره، فقال له رسول اللّه ﷺ خيراً ودعا له بخير.

---

(١) الشمس.
(٢) ليس بإنصاف.
(٣) البعير.
(٤) إنني مذنب فلا تأت معي فيتقدم هو ويتأخر عمير.

فضيلة لأبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

وكذلك كان من المتأخرين عن النبي ﷺ أبو ذر الغفاري، وذلك أن أبا ذر تلوّم عليه بعيره(١) فلما أبطأ أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يمشي على رجليه، يتبع أثر رسول اللَّه ﷺ ماشياً.

وكان رسول اللَّه ﷺ قد نزل في بعض المنازل، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول اللَّه إن هذا الرجل يمشي على الطريق لوحده.

فقال رسول اللَّه ﷺ: كن أبا ذر.

فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول اللَّه هو واللَّه أبو ذر.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «رحم اللَّه أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده»(٢).

وهذا الحديث حسّنه الحافظ ابن كثير(٣) رحمه اللَّه تبارك وتعالى وإن كان في إسناده كلام، ولكن في الواقع وقع جزءا هذه المسألة وهي من ثلاثة أجزاء:

الأول: يمشي وحده، وهذه الحادثة تبين لنا أنه مشى وحده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الثاني: يموت وحده، وهذه أيضاً وقعت، لما خرج أبو ذر إلى الربذة، لم يكن أحد معه إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غسلاني وكفناني لما أصابه

---

(١) تأخر ولم يمش معهم.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٠).
(٣) في البداية والنهاية (٥/ ٩).

المرض، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركبٍ يمرّ بكم قولوا: هذا أبو ذر، صاحب رسول اللَّه ﷺ، فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلا ذلك.

وأقبل عبداللَّه بن مسعود في رهطٍ له من أهل العراق، معتمرين مروراً بالمدينة، فلم يرعهم إلا بالجنازة، وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر، صاحب رسول اللَّه ﷺ فأعينونا على دفنه.

فبكى عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه وقال: صدق رسول اللَّه ﷺ تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك[(١)].

ثم نزل هو وأصحابه فوارَوْه .

وفي رواية قالت زوجته: لمّا حضرت أبا ذر الوفاة، بكيت.

فقال لي: ما يبكيك؟ قلت: ما لي لا أبكي، وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفناً، ولا يدان لي في تغييبك[(٢)].

قال: أبشري، ولا تبكي، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لنفرٍ أنا فيهم: ليموتن الرجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المسلمين.

وليس أحدٌ من أولئك النفر إلا مات في قرية وجماعة.

وهذا تصديق لقول النبي ﷺ وإيمان به.

يقول: فأنا ذلك الرجل، فواللَّه ما كذَبت وما كُذِبت، فأبصري الطريق.

تقول أم ذر: أنّا وقد ذهب الحاج، وتقطعت الطرق؟ فقال: اذهبي، فتبصري.

---

(١) حسنه ابن كثير كما مضى.
(٢) لا أستطيع حتى أن أدفنك.

قالت: فكنت أستند إلى الكثيب(١) أتبصّر، ثم أرجع فأمرضه.

فبينما أنا على ذلك، إذ أنا برجالٍ على رحالهم، تخضّ بهم رواحلهم(٢)، فأشرت إليهم.

فأسرعوا إليّ، حتى وقفوا عليَّ فقالوا: يا أمة اللَّه ما لك؟ قالت: امرؤ من المسلمين يموت، تكفنونه؟ قالوا: ومن هو؟ قالت: أبو ذر.

قالوا: صاحب رسول اللَّه ﷺ.

قالت: نعم.

ففدَّوْه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لنفرٍ وأنا فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر رجل إلا وقد هلك في جماعة، واللَّه ما كَذَبتُ وما كذِبْت، إنه لو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي أو لامرأتي لم أكفّن إلا في ثوبٍ هو لي أو لها.

فإني أنشدكم اللَّه أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً(٣).

وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال إلا فتى من الأنصار، قال: أنا يا عم أكفنك في ردائي هذا، وفي ثوبين من عيبتي من غزل أمي. قال: أنت فكفِنِّي.

---

(١) كوم من الرمال.
(٢) تمشي بهم مسرعة.
(٣) لم يتوسخ بالسلطة.

فَكَفَّنَه الأنصاري وقاموا عليه بعد أن مات ودفنوه في نفرٍ كلهم من أهل اليمن. أخرجه ابن حبّان في صحيحه[١] بإسناد حسن.

ديار ثمود

لما ذهب النبي ﷺ إلى تبوك، مرّ في الطريق على ديار ثمود وهي الحِجْر.

فقال: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ أحد منكم إلا ومعه صاحب له.

وذلك أن هذه الديار ديار معذبين فالنبي ﷺ أمر الناس أن لا يدخلوا ديار المعذبين إلا وهم باكون أو متباكون، وفي أمر النبي ﷺ أن يلقوا ما طبخوا وأن يأخذوا العجين ويعلفوه للإبل دليل على تحريم شرب الماء من ديار المعذبين.

ومع ذلك نجد كثيراً من جهلة الناس يذهبون إلى ديار ثمود، يمرحون ويضحكون وهذا مما لا يجوز وذلك أن النبي ﷺ لما مر بالحِجْرِ استحث راحلته وقال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم.

فلذلك كان النبي ﷺ يُسرع في وادي مُحَسِّر في مكة لأن هذا الوادي هو الذي أهلك اللّه فيه أصحاب الفيل.

---

(١) من كتاب التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث.

آيتان نبويتان

* وفي تبوك أصبح الناس مع رسول اللَّه ﷺ وليس معهم ماء فقام صلوات اللَّه وسلامه عليه فاستسقى لهم، فأرسل اللَّه تبارك وتعالى سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء.

وفيها ضلّت ناقة النبي ﷺ فقال زيد بن الصيْت وكان منافقاً: أليس يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: إنّ رجلًا يقول كذا وكذا، ثم قال: وإني واللَّه لا أعلم إلا ما علّمني اللَّه.

[أين الذين يزعمون أن النبي ﷺ يعلم الغيب؟ أين الذين يزعمون أن النبي ﷺ يعرف أحوالهم وما يحدث لهم؟ إن هذا واللَّه من الباطل].

وقد دلّني اللَّه عليها وهي في الوادي في شِعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها(١).

فانطلِقوا حتى تأتوني بها.

فانطلَقوا وأتوْه بها صلوات اللَّه وسلامه عليه. (ولذلك لا يجوز إذا سئل إنسان أن يقول اللَّه ورسوله أعلم إلا في الأمور الشرعية، أما في أمور الدنيا قل اللَّه وحده أعلم).

(١) حبلها تعلّق بشجرة.

ليتني كنت صاحب الحفرة

في الطريق إلى هذه الغزوة مات عبداللَّه ذو البجادين، فعن عبداللَّه بن مسعود قال: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبداللَّه ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول اللَّه ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما». فدلياه إليه، فلما هيأه لشِقّه[١] قال: «اللَّهم إني قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه».

يقول عبداللَّه بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[٢].

وقال ﷺ: إن في المدينة لأقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم.

قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم. حبسهم العذر[٣].

وعن عبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن ساعة العسرة.

فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيْظ شديد، فنزلنا منزلًا فأصابنا به عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده.

---

(١) وضعه الوضع الصحيح في القبر.
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٢٢).
(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٤١).

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول اللَّه إن اللَّه عوّدك في الدعاء خيراً، فادع اللَّه لنا.

قال رسول اللَّه ﷺ: «أو تحب ذلك؟» قال: نعم.

فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه إلى السماء فلم يرجعهما.

فقالت السماء[١] فأطلت ثم سكبت، فملؤا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر[٢].

نتيجة تبوك

ذهب النبي ﷺ إلى تبوك وعسكر هناك وكان مستعداً للقاء العدو، أما الرومان وحلفاؤهم الذين كانوا قد خرجوا لقتال النبي ﷺ فقد أخذهم الرعب لما سمعوا بزحف النبي ﷺ إليهم فلم يجترؤوا على التقدم واللقاء.

ولذلك قال النبي ﷺ: «نصرت بالرعب بمسيرة شهر»[٣].

فهذا هو الرعب، وتفرقوا في البلاد فلم يكن هناك قتال بين النبي ﷺ وبين الروم وهكذا كانت غزوة تبوك غنيمة باردة بدون قتال.

أكيدر دومة

رجع النبي ﷺ من تبوك وكان قد بعث خالد بن الوليد إلى أُكيْدر دومة

(١) أذنت.

(٢) رواه البيهقي كتاب الضحايا باب ما يحل من الميتة.

(٣) رواه البخاري (٣٣٥).

وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كِندة، كان نصرانياً وكان ملكاً على دومة فقال رسول اللّه ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر.

فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صافية، وهو على سطح له ومعه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر.

فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا واللّه.

قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد.

فنزل فأمر بفرسه فأُسرِج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخٌ لهم يقال له: حسان، فركبوا وخرجوا معه لمطارَدتها.

فلما خرجوا، تلقّتهم خيل رسول اللّه ﷺ، فأخذته.

فبعث به خالد إلى رسول اللّه ﷺ، فحقن الرسول ﷺ دمه وصالحه على الجزية ثم خلا سبيله. فرجع أكيدر سالماً إلى أهله(١).

محاولة ثالثة لاغتيال النبي ﷺ

رجع النبي ﷺ من تبوك مظفراً منصوراً وكفاه اللّه جلّ وعلا القتال.

ولكن وقعت حادثة تحتاج إلى تأمل ووقفة، ألا وهي أن بعض المنافقين الذين خرجوا مع النبي ﷺ حاولوا قتله ﷺ، إذْ تآمروا أن يطرحوا النبي ﷺ من رأس عقبة في الطريق(٢)، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فلما

---

(١) رواه البيهقي كتاب الجزية باب من قال تؤخذ منهم الجزية.
(٢) من مكان مرتفع.

غشيهم الرسول ﷺ، أُخبر خبرهم[١]، فقال صلوات اللّه وسلامه عليه: من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فإنه أوسع لكم وأخذ الرسول ﷺ العقبة وأخذ الناس ببطن الوادي إلا هؤلاء جاؤوا خلف النبي ﷺ يريدون رميه من العقبة.

فلما رأوا الناس ابتعدوا عن الرسول ﷺ تلثموا واستعدوا وهموا بهذا الأمر العظيم والعياذ باللّه.

فأمر النبي ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب الرسول ﷺ منهم، فأمر حذيفة أن يردهم قال: قل لهم أن يرجعوا إلى بطن الوادي.

وأبصر حذيفة غضب رسول اللّه ﷺ فرجع ومعه مِحْجَل[٢]، فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها بها وأبصر القوم وهم متلثمون، ولا يشعر بذلك إلا لفعل السفر[٣]، فأرعبهم اللّه سبحانه وتعالى حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر له.

فأسرعوا حتى خالطوا الناس حتى لا يُعرفوا وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول اللّه ﷺ.

فقال رسول اللّه ﷺ: «اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمّار». وأسرَعوا حتى استووا بأعلاها.

---

(١) أخبره اللّه تعالى بما يمكرون.
(٢) حديدة صغيرة.
(٣) متلثمون لأجل السفر فقط.

فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت من هؤلاء الرهط؟ أو عرفت أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وكانت ظُلْمة يا رسول اللَّه، وغشيتهم وهم متلثمون.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟» قالوا: لا واللَّه يا رسول اللَّه ما عرفنا.

قال: «فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا اطلعت في العقبة طرحوني منها».

قالوا: أَوَلا تأمر بهم يا رسول اللَّه إذاً فنضرب أعناقهم.

قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه».

وسمّاهم لحذيفة وقال: اكتمهم.

وفي رواية أنه سمّاهم لحذيفة وعمار وقال: اكتماهم.

وفي بعض طرق هذه القصة ما ذكره ابن إسحاق في سيرته ومغازيه: أن النبي ﷺ لما أصبح قال لحذيفة: ادع لي عبداللَّه بن أبيّ، وأبا خاطر الأعرابي، وأبا عامر، والجلّاس بن سويد بن الصامت وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة، وإن كان محمد وأصحابه خيراً منّا، إنّا إذاً لغنم وهو الراعي ولا عقل لنا وهو العاقل.

وأمره كذلك أن يدعوَ مجمع بن حارثة ومليحاً التيمي وهو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام بعد ذلك، كما أمره أن يدعو حصن بن نمير، وطعيمة بن أبيرق، وعبداللَّه بن عيينة وهو الذي قال لأصحابه: اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله، فواللَّه ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل.

فدعاه النبي ﷺ فقال له: ويحك! ما كان ينفعك من قتلي لو أني قتلت؟ فقال عبداللّه: فواللّه يا رسول اللّه لا نزال بخير ما أعطاك اللّه النصر على عدوك، إنما نحن باللّه وبك.

فتركه رسول اللّه ﷺ وقال: ادعُ لي مرة بن الربيع وهو الذي قال: نقتل الواحد الفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين.

وقال له رسول اللّه ﷺ: ويحك! ما حملك على أن تقول الذي قلت؟ فقال: يا رسول اللّه، إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك لعالم به، وما قلت شيئاً من ذلك.

فجمعهم رسول اللّه ﷺ وهم اثنا عشر رجلًا، وأخبرهم بقولهم صلوات اللّه وسلامه عليه ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم، وأطلع اللّه سبحانه وتعالى نبيه على ذلك وعلّمه ما كان منهم.

وهم الذين قال اللّه فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

مسجد الضرار

قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك بنى بعض المنافقين مسجداً وقالوا للنبي ﷺ: تعال فصل بهذا المسجد ركعتين أو صلاة من الصلوات ثم نتخذه بعد ذلك مسجداً.

فقال النبي ﷺ: إذا رجعت من تبوك أفعل إن شاء اللَّه. وذلك قريباً من مسجد قباء، وأرادوا أن يصلي لهم رسول اللَّه ﷺ حتى يروج لهم ما أرادوا من الفساد والكفر والعناد، فعصم اللَّه رسوله ﷺ من الصلاة فيه، وذلك أنه كان على جناح سفرٍ إلى تبوك.

قال الحافظ ابن كثير: فلما رجع منها(١)، نزل بذي أوان(٢) فنزل عليه الوحي بشأن هذا المسجد وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

وأما قول اللَّه تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ المسجد هذا اتخذ ضراراً أي للإضرار بالمسلمين، وكفراً أي ما أرادوا به وجه اللَّه، وتفريقاً بين المؤمنين أي عن طريق الجلوس بهذا المسجد وحياكة المؤامرات، وإرصاداً لمن حارب اللَّه ورسوله من قبل أي يكون هذا المسجد مكاناً لاجتماع من حارب اللَّه ورسوله من قبل.

---

(١) من تبوك.

(٢) مكان في الطريق إلى المدينة.

وهذا أبو عامر الراهب كان نصرانياً والذي يسمى بأبي عامر الفاسق وذلك أنه دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام، فذهب إلى أهل مكة يستنفرهم على رسول اللَّه ﷺ، فجاؤوا عام أحد لقتال النبي ﷺ، ثم ذهب أبو عامر هذا إلى ملك الروم «قيصر» يستنصره على رسول اللَّه ﷺ، وكان يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين، فبنوْا هذا المسجد، في الصورة الظاهرة أنه مسجد، وباطنه دار لحرب وقتال النبي ﷺ، وهو مقرٌ لمن يفد من رسل أبي عامر الراهب، ومجمع كذلك لمن هو على طريقتهم من المنافقين.

ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي إنما أردنا ببنائه الخير، واللَّه يشهد إنهم لكاذبون لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم قال: لا تقم فيه أبدا، فنهاه عن القيام فيه لئلا يقرر أمره، ثم أمره وحثه على القيام في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ألا وهو مسجد قباء.

عندها أمر النبي ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليذهبا إلى ذلك المسجد الظالم أهله فيحرقاه بالنار، فذهبا فحرقاه بالنار. انتهى كلامه

حكم مسجد الضرار

وهذا الحكم ليس خاصاً بهذا المسجد بل كل مسجد لم يبنَ على التقوى فإن مصيره أن يهدم لأن الأصل في بناء المسجد أن يبنى على تقوى من اللَّه تبارك وتعالى.

وما لم يبنَ على تقوى من اللَّه تبارك وتعالى فإنه لا تجوز الصلاة فيه، ولذلك يفرق بين البيت والكنيسة والمسجد الذي يبنى للضرار، فالبيت يمكن أن يحول إلى مسجد وكذا الكنيسة يمكن أن تحول إلى مسجد لأنها ما بنيت أصلًا كمسجد، لكن أن يبنى على أنه مسجد وهو للضرار فلا يجوز أن يصلى فيه، بل يجب أن يهدم ويبنى من جديد على تقوى من اللَّه تبارك وتعالى.

المتخلفون عن تبوك

في غزوة تبوك تخلّف جماعة من المسلمين عن رسول اللَّه ﷺ، وهم على خمسة أقسام:

الأول: تخلفوا عن الرسول ﷺ بأمره، فهم مأمورون مأجورون، كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومحمد بن مسلمة رضي الله عنه وغيرهما.

الثاني: متخلفون معذورون، وهم المرضى والضعفاء ويدخل فيهم النساء والصبية والشيوخ.

الثالث: مقلّون فقراء وهم البكاؤون كأمثال: علبة بن زيد وغيره، الذين قال تعالى فيهم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

الرابع: مذمومون وهم المنافقون الذين تخلفوا عن الرسول ﷺ كجد بن قيس الذي قال: ائذن لي ولا تفتني.

والذين قالوا لأصحابهم لا تنفروا في الحر.

الخامس: عصاة مذنبون، أخطؤوا وهم قسمان:

القسم الأول: أبو لبابة وأصحابه.

عن ابن عباس في قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضروا رجوعه أوسق(١) سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، فلما مر بهم رسول اللَّه ﷺ قال: من هؤلاء؟ قالوا: أبو لبابة وأصحابه، تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم.

قال: وأنا أقسم باللَّه لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون اللَّه عز وجل هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين.

فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون اللَّه هو الذي أطلقنا.

فأنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]، وعسى من اللَّه [أي واجب على اللَّه جل وعلا أوجبه على نفسه، وهنا معناها أنه تاب عليهم]، فلما أُنزلت هذه الآية أرسل إليهم رسول اللَّه ﷺ، فأطلقهم وعذرهم.

فجاؤوا بأموالهم وقالوا: يا رسول اللَّه، هذه أموالنا تتصدق بها عنا واستغفر لنا.

---

(١) ربط.

فقال: ما أمرت أن آخذ أموالكم.

فأنزل اللَّه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

القسم الثاني: وهم الذين قال اللَّه تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] وهم الثلاثة الذين لم يربطوا أنفسهم.

توبة كعب بن مالك

وهذه القصة أخرجها الإمام مسلم(١) رحمه اللَّه عن ابن شهاب أنه قال: ثم غزا رسول اللَّه ﷺ تبوك وهو يريد الروم ونصارى العرب بالشام قال ابن شهاب: فأخبرني عبدالرحمن بن عبداللَّه بن كعب بن مالك أن عبداللَّه بن كعب كان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك، قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلّف عنه، إنما خرج رسول اللَّه ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع اللَّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة(٢) حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس

(١) (٢٧٦٩).
(٢) الليلة التي بايع الأنصارُ فيها الرسول ﷺ.

منها، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، واللَّه ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها الرسول ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول اللَّه ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ(١)، وكل يعرف صاحبه.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيٌ من اللَّه سبحانه وتعالى، وغزا الرسول ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر(٢)، فتجهز الرسول ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو كي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجِد، فأصبح رسول اللَّه ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً، ثم غدوت (أي لأتجهز) فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارق الغزو(٣).

[وهذا يبين أن على الإنسان أن ينتبه إلى قضية مهمة ألا وهي أنه يجب أن يكون جاداً، فهذا التسويف يضعف الهمّة حتى يترك الإنسانُ ما كان قد عزم عليه.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا]]

---

(١) لا يوجد كتاب للجند.
(٢) أميل إليها.
(٣) بعدوا عني.

قال: فهممت أن أرتحل فأُدرِكهم فيا ليتني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج النبي ﷺ أني لا أرى لي أسوَة، لا أرى إلا رجلًا مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر اللَّه من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول اللَّه ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم في تبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول اللَّه، حبسه برداه والنظر في عِطفيه.

فرد عليه معاذ بن جبل قائلًا: بئس ما قلت، واللَّه يا رسول اللَّه ما علمنا عليه إلا خيرا.

فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مبيضاً يزول به السراب (أي قادم من بعيد)، فقال رسول اللَّه ﷺ: كن أبا خيثمة.

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

أخماس في أسداس

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول اللَّه قد توجه قافلًا، حضرني بثي[1]، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول اللَّه ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو بشيء أبداً، فأجمعت صدقه.

(١) حزني.

وصبّح رسول اللَّه ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من السفر بدأ في المسجد وركع فيه ركعتين، ثم جلس إلى الناس، فلما فعل ذلك وجلس جاءه المنافقون المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقَبِل منهم رسول اللَّه ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى اللَّه، حتى جئت فلما سلمت تبَسَّم تبسُّم المُغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك[١]؟ قلت: يا رسول اللَّه، إني واللَّه لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلًا، ولكني واللَّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني كما رضيت عن أولئك، ليوشكن اللَّه أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ عليّ فيه، إني لأرجو فيه عُقبى اللَّه.

واللَّه ما كان لي عذر، واللَّه ما كنت قط أقوى ولا أيسر منّي حين تخلفت عنك.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «أمّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي اللَّه فيك».

فقمت، وثار رجالٌ من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: واللَّه ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن تكون اعتذرت إلى رسول اللَّه ﷺ بما اعتذر إليه المخلّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول اللَّه ﷺ لك.

---

(١) لديك بعير تسير عليه.

قال كعب: فواللَّه مازالوا يؤنبونني حتى كدت أن أرجع إلى رسول اللَّه ﷺ أُكَذِّب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك.

قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية.

فذكروا لي رجليْن صالحيْن، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول اللَّه ﷺ المسلمين عن كلامنا، فاجتنبنا الناس.

[نهى المسلمين عن أن يكلموهم وهنا يمكن الابتلاء مع العلم أنه لم ينه عن كلام المنافقين، مع أن المنافقين جمعوا الشر من ثلاثة أوجه:

الأول: أنهم كهؤلاء تخلفوا بدون عذر.

الثاني: أنهم منافقون.

الثالث: أنهم كذبوا على النبي ﷺ.

قال أهل العلم: لأن الهجر علاج، والعلاج ينفع مع المؤمن ولا ينفع مع المنافق، فذنب المنافق أعظم من أن ينفع معه الهجر].

قال كعب: وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان مما وقع، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم.

فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول اللَّه ﷺ وأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول: هل حرّك شفتيه وردّ السلام؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فواللَّه ما ردّ عليّ السلام.

فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك باللَّه هل تعلم أني أحب اللَّه ورسوله؟ قال: فسكت.

فعدتُ فناشدتُه فسكت، فعدتُ فناشدتُه فقال: اللَّه ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

شدة البلاء

بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌ من نبط أهل الشام(١)، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون إليّ، حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللَّه بدار هوان، ولا مضيَعة، فالحق بنا نواسك.

قال: وقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء.

فتيممت بها التنور، فسجرتها.

(١) فلاح من الشام.

[وهذا فيه مبادرة إلى إتلاف ما يُخشى منه الإفساد والمضرة في الدين، فعلى من كان عنده أفلام خليعة أو صور أو مواقع على الإنترنت أو غيرها أن يتخلص منها إذا تاب حتى لا يرجع، إليها إذا راودته نفسه والشيطان].

قال كعب: حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي(١)، وإذا رسول رسولُ اللَّه ﷺ يأتيني فقال لي: إن رسول اللَّه ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنّها.

قال: فأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت: لامرأتي الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضيَ اللَّه في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت له: يا رسول اللَّه، إن هلال بن أمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنّك.

فقالت: فإنه واللَّه ما به حركة إلى شيء، وواللَّه مازال يبكي منذ أن كان من أمره ما كان.

فقال كعب: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول اللَّه ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه.

قال: فقلت: لا استأذن فيها رسول اللَّه ﷺ، وما يدريني ما يقول فيَّ رسول اللَّه ﷺ إذا استأذنته فيها، فأنا رجل شاب.

---

(١) تأخر.

فلبثت في ذلك عشر ليالٍ، فتمّت الخمسون، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

وجاء الفرج

ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللَّه عز وجل منا، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت.

سمعت صوت صارخٍ أوفى على سَلْعٍ(١)، وبأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أَبْشر.

فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء فرج.

[وهذا فيه أن الإنسان إذا جاءه خبر يفرحه يسجد للَّه شكرا]، فآذن رسول اللَّه ﷺ الناس بتوبة اللَّه علينا، حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا.

فذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون وركض رجلٌ إليّ فَرَساً(٢)، وسعى ساعٍ من أسلم قِبَلي وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، واللَّه ما أملك غيرهما يومئذ، فاستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول اللَّه ﷺ [وهذا يبين لنا مدى حبهم لرسول اللَّه فهو يأمر بالعقوبة

(١) صعد على جبل سلع.
(٢) ركب على فرس.

وهو أول من يأتيه]، يتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنك توبة اللَّه عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول اللَّه ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد اللَّه يهرول حتى صافحني وهنأني واللَّه ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعب لا ينساها لطلحة.

فلما سلمت على رسول اللَّه ﷺ، قال وهو يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك.

فقلت: أمن عندك يا رسول اللَّه أم من عند اللَّه؟ فقال: لا. بل من عند اللَّه.

وكان رسول اللَّه ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك.

فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول اللَّه إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللَّه وإلى رسوله ﷺ.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «أمسك بعض مالك، فهو خير لك».

قال: فإني أُمسك سهمي الذي بخيبر فقط.

قال: وقلت: يا رسول اللَّه، إن اللَّه إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت.

قال: فواللَّه ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني اللَّه به، واللَّه ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني اللَّه فيما بقي.

قال: فأنزل اللَّه تبارك وتعالى ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨]، واللَّه ما أنعم اللَّه عليّ من نعمة قط بعد إذ هداني اللَّه للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول اللَّه ﷺ ألا أكون كذبت فأهلكُ كما هلك الذين كذبوا إن اللَّه تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦] فلنتصور كعباً الآن يقرأ هذه الآيات في صلاته ويدري أن اللَّه يتكلم عنه وعن صاحبيه ويقرأ كذلك كلام اللَّه عن المنافقين الذين كذبوا وكيف سلمه اللَّه من الكذب. باللَّه كيف يكون شعوره لاشك أنها سعادة لا توصف، بل هو كما قال النبي ﷺ: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك».

قال كعب: كنا خُلّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول اللَّه ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجى رسول اللَّه ﷺ أمرنا حتى قضى اللَّه فيه، فبذلك قال اللَّه عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الذي ذكر اللَّه مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا.

غزوات النبي

هذه الغزوة هي آخر غزوات النبي ﷺ وقد ساق لنا شاعر النبي ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدة تذكر غزوات النبي ﷺ يمدح فيها الأنصار مع رسول اللَّه ﷺ، فيقول حسان:

ألست خير مَعَدٍّ كلِّها نفراً ومعشراً ... إن همُ عَمّوا وإن حصلوا
قومٌ همُ شهدوا بدراً بأجمعهم ... مع الرسول فما آلوا وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد ... منهم ولم يكُ في إيمانه دخلُ
ويوم صبّحهم في الشِّعب من أحد ... ضربٌ رصينٌ كحرِّ النار مشتعلُ
ويوم ذي قَرَدٍ يوم استثار بهم ... على الجياد فما خانوا وما نكلوا
وذا العشيرة جاسوها بخيلهم ... مع الرسول عليها البيض والأسل
ويوم ودّان أجلَوْ أهله رقصاً ... بالخيل حتى نهانا الحَزن والجبل
وليلة طلبوا فيها عدوهم ... للَّه واللَّه يجزيهم بما عملوا
وليلة بحنين جالدوا معه ... فيها يعلّهمُ في الحرب إذ نهلوا
وغزوة يوم نجد ثم كان لهم ... مع الرسول بها الأسلاب والنّفل
وغزوة الرقاع فرّقنا العدو به ... كما يفرق دون المشرب الرسل
ويوم بويع كانوا أهل بيعته ... على الجلاد فآسوْه وما عدلوا
وغزوة الفتح كانوا في سريته ... مرابطين فما طاشوا وما عجزوا
فيوم خيبر كانوا في كتيبته ... يمشون كلهم مستبسل بطل
بأبيض ترعش في الأَيْمان عارية ... تعوج في الضرب أحياناً وتعتدل
فيوم سار رسول اللَّه محتسباً ... إلى تبوك وهم راياته الأول

وساسة الحرب إن حرب بدت لهم حتى بدا لهم الإقبال فالقفل
أولئك القوم أنصار النبي وهم قومي أصير إليهم حين اتصلُ
ماتوا كراماً ولم تنكث عهودهم وقتلهم في سبيل اللَّه إذ قتلوا

حج أبي بكر الصديق ﷺ بالناس

رجع النبي ﷺ من تبوك وبقي في طيبة (المدينة المنورة) بقية رمضان وشوال وذي القعدة، ثم بعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق أميراً على الحج، وذلك سنة تسع من مهاجره.

فخرج أبو بكر حاجاً بالناس، ونزلت على النبي ﷺ أوائل سورة براءة في بيان أحكام العهود التي بينه وبين المشركين.

قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: ١ – ٥].

لما نزلت هذه الآيات على رسول اللَّه ﷺ أمر علي بن أبي طالب أن يخرج خلف أبي بكر بهذه الآيات، ليرد إلى المشركين عهودهم، وكان من

عادة العرب أنه إذا عاهد أحدهم عهداً لا ينقض عهده ولا يرده إلا هو أو رجل من أهل بيته، فلما وصل عليٌّ إلى أبي بكر قال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور.

فدخل أبو بكر الصديق إلى مكة حاجاً في الناس تلك السنة، وقام عليٌّ رضي الله عنه ينادي في الناس: أيها الناس:

* لا يدخل الجنة كافر.

* ولا يحج بعد العام مشرك.

* ولا يطوف في البيت عريان.

* ومن كان له عهد عند رسول اللَّه فهو إلى مدّته[1].

وذلك أن المشركين انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

الأول: لهم عهد فهم إلى مدتهم كما قال علي رضي الله عنه، وينتهي بانتهاء مدته.

الثاني: ليس لهم عهد فهؤلاء أمهلهم اللَّه تبارك وتعالى أربعة أشهر.

الثالث: لهم عهد ولكنه ينتهي قبل أربعة أشهر.

فهؤلاء اختلف فيهم أهل العلم، هل مدتهم إلى أربعة أشهر أم إلى مدتهم التي هم عليها؟ والظاهر أنه إلى أربعة أشهر، واللَّه أعلم.

وعن يزيد بن يثيع قال: سألنا علياً: بأي شيء بُعثت في الحجة؟

قال: بُعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩١) نحوه.

بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر. أخرجه أحمد والترمذي وحسّنه[١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر، يأذّنون بمنى: ألّا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف في البيت عريان، ثم أردف النبي ﷺ أبا بكر بعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فأمره أن يأذن ببراءة، قال: فأذن معنا عليّ بأهل منى يوم النحر ببراءة، وألّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[٢].

***

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٢)، أحمد (١/ ٣).
(٢) رواه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧).

عام الوفود سنة ٩ هـ

في هذا العام نزل قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾، ومصداق هذه الآية أن الوفود صارت تأتي رسول اللَّه أفواجا يتبع كلُّ فوج فوجا إلى مدينة النبي ﷺ، يبايعون النبي ﷺ على الإسلام أو يصالحونه.

وفد ثقيف:

فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يومئذ، وفيهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغر الوفد، فقال المغيرة بن شعبة: يا رسول اللَّه، أنزل قومي عليَّ فأكرمهم، فإني حديث الجرح فيهم [أي أنه قبل أن يسلم عدا على بعض قومه فقتلهم ثم أقبل بأموالهم إلى النبي ﷺ وأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فنقبل منك، وأما المال فلا لأننا لا نغدر].

فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا أمنعك أن تكرم قومك ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن».

ثم أمره بعد أن أكرمهم أن ينزل وفد ثقيف في المسجد، وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوْا، وكان رسول اللَّه ﷺ إذا خطب لا يذكر نفسه(١)، فلما سمعه وفد ثقيف قالوا: يأمرنا أن نشهد أنه رسول اللَّه، ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغه قولهم قال: فإني أول من شهد أني رسول اللَّه.

---

(١) يحمد اللَّه فقط.

وكانوا يغدون إلى رسول اللَّه ﷺ كل يوم، ويُخلّفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم لأنه صغير، فكان عثمان إذا رجع القوم في الهاجرة[١] وناموا، ذهب إلى رسولَ اللَّه ﷺ فسأله عن الدين وسمع منه القرآن فاختلف إليه مراراً حتى فقُه في الدين والعلم، وكان إذا وجد رسول اللَّه نائماً ذهب إلى أبي بكر وكان يكتم ذلك عن أصحابه فأعجب ذلك رسول اللَّه ﷺ وأحبه.

فمكث الوفد يختلفون إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم مزاياه، فأسلموا.

فقال كنانة بن عبد ياليل: هل أنت مقاضينا[٢] حتى نرجع إلى قومنا؟ قال: نعم.

إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم.

قال كنانة: أرأيت الزنا؟ فإنّا قوم نغترب فلابد لنا منه.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: هو عليكم حرام، فإن اللَّه عزّ وجل يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

قالوا: أفرأيت الربا؟ فإن أموالنا كلها ربا.

قال: لكم رؤوس أموالكم، فإن اللَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قالوا: أفرأيت الخمر؟ فإنه عصير أرضنا لابد لنا منها.

قال: إن اللَّه قد حرمها فقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ

(١) الظهيرة.
(٢) أن يكون بيننا وبينك صلح.

﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠][١].

فقام القوم عن رسول اللَّه ﷺ وخلا بعضهم ببعض، قالوا: ويحكم، إنّا نخاف إن خالفناه يوماً كيوم مكة، انطلقوا نكاتبه عما سألناه.

فأتوْا رسول اللَّه ﷺ فقالوا: نعم لك ما سألت.

أرأيت الرّبّة[٢] ما نصنع فيها؟ قال: اهدموها.

قالوا: هيهات، لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها [وذلك أنهم إلى الآن لم يسلموا].

فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك إنما الرّبّة حجر، فقالوا: إنّا لم نأتك يا ابن الخطاب.

وقالوا لرسول اللَّه ﷺ: تولّ أنت هدمها، فأمّا نحن فإنّا لا نهدمها أبداً.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها.

فكاتبوه على هذا، فقال كنانة: ائذن لنا قبل رسولك ثم ابعث في آثارنا، إنّا أعلم بقومنا.

فأذن لهم رسول اللَّه ﷺ وأكرمهم وحباهم وقالوا: يا رسول اللَّه، أمِّر علينا رجلًا يؤمنا من قومنا فأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رأى من حرصه على الإسلام.

فلما خرجوا من عند رسول اللَّه ﷺ قال كنانة: أنا أعلم الناس بثقيف،

---

(١) فعلى الإنسان أن لا يساوم، ولا يجامل في دين الله تبارك وتعالى، ولا يحل ما حرم الله عز وجل أو يحرم ما أحل اللَّه من أجل الدعوة «زعموا».
(٢) صنمهم اللات.

فاكتموهم القضية، وخوّفوهم بالحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً أبيناها عليه.

سألنا أن نهدم اللات والعزى، وأن نحرم الخمر، والزنا، وأن نبطل أموالنا في الربا.

فخرجت ثقيف وحين دنا منهم الوفد يتلقونهم، ساروا العَنَق[(١)] وقَطَروا الإبل وتغشوْا ثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا.

فقال بعضهم لبعض: ما جاء وفدكم بخير ولا رجعوا به فترجل الوفد (أي نزلوا عن خيولهم)، وذهبوا إلى اللات[(٢)] ونزلوا عندها فقال ناس من ثقيف: إنهم لا عهد لهم برؤيتها.

ثم رجع كل رجل منهم إلى أهله وجاء منهم خاصته من ثقيف.

فسألوهم: ماذا جئتم به؟ وماذا رجعتم به؟ قالوا: أتينا رجلًا فظاً، غليظاً، يأخذ من أمره ما يشاء، قد ظهر بالسيف، وداخله العرب، ودان له الناس، فعرض علينا أموراً شداداً، هدم اللات والعزى، وترك الأموال في الربا إلا رؤوس أموالكم وحرّم الخمر والزنا.

فقالت ثقيف: واللّه لا نقبل هذا أبداً.

فقال الوفد: أصلحوا السلاح إذاً وتهيؤوا للقتال، وتعبؤوا له، ورُمّوا حصنكم[(٣)].

---

(١) ببطءٍ.
(٢) اللات: صنم كان بين ظهراني الطائف، يهدى له الهدي كما يهدى لبيت الله الحرام.
(٣) أصلحوه.

فمكثت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة يتجهزون للقتال ثم ألقى اللَّه عز وجل في قلوبهم الرعب، وقالوا: واللَّه ما لنا به طاقة، وقد داخله العرب كلهم فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل. فلما رأى الوفد أنهم رغبوا واختاروا الأمان على الخوف والحرب، قال الوفد: فإنّا قد قاضيناه وأعطيناه ما أحببنا وشرطنا ما أردنا ووجدناه أتقى الناس، وأوفاهم، وأرحمهم، وأصدقهم، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه، فاقبلوا عافية اللَّه.

فقالت ثقيف: فلمَ كتمتمونا هذا الحديث، وغممتمونا أشد الغم؟ قالوا: أردنا أن ينزع اللَّه من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانكم، فأسلموا.

هدم اللات

مكثوا أياماً ثم قدم عليهم رسل رسول اللَّه ﷺ، قد أمّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة.

فلما قدموا عمدوا إلى اللات ليهدموها واستكفّت[1] ثقيف كلها، الرجال والنساء والصبيان، واجتمعوا لينظروا كيف ستفعل اللات بمن أراد هدمها؟ حتى خرج العواتق من الحِجال، لا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة يظنون أنها ممتنعة.

فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين[2] وقال لأصحابه: واللَّه لأضحكنكم من ثقيف.

---

(١) استكفّت: امتنعت.

(٢) الفأس.

فقام وضرب بالفأس ثم سقط يركض كأنه أصيب بسبب ضربه للصنم، فصاح أهل الطائف كلهم ضجة واحدة فقالوا: أبعد اللَّه المغيرة قتلته الرَّبَّة.

وفرحوا حين رأوه ساقطاً، وقالوا: من شاء منكم فليقرب منها، وليجتهد على هدمها، فواللَّه لا تُستَطع.

عندها قام المغيرة وقال: قبحكم اللَّه يا معشر ثقيف، إنما هي لكاع، حجارة ومَدَر، فاقبلوا عافية اللَّه واعبدوه، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجرا حتى ساووها بالأرض.

فكان صاحب المفتاح يقول: ليغضبنّ عليكم الأساس، وليخسفنّ بكم فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفروا حتى أخرجوا ترابها، فبُهِتت ثقيف، وقالت عجوز منهم: أسلمها الربّاع، وتركوا المِصاع(١).

ثم أقبل الوفد على رسول اللَّه ﷺ وأعطوْه الكسوة والحلية والذهب الذي وجدوه عند هذا الصنم، فحمد رسول اللَّه ﷺ اللَّه على نصره وإعزاز دينه.

من فوائد هذه القصة

أولًا: أن الكافر إن سرق من قومه ثم قدم مسلماً، فإنه يُقبل منه الإسلام ولا يقبل منه المال الذي جاء به، لا يضمن هذا المال لقومه إذا أسلم.

ثانياً: جواز إنزال الكافر المسجد ليرى الصلاة، وليتعرف على الإسلام أما لغير ذلك فلا يجوز، خاصة المسجد الحرام قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) لم يدافع اللئام عن هذا الصنم.

ثالثاً: هدم مواضع الشرك، كما فعل النبي ﷺ، وهدمُها أعظم من هدم الحانات، ومحلات الفيديو، وغيرها مما يتسارع كثير من الجهّال إلى تفجيرها وهدمها، فالشرك يجب إزالته ومنع الناس من الوصول إليه بالدعوة بالحسنى، كما فعل النبي ﷺ في مكة فما هدم صنماً، ولكن لما صار ولياً للأمر وصار حاكماً صار يهدمها.

فلا يجوز لأحد أن يهدم مثل هذه الأشياء إلا عن طريق ولي الأمر، الذي هو صاحب الشأن، ولكن على أهل العلم أن يبينوا لأولياء الأمور أن ذلك من الباطل الذي يجب هدمه ويجب إزالته ويجب منع الناس منه ثم بعد ذلك صار الأمر في ذمته، وهو الذي يجب عليه أن يمنع الناس من ذلك كله.

إن من البيان لسحرا

عن ابن عباس قال: جلس إلى رسول اللَّه ﷺ قيس بن عاصم، والزبرقان ابن بدر، وعمرو بن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان فقال: يا رسول اللَّه، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذلك (أي عمرو بن الأهتم).

فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة(١)، مانع لجانبه(٢)، مطاع في أَدْنيْه(٣).

فقال الزبرقان: واللَّه يا رسول اللَّه، لقد علم منّي غير ما قال، وما منعه أن

(١) الخصومة.
(٢) قوي يدفع من بقربه.
(٣) يطيعه الأقربون منه.

يتكلم إلا الحسد.

فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك! فواللَّه إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيّعٌ في العشيرة(١).

واللَّه يا رسول اللَّه، لقد صدقت فيما قلت أولًا، وما كذبت فيما قلت آخراً، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعاً.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: إن من البيان لسحرا.

وفد بني عامر ومحاولة اغتيال النبي ﷺ

وفيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمة وكان هؤلاء رؤساء القوم وشياطينهم فقدم عدو اللَّه عامر بن الطفيل على رسول اللَّه ﷺ وهو يريد الغدر به، فقال له قومه: يا عامر، إن الناس قد أسلموا.

فقال: واللَّه قد كنت آليْتُ ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي وأنا أتبع عقب هذه الفتى من قريش، ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فإني شاغلٌ عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعْلُه بالسيف.

فلما قدموا على رسول اللَّه ﷺ قال عامر: يا محمد، خالِني(٢)، فقال النبي ﷺ: لا واللَّه، حتى تؤمن باللَّه وحده.

---

(١) لا تطيعك العشيرة كلها.
(٢) أريد منك خلوة.

قال: يا محمد، خالِني.

قال: حتى تؤمن باللَّه وحده لا شريك له.

فلما أبى عليه رسول اللَّه ﷺ، قال له: أما واللَّه لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا.

فلما خرج وولى قال رسول اللَّه ﷺ: اللَّهم اكفني عامر بن الطفيل.

فلما خرجوا من عند رسول اللَّه ﷺ قال عامرٌ لأربد: ويحك يا أربد أينما كنت أمرتك به؟ واللَّه ما كان على وجه الأرض أخوف عندي على نفسي منك، وأيم اللَّه لا أخافك بعد اليوم أبدا.

فقال له أربد: لا أبا لك، لا تعجل علي، فواللَّه ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبين الرجل، أفأضربك بالسيف؟[1].

ثم خرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث اللَّه على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله اللَّه تبارك وتعالى في بيت امرأة من بني سلول وهم من أذل العرب وأضعفهم.

فقال عامر بن طفيل: أغُدّة كغُدة الإبل وموت في بيت سلولية [أي إنها موتة قبيحة].

ثم خرج فمات في الطريق.

وفي صحيح البخاري أن عامر بن الطفيل أتى النبي ﷺ، فقال للنبي ﷺ: أخيرك بين ثلاث خصال، يكون لك أهل السهل ويكون لي أهل المَدَر، أو

(١) كلما قررت لأرفع السيف لأقتله وإذا أنت في وجهي فلو ضربت لضربتك.

أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر(١) وألف شقراء(٢). فطعن في بيت امرأة فقال: أغدة كغدة البكر في بيت امرأة من بني فلان، إيتوني بفرسي. فركب ومات على ظهر فرسه(٣).

وفد عبد القيس

في الصحيحين من حديث ابن عباس: أن عبد القيس وفدوا على النبي ﷺ، فقال لهم: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة.

فقال: مرحباً بالوفد، غير خزايا ولا ندامى.

فقالوا: يا رسول اللَّه، إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنّا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، مرنا بأمر فَصْل نأخذ به ونأمر به من وراءنا، وندخل به الجنة.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم: بالإيمان باللَّه وحده، أتدرون ما الإيمان باللَّه؟ شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخُمُس من المغنم.

وأنهاكم عن أربع: عن الدُبّاء، والحنتم، والنقير، والمزفت(٤) فاحفظوهن

(١) حصان أشقر.
(٢) وفرس شقراء.
(٣) (٤٠٩١).
(٤) الدباء والحنتم والنقير والمزفت: آنية كانوا يستخدمونها لشرب الخمر، فالدباء: هي القرع، والحنتم: الجرة الكبيرة، والنقير: جذع من شجر ينقر من وسطه ويوضع فيه الخمر، والمزفت: الذي يوضع فيه الزفت (أي القار).

وادعوا إليهن من وراءكم»[١].

وفي رواية مسلم أنهم قالوا: يا رسول اللَّه، ما علمك بالنقير؟ قال: «بلى، جذع تنقرونه ثم تلقون فيه من التمر ثم تصبون عليه من الماء حتى يغلي إذا سكن شربتموه، فعسى أحدكم أن يضرب ابن عمه في السيف [أي من شدة السُكْر]، وفي القوم رجل به ضربة كذلك».

قال: وكنت أخبئها حياءاً من رسول اللَّه ﷺ.

قالوا: ففيم نشرب يا رسول اللَّه؟ قال: «اشربوا في أسقية الأدم[٢] التي لا يلاث على أفواهها».

قالوا: يا رسول اللَّه، إن أرضنا كثيرة الجرذان، لا تُبقي في أسقية الأدم.

قال: «إن أكلها الجرذان» [أعادها] مرتين أو ثلاثاً.

ثم قال لأشج عبد القيس وكان أحد الوفد: «إن فيك خصلتين يحبهما اللَّه الحِلم والأناة»[٣].

وفد بني حنيفة

قدم وفد بني حنيفة إلى النبي ﷺ وكان فيهم مسيلمة الكذاب.

قال مسيلمة: إن جعل لي محمدٌ الأمر من بعده اتبعته، فقدم مع بشرٍ كثير من قومه، فأقبل النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس ومع النبي ﷺ

(١) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).
(٢) الأدم: الجلد.
(٣) رواه مسلم (١٧).

قطعة من جريد[١] حتى وقف على مسيلمة، فقال لمسيلمة: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدوَ أمر اللَّه فيك ولئن أدبرت (أي عن الإسلام) ليعقرنّك اللَّه، وإني أُراك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني ثم انصرف وتركه.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سألت النبي ﷺ عن قوله: إنك الذي أريت فيه ما أريت، فماذا تريد بهذا القول؟ فأخبرني أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحي إليَّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابيْن يخرجان من بعدي»[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بينما أنا نائم إذ أتيت بخزائن الأرض، فوضع في يدي سواران من ذهب فكبُرا عليَّ وأهمّاني فأوحي إليَّ أن انفخهما فنفختهما فذهبا (أي السواران)، فأولتهما الكذابيْن الذيْن أنا بينهما صاحب صنعاء [الأسود العنسي] وصاحب اليمامة [مسيلمة الكذاب]».

ومع ما قال مسيلمة للنبي ﷺ وما قاله عامر بن الطفيل إلا أن النبي ﷺ ما قتلهما لأنهما من الوفود والرسل، والرسل لا تُقتل، كما أن النبي ﷺ لا يغدر.

---

(١) جريد: سعف النخل.
(٢) رواه البخاري (٧٠٣٤، ٧٠٣٧)، ومسلم (٢٢٧٤).

وفد طيء

قدم على رسول اللَّه ﷺ وفد طيء وفيهم زيد الخيل، وهو سيدهم فلما انتهوا إلى النبي ﷺ كلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وحسن إسلامهم.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه، ثم سمّاه الرسول ﷺ زيد الخير.

فقطع له فيداً (١) وأرضيْن معه، وكتب له بذلك.

وخرج من عند رسول اللَّه ﷺ راجعاً إلى قومه.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: إن ينْجُ زيد من حمى المدينة [وإن هنا بمعنى لا النافية أي لن ينجو].

فلما انتهى إلى ماء من ماء نجد يقال له فردة أصابته الحمى فمات، فلما أحس بالموت قال:

أمرتحل قوم مشارق غدوة ... وأترك في بيت بفردة منجدِ
ألا رب يوم لو مرضت لعادني ... عوائد من لم يبرَ منهن يَجهدِ

---

(١) فيد: مكان شرقي الجبل في طيء.

وفد كِندة

قدم الأشعث بن قيس في وفد كندة على رسول اللَّه ﷺ في ثمانين أو ستين راكباً، فدخلوا على نبي اللَّه ﷺ في مسجده، وقد رجّلوا جُمَمَهُم[(١)]، وتسلحوا فلما دخلوا عليه قال لهم النبي ﷺ: أولم تسلموا؟ قالوا: بلى.

قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقُّوه. فشقَّوه ونزعوه وألقوه.

قال أشعث: قدمنا على رسول اللَّه ﷺ وفد كندة لا يرون إلا أني أفضلهم.

فقلت: يا رسول اللَّه، ألستم منا؟.

قال: لا.

نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا، وذلك أنه كان للنبي ﷺ جدة من كِندة.

وفد الأشعريين

وهم أهل اليمن، قال رسول اللَّه ﷺ: يقدم قوم هم أرق منكم قلوباً.

فقدم الأشعرييون، فجعلوا يرتجزون: غداً نلقى الأحبة، ، محمداً وحزبه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «جاء أهل اليمن هم أَرَقُّ أفئدة وأضعف قلوباً والإيمان يمان والحكمة

(١) جممهم: شعرهم.

يمانية، والسكينة في أهل الغنم والفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر(١) قِبَلَ مطلع الشمس»(٢).

في صحيح البخاري أن نفراً من بني تميم جاؤوا إلى رسول اللَّه ﷺ فقال لهم: «أبشروا يا بني تميم».

قالوا: بشرتنا فأعطنا.

فتغير وجه رسول اللَّه ﷺ.

وجاء نفر من أهل اليمن فقال لهم: «اقبلوا البشرى إذْ لم يقبلها بنو تميم».

قالوا: قد قبلنا.

ثم قالوا: يا رسول اللَّه، جئنا لنتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر (أي أول ما خلق اللَّه سبحانه وتعالى الخلق).

قال: «كان اللَّه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء(٣)».

وفد هَمْدان(٤)

روى البيهقي بإسناد صحيح كما يقول ابن القيم رحمه اللَّه تعالى من حديث أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل

(١) أهل الإبل.
(٢) (٥٢).
(٣) (٣١٩١).
(٤) همَذان بلاد وهمْدان قبيلة عربية.

اليمن يدعوهم إلى الإسلام فقال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه.

ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأمره أن يُقْفِلَ خالداً إلا رجلًا ممن كان مع خالد أحب أن يعقب مع عليٍّ [أي أن يرجع خالد ومن أراد ممن معه ومن أراد أن يبقى معك فليبق].

قال البراء: فكنت فيمن عقب مع عليٍّ فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا.

فصلى بنا علي رضي الله عنه ثم صفّنا صفاً واحداً ثم تقدّم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول اللَّه ﷺ . فأسلمت همدان جميعا.

فكتب علي رضي الله عنه إلى رسول اللَّه ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول اللَّه ﷺ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان، السلام على همدان.

وفيها السجود عند سماع خبر طيب.

وفد نجران

قدم على رسول اللَّه ﷺ وفد نصارى نجران وهم ستون راكباً، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم، فمنهم: العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح، ومعه آخر وهو صاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بكر بن وائل وهو أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مِدراسهم (تعليمهم) وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في

دينهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس.

فلما توجهوا إلى رسول اللَّه ﷺ، جلس أبو حارثة على بغلة له متوجهاً إلى رسول اللَّه ﷺ وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة فقال له كرز: تعس الأبعد[١]، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال له: لمَ يا أخي؟ فقال أبو حارثة: واللَّه إنه للنبي الذي كنا ننتظره.

قال له كرز: فما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

أبو محمد الميورقي

قصة عجيبة مشابهة لهذه القصة يرويها لنا أبو محمد عبداللَّه الميورقي نسبة إلى ميوركا في أسبانيا، وقد كان نصرانيا ثم أسلم وذكر قصة إسلامه، قال: لما بلغت ست سنين من عمري أسلمني والدي إلى معلم من القسيسين، فقرأت عليه الإنجيل، حتى حفظت أكثر من شطره مدة سنتين، ثم أخذت في تعلّم لغة الإنجيل وعلم المنطق في ست سنين، ثم رحلت من بلدي إلى مدينة لاردا من أرض القسطلان، وهي مدينة العلم عند النصارى.

فسكنت في كنيسة لقسيس كبير السن عندهم كبير القدر اسمه نقلاو مارتن، وكانت منزلته فيهم في العلم والدين والزهد رفيعة جداً، انفرد بها في

(١) يريد رسول اللَّه ﷺ.

زمنه عن جميع أهل دين النصرانية، فكانت الأسئلة في دينهم ترد عليه من الآفاق، من جهة الملوك وغيرهم ويصحب هذه الأسئلة كثير من الهدايا الضخمة، ويرغبون جميعاً بالتبرك به وفي قبوله لهداياهم ويتشرفون بذلك.

فقرأت على هذا القسيس علم الأصول[١] وأحكامهم ولم أزل أتقرب إليه بخدمته والقيام بكثير من وظائفه حتى صيرني من أخصّ خواصه، وانتهيت في خدمتي له وتقربي إليه إلى أن دفع إليّ مفاتيح مسكنه، وخزائن مأكله ومشربه جميع ذلك كله على يدي ولم يستثن من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخله مسكنه، كان يخلو فيه بنفسه.

فلازمته على ما ذكرت من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين.

ثم أصابه مرضٌ يوم من الدهر، فتخلّف عن حضور مجلس أقرانه، وانتظره أهل المجلس وهم يتذاكرون مسائل من العلوم إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قول اللَّه عز وجل على لسان عيسى: إنه يأتي من بعده نبي اسمه البارقليط. (إنجيل يوحنا في الإصحاح ١٦ الفقرة الخامسة).

فبحثوا في تعيين هذا النبي مَنْ هو مِن الأنبياء، وقال كل واحد منهم بحسب علمه وفهمه، فعظم بينهم في ذلك مقالهم وكثُر جدالهم ثم انصرفوا من غير تحصيل فائدة في تلك المسألة.

فأتيت مسكن الشيخ صاحب الدرس المذكور فقال لي: ما الذي كان عندكم اليوم من البحث في غيبتي عنكم؟ فأخبرته باختلاف القوم في اسم البارقليط، وأن فلاناً قد أجاب كذا وفلاناً قد أجاب بكذا وسردت له أجوبتهم.

---

(١) أصول النصرانية.

فقال لي: وبماذا أجبت أنت؟ فقلت: بجواب القاضي فلان في تفسيره الإنجيل.

فقال لي: ما قصّرت وقرُبت، وفلان أخطأ، وكاد فلان أن يقارب.

يقول عبد اللَّه الميورقي: فلما قال لي: أخطأ فلان وقرب فلان، ولكن الحق خلاف ذلك كله، لأن تفسير هذا العلم الشريف لا يعلمه إلا العلماء الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل.

فبادرت إلى قدميه أقبلهما، وقلت له: يا سيدي، قد علمتَ أني ارتحلت إليك من بلد بعيد ولي في خدمتك عشر سنين، حصّلت عنك من العلوم جملة لا أحصيها، فلعل من جميل إحسانكم أن تمنوا عليّ بمعرفة هذا الاسم.

فبكى الشيخ وقال لي: يا ولدي واللَّه أنت لتعز علي كثيراً من أجل خدمتك لي وانقطاعك إليّ، وفي معرفة هذا الاسم الشريف فائدة عظيمة لكني أخاف عليك، إن يظهر ذلك عليك تقتلك عامة النصارى.

قلت له: يا سيدي، واللَّه العظيم وحق الإنجيل ومن جاء به لا أتكلم بشيء مما تسره إليّ إلا عن أمرك.

فقال لي: يا ولدي، إني سألتك في أول قدومك عليّ عن بلدك وهل هو قريب من المسلمين؟ وهل يغزونكم أو تغزونهم؟ لأختبر ما عندك من منافرة للإسلام.

فاعلم يا ولدي أن البارقليط هو اسم من أسماء نبيهم محمد ﷺ وعليه نزل الكتاب الرابع(١) المذكور على لسان دانيال عليه السلام.

---

(١) بعد التوراة والإنجيل والزبور وهو القرآن.

فقلت له: يا سيدي، وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟ قال لي: يا ولدي، لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين اللَّه، لأن عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين اللَّه ولكن بدلوا وكفروا.

فقلت له: يا سيدي، كيف الخلاص من هذا الأمر؟ قال: يا ولدي، بالدخول في دين الإسلام.

فقلت له: هل ينجو الداخل فيه؟ قال لي: نعم، ينجو في الدنيا والآخرة.

فقلت: يا سيدي، إن العاقل لا يختار لنفسه إلا أفضل ما يعلم، فإذا علمت فضل دين الإسلام فما يمنعك منه؟ فقال لي: يا ولدي، إن اللَّه لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك به من فضل الإسلام وشرف نبي أهل الإسلام إلا بعد كبر سني ووهن جسمي ولا عذر لنا بل هو حجة علينا قائمة، ولو هداني اللَّه لذلك وأنا في سنك لتركت كل شيء ودخلت في دين الحق، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى من رفعة الجاه والعز والترف وكثرة عرض الدنيا ولو أني ظهر عليّ شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلتني العامة في أسرع وقت، وهب أني نجوت وخَلَصْت إلى المسلمين، فأقول لهم: إني جئتكم مسلماً، فيقولون لي: قد نفعت نفسك بنفسك في الدخول بدين الحق فلا تمنّ علينا بدخولك في دين خلّصت به نفسك من عذاب اللَّه، فأبقى بينهم شيخاً كبيراً فقيراً ابن تسعين سنة، لا أفقه لسانهم، ولا يعرفون حقي فأموت بينهم جوعاً وأنا والحمد للَّه على دين عيسى وعلى ما جاء به يعلم اللَّه ذلك مني.

فقلت له: يا سيدي، أفتدلني أن أمشي إلى بلاد المسلمين وأدخل في دينهم.

فقال لي: إن كنت عاقلًا طالباً للنجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدنيا والآخرة.

[وهنا في قوله وأنا والحمد للّه على دين عيسى، فهذا يكذب فيه على نفسه لأنه قال أيضاً: إنهم بدلوا وكفروا إلا إن كان مسلماً يكتم إسلامه إلا أن يكون يقول بالتوحيد ويكفر بالتثليث ويكتم إيمانه بمحمد ﷺ].

ثم قال لي: ولكن يا ولدي هذا أمر لم يحضره أحد معنا فاكتمه في غاية جهدك وإن ظهر عليك شيء منه قتلتك العامة بحينك، ولا أقدر على نفعك ولا ينفعك أن تنقل ذلك عني، فإني أجحده وقولي مصدق عليك وقولك غير مصدق عليّ.

ثم أخذت أسباب الرحلة.

إلى أن رحلت بعد ذلك إلى تونس ودخلت في دين اللّه تبارك وتعالى[1].

«وكلمة بارقليط هذه يقول عنها الأستاذ عبد الوهاب النجار: جلست مع الدكتور كارلو نيلنو فقال له: يا دكتور ما معنى باركليتوس؟ فأجابني بقوله: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها المُعَزِّي.

فقلت له: إني أسأل الدكتور كارلو نيلنو الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً.

فقال: معناها الذي له حمد كثير.

فقلت له: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ قال: نعم.

---

(١) ومن أراد أن يرجع إلى هذه القصة فقد ذكرها في كتابه تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ففي مقدمة هذا الكتاب ذكر قصته وتحوله من دين النصرانية إلى دين الإسلام.

قلت: إن رسول اللَّه ﷺ من أسمائه أحمد.

فقال لي: يا أخي إنك تحفظ كثيرا، وسكت»[(١)].

يقول ابن عباس عن وفد نجران: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول اللَّه ﷺ، فتنازعوا فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً.

وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً.

فأنزل اللَّه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

رد اللَّه تبارك وتعالى عليهم قولهم فسألوا رسول اللَّه ﷺ عن عيسى صلوات اللَّه وسلامه عليه ما يكون؟ وما يقول فيه المسلمون؟ فأنزل اللَّه تبارك وتعالى قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١].

فطالبهم النبي ﷺ بالمباهلة فوافقوا على المباهلة في أول الأمر فطلب النبي ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ليباهل بهم فلما رأوا صدق

---

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (قصة عيسى).

النبي ﷺ وأنه يريد أن يباهل قالوا له: بل أرسل معنا من يعلمنا هذا الدين.

ولذلك قال شرحبيل لصاحبيْه: لقد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يرد ولم يصدر إلا عن رأيي، وإني واللَّه أرى أمراً مقبلا وأرى واللَّه إن كان هذا الرجل ملكاً مبعوثاً فكنّا أول العرب طعن في عينه، وردّ إليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبنا بجائحة، وأنا أدنى العرب منهم جواراً، وإن كان هذا الرجل نبياً مرسلًا فلاعنّاه فلا يبقى على وجه الأرض منّا شعرة ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي فقد وضعت الأمور على ذراع، فهات رأيك؟ فقال: رأيي أن أحكّمه، فإني أرى رجلًا لا يحكم شططاً أبدا.

فقالا له: أنت وذاك.

فلقي النبي ﷺ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك.

فقال: ما هو؟ قال: حكمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: لعل وراءك أحد يُثرّب عليك[(١)].

فقال: سل صاحبي.

فسألهما فقالا: ما يرد الوادي وما يصدر إلا على رأي شرحبيل.

فقال رسول اللَّه ﷺ: كافر موفق[(٢)].

---

(١) يرد عليك.

(٢) كافر والناس تتبعه.

فرجع النبي ﷺ ولم يلاعنهم وكتب لهم كتاباً طويلا، ثم أرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح ليفقههم في دين اللَّه تبارك وتعالى وكان قد قال لهم: لأرسلنّ معكم أميناً حق أمين.

وأرسل أبا عبيدة وقال: هذا أمين هذه الأمة.

وفد بني سعد بن بكر

عن ابن عباس قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول اللَّه ﷺ فقدم عليه فأناخ بعيره على باب المسجد فعقله (أي ربطه)، ثم دخل على رسول اللَّه ﷺ وهو في المسجد بين أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ [وهذا من جفاء الأعراب]، قال رسول اللَّه ﷺ: أنا ابن عبد المطلب.

فقال: محمد؟

قال: نعم.

فقال: يا ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظٌ عليك في المسألة فلا تجدنّ في نفسك.

قال صلوات اللَّه وسلامه عليه: لا أجد في نفسي، فسل عن ما بدا لك.

فقال: أنشدك اللَّه إلهك وإله أهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آللَّه بعثك إلينا رسولا؟ قال: اللَّهم نعم.

فقال: أنشدك اللَّه إلهك وإله أهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آللَّه أمرك أن نعبده ولا نشرك به شيئا؟ وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال صلوات اللَّه وسلامه عليه: اللَّهم نعم.

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضة الصلاة والزكاة والحج والصيام يسأله عنها بهذه الطريقة.

ثم قال: فإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ولا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة»[(١)].

وفي رواية أنَّ هذا الرجل قال: واللَّه لا أزيد عليها ولا أنقص.

فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «أفلح واللَّه إن صدق»، أخرجه البخاري ومسلم[(٢)].

ثم قدم ضِمام على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما قال: بئست اللات والعزى.

فقالوا: مه يا ضمام، اتق البرص والجنون والجذام.

قال: ويلكم إنهما لا يضران ولا ينفعان، إن اللَّه قد بعث رسولًا وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه وإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً عبده ورسوله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

فواللَّه ما أمسى من ذلك اليوم في حاضرته رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

وهذه من بركات بعض الناس على أقوامهم، أنهم يسلمون بفضل دعائهم لهم، أو محبة القوم لهم، أو نصيحتهم لهم، أو غير ذلك من الأسباب.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

وفد صُداء

لما انصرف النبي ﷺ من الجعرانة، بعث بعوثاً وهيّأ بعثاً استعمل عليه قيس بن سعد بن عبادة وعقد له لواءً أبيض، ودفع إليه راية سوداء، وعسكر معه أربعمئة من المسلمين، وأمره النبي ﷺ أن يطأ ناحية من اليمن، كان فيها صُداء، فقدم على رسول اللَّه ﷺ رجلٍ منهم يقال له: زياد بن الحارث.

وقد علم أن الجيش سيغزو قومه.

فقال لرسول اللَّه ﷺ: يا رسول اللَّه، جئتك وافداً على من ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي.

فردّ الرسول ﷺ قيس بن سعد، وخرج الصدائي إلى قومه، فقدم على رسول اللَّه ﷺ خمسة عشر رجلًا منهم.

فقال سعد بن عبادة: يا رسول اللَّه، دعهم ينزلوا عليّ.

فنزلوا عليه، فحيّاهم، وأكرمهم وكساهم ثم راح بهم إلى رسول اللَّه ﷺ فبايعوه على الإسلام.

فقالوا: نحن لك على من وراءنا من قومنا.

فرجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام.

فوافى الرسول ﷺ منهم مئة رجل في حجة الوداع.

وهناك وفود أخرى وفدت على الرسول ﷺ، وفيما ذكرناه في هذه الوفود كفاية.

حجة الوداع سنة ١٠هـ

في يوم السبت لأربعٍ بقين من ذي القعدة في السنة العاشرة من هجرة الرسول ﷺ، تهيأ صلواتُ اللَّه وسلامه عليه للحج.

عن جعفر الصادق عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنهم قال: قلت لجابر بن عبد اللَّه: أخبرني عن حجة النبي ﷺ.

فقال بيده فعقد تسعاً[(١)] ثم قال: إن رسول اللَّه ﷺ مكث تسع سنين في المدينة لم يحج، ثمّ أُذِّن في الناس في العاشرة أن رسول اللَّه ﷺ حاجٌ فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول اللَّه ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحلَيفة[(٢)]، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول اللَّه ﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي، واستذفري بثوب وأحرمي.

[وهذه السُنة بالنسبة للحائض والنفساء إذا جاءها الحيض أو النفاس قبل إحرامها فإنها تحرم وتغتسل للإحرام وتلبي]، فصلى رسول اللَّه ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء[(٣)] نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، وعن خلفه مثل ذلك.

ورسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل

---

(١) أشار بيده تسعاً.
(٢) ميقات أهل المدينة.
(٣) مكان قريب من ذي الحليفة.

من شيء عملنا به.

فأهلّ بالتوحيد لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وأهلّ الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول اللَّه ﷺ شيئاً منه.

[أي من الناس من يلبي تلبية الرسول ﷺ ومنهم من يلبي غير تلبيته كقول بعضهم: لبيك وسعديك، والخير كله في يديك.

وقول بعضهم: لبيك حقاً حقًا، تعبداً ورقًا.

وبعضهم يكبر وبعضهم يحمد وبعضهم يهلل وهكذا].

قال: ولزم رسول اللَّه ﷺ تلبيته.

قال جابر: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة[1]، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن[2] فرَمَل[3] ثلاثاً ومشى أربعاً.

ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ثم قرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فجعل المقام بينه وبين البيت.

فكان أبي يقول [القائل هو جعفر بن محمد الراوي عن أبيه محمد بن علي ابن الحسين] ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ: إنه كان يقرأ في الركعتين قل هو اللَّه أحد، وقل يا أيها الكافرون، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا.

---

(١) مع الحج.
(٢) الحجر الأسود.
(٣) مشى سريعاً

فلما دنا رسول اللَّه ﷺ من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨]، ثم قال: «أبدأ بما بدأ اللَّه به»، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبله ووحّد اللَّه وكبّره وقال: «لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا اللَّه وحده انجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة.

[هذه السُنة تركها اليوم كثير من الناس، فهم لا يَعْدُون أن يصلوا إلى المروة فينزلون إلى الصفا وهكذا من الصفا إلى المروة سبع مرات، وهذا خلاف هدي النبي ﷺ. فسنة النبي ﷺ الأولى بنا والأحرى أن نتبعها قدر المستطاع].

ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي [أي بين العلمين الأخضرين يجري فيه الرجال دون النساء] سعى حتى إذا صعدتا مشى، حتى أتى على المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدْي ولجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدْي فليحِل وليجعلها عمرة.

والحج ثلاثة أنواع

[١) المفرد: الذي يُفرد الحج وحده.

٢) القارن: الذي يقرن الحج والعمرة، معاً.

٣) المتمتع: الذي يعتمر في أشهر الحج ثم يتحلل ثم يحرم بالحج بعد ذلك.

والصحيح من أقوال أهل العلم أن النبي ﷺ حج قارناً، واختلف أهل العلم في أيها أفضل (الإفراد، القران أو التمتع)، وجمع شيخ الإسلام ابن تيمية بين هذه الأقوال فقال: لكلها فضل، فمن اعتمر في أشهر الحج ثم رجع إلى بلده فالأفضل له أن يفرد الحج، ومن ساق الهدي فالأفضل أن يحج قارناً، ومن لم يسق الهدي فالأفضل له أن يحج متمتعاً كما أمر النبي ﷺ أصحابه أن يفعلوا ذلك].

عود إلى حديث جابر: فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول اللَّه، ألعامنا هذا أم للأبد [أي العمرة مع الحج]؟ فشبّك رسول اللَّه ﷺ واحدة في الأخرى، وقال: «دخلت العمرة في الحج مرتين[1]، لا، بل لأبد الأبد».

وقدم عليٌ من اليمن ببدْنِ النبي ﷺ[2]، فوجد عليّ فاطمة ممن حل[3]، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت فأنكر ذلك عليها فقالت: إن أبي أمرني بهذا.

قال: فكان علي يقول بالعراق بعد ذلك أيام خلافته: فذهبت إلى رسول اللَّه ﷺ محرّشاً على فاطمة بالذي صنعت مستفتياً رسول اللَّه ﷺ فيما ذكرت عنه، قال: فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها.

قال: «صَدَقَتْ، صَدَقَتْ».

قال: ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت اللَّهم إني أهلُّ بما أهلّ به رسولك.

---

(١) قالها مرتين.
(٢) الإبل.
(٣) اعتمرت وتحللت.

[وهذه جائزة أي يجوز للإنسان أن يحدد النسك ويسميه وليس هذا من باب الجهر بالنية لأن النية محلها القلب، ويجوز أن لا يحدد النسك إن كان ينتظر رفقة أو أحد العلماء فيقول: لبيك بما لبى به فلان].

فعليٌّ لم يحدد النسك وإنما قال: لبيك بما لبى به رسول اللَّه، فقال له النبي ﷺ: فإن معي الهدي، فلا تحِل.

قال جابر: فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليٌّ من اليمن، والذي أتى به النبي ﷺ مئة ناقة. [أقل السنة أن يقدم الإنسان هدياً عبارة عن شاة، فإن كانت ناقة فهذا أفضل، وكلما زاد العدد كان أفضل].

قال جابر: فأحل الناس كلهم وقصّروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى(١) فأهلوا بالحج، وركب رسول اللَّه ﷺ فصلى بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر قصراً من دون جمع)، ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر أن تُضرب له بنَمِرة(٢)، فسار رسول اللَّه ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، [لأن قريشاً لا تخرج من الحرم ويسمون أنفسهم الحُمْس أي المتحمسون للدين ولا يدخلون عرفة أبداً]، فأجاز رسول اللَّه ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس(٣) أمر بالقصواء فرُحِّلت له فأتى بطن الوادي(٤)،

(١) يوم الثامن من ذي الحجة.
(٢) مكان قريب من عرفة.
(٣) دخل وقت الظهر.
(٤) وادي عُرنة.

فخَطَب الناس، فقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع».

ثم قال صلوات اللّه وسلامه عليه: «ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث». وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل.

[الرسول عليه الصلاة والسلام يقرر أن أمور الجاهلية انتهت، دماء الجاهلية انتهت، وأول دم أضعه دم ابن عمي وهو ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، فبدأ بنفسه صلوات اللّه وسلامه عليه].

ثم قال ﷺ: «وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع رِبانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا اللّه في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان اللّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه [أي لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه يعني الإسلام]، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه(١)، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبَرّح(٢)، ولهن عليكم رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب اللّه، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللَّهم اشهد، اللَّهم اشهد، اللَّهم اشهد».

---

(١) لا يدخلن بيوتكم أحداً تكرهونه.
(٢) غير مؤلم.

ثم أذن(١) ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر(٢) ولم يصلِّ بينهما شيئاً (أي سنة الظهر الراتبة).

ثم ركب رسول اللَّه ﷺ حتى أتى الموقف(٣)، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وهي عند جبل الرحمة في عرفة، وجعل حبل المشاة بين يديه(٤)، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه في الطريق إلى المزدلفة وقد شنق للقصواء الزمام(٥) حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رحله، ويقول بيده اليمنى: السكينة السكينة.

كلما أتى حبلًا من الحبال أرخى لها(٦) حتى أتى المزدلفة صلوات اللَّه وسلامه عليه، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، وصلاها جمع تأخير وقصر صلوات اللَّه وسلامه عليه ولم يسبّح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة.

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام(٧) فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهللَّه ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جِدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس مخالفة لقريش.

[فهو خالفهم صلوات اللَّه وسلامه عليه في الذهاب إلى عرفة لأنهم لا

(١) بلال.
(٢) جمع تقديم مع قصر.
(٣) عرفة.
(٤) مجتمعهم بين يديه.
(٥) أمسك بالزمام.
(٦) كلما أتى مكاناً فيه صعود أرخى لها حتى تسير قليلًا وتصعد.
(٧) وهو من المزدلفة.

يذهبون إلى عرفة كما ذكرنا آنفاً وظنوا أنه سيقف في المزدلفة كغيره صلوات اللَّه وسلامه عليه، فدفع إلى عرفة ودفعوا معه، ثم بعد ذلك لما رجع إلى المزدلفة ظنوا أنه سيبقى حتى تطلع الشمس كما كانت تفعل قريش بأنها كانت تبقى في المزدلفة حتى تطلع الشمس، فخرج من المزدلفة قبل طلوع الشمس].

وأردف الفضل بن العباس وكان رجلًا حسن الشعر، أبيض وسيما، ولما دفع رسول اللَّه ﷺ مرّت به ظعنٌ(١) يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع الرسول ﷺ يده على وجه الفضل، فحوّل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحوّل رسول اللَّه ﷺ يده إلى الشق الآخر، حتى أتى بطن [وادي] مُحَسّر تحرك قليلًا(٢)، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها، حصى الخذف(٣) رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر ونحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غَبَر(٤) وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببَضْعَة، فجُعلت في قدر فطُبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها، ثم ركب ﷺ فأفاض إلى البيت، فطاف طواف الإفاضة، فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم. فناولوه دلواً، فشرب منه صلوات اللَّه وسلامه عليه. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(٥).

---

(١) بنات.
(٢) أسرع لأن هذا الوادي هو الذي أهلك اللَّه فيه أهل الفيل.
(٣) الخذف والحذف بمعنى واحد وقيل الخذف للحصى والحذف للعصى.
(٤) ما بقى
(٥) (١٢١٨).

ثم بعد ذلك خطب النبي ﷺ يوم النحر، حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شهباء، والناس بين قائم وقاعد، فتكلم بما تكلم به بالأمس، قال أبو بكر: خطب النبي ﷺ يوم النحر فقال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان.

وقال: أي شهرٍ هذا؟ قلنا: اللَّه ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى.

قال: أي بلد هذا؟ قلنا: اللَّه ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

فقال: أليس البلدة [أي مكة]؟.

قلنا: بلى.

فقال: أي يومٍ هذا؟ قلنا: اللَّه ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.

قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم ويسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلّالًا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلّغت؟» قالوا: نعم.

قال: «اللَّهم اشهد، فليبلّغ الشاهد الغائب فربما مبلّغٍ أوعى من سامع»[١].

وفي رواية قال: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجنِ جان على ولده، ولا مولودٌ على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في بلدكم هذا ولكن ستكون له طاعة، فيما تَحْقِرون من أعمالكم فسيرضى به»[٢].

وأقام صلوات اللَّه وسلامه عليه أيام التشريق في منى يؤدي المناسك، ويعلّم الشرائع، ويذكر اللَّه، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم صلوات اللَّه وسلامه عليه، ويمحو آثار الشرك ومعالمه وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً كما أخرج أبو داود[٣] عن سراء بنت نبهان قالت: خطبنا رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه يوم الرؤوس[٤]، فقال: أليس هذا أوسط أيام التشريق.

فكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر.

ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر، وهي قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ نزلت عليه هذه السورة في ذلك المكان صلوات اللَّه وسلامه عليه.

وفي يوم النفر[٥]، نفر صلوات اللَّه وسلامه عليه من منى فنزل بخيْف بني كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه وليلته، وصلى الظهر والعصر

(١) أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨).
(٣) (١٩٥٣).
(٤) سمي يوم الرؤوس لأنه فيه يذبح الهدي.
(٥) الثالث عشر من ذي الحجة.

والمغرب والعشاء ونام.

ثم ركب إلى البيت فطاف به طواف الوداع.

ولما قضى مناسكه، حث الركاب إلى المدينة المنورة ليستأنف صلوات اللَّه وسلامه عليه بقية حياته.

❋ ❋ ❋

وفاة الرسول ﷺ سنة ١١هـ

لما أتم النبي ﷺ الدعوة إلى اللَّه تبارك وتعالى ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. . .﴾ [المائدة: ٣]، وعمّ الإسلام الجزيرة كلها، وبدأ ينتشر خارجها، بدأت طلائع توديع الحياة للنبي ﷺ، وذلك في أمور من أبرزها:

١) أنه صلوات اللَّه وسلامه عليه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام.

٢) تدارَسه جبريل القرآن مرتين، وكان يتدارسه معه مرة واحدة في كل عام.

٣) وقال في حجة الوداع: لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا.

٤) وقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا.

٥) وأنزلت عليه صلوات اللَّه وسلامه عليه سورة النصر في أواسط أيام التشريق، ونعيت له فيها نفسه كما أخرج ذلك البخاري، عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما قال: كان عمر يجلسني مع الشيوخ فقال له عبد الرحمن بن عوف: إنك تقدم عبداللَّه بن عباس وفي أولادنا من هو في سنه أو أكبر.

فأراد عمر أن يظهر لهم فضل عبد اللَّه بن عباس فقال لجمعهم: ما تقولون في قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ

ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾؟ قالوا: إن اللَّه أمر نبيه صلوات اللَّه وسلامه عليه إذا أتم اللَّه الفتح أن يستغفر ربه ويتوب إليه.

فالتفت عمر إلى عبد اللَّه بن عباس فقال: وما تقول أنت؟ فقال عبداللَّه: لا.

قال عمر: فما تقول؟ قال عبد اللَّه: هذه نفس النبي نُعيت له.

فقال عمر: واللَّه ما أعلم منها إلا ما قال عبد اللَّه بن عباس(١).

٦) في صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة، خرج النبي ﷺ إلى أُحُد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، وكان النبي ﷺ لما دفن شهداء أحد كما ذكرنا في أول هذه السيرة المباركة، ولم يصل عليهم، وقال بعض أهل العلم: إن الصلاة عليهم هنا بمعنى الدعاء.

ثم قال النبي ﷺ عندما صعد المنبر: «إني فرطكم(٢) وإني شهيد عليكم وإني واللَّه لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني واللَّه ما أخاف أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»(٣).

وخرج في ليلة ما في منتصفها إلى البقيع وهي مقبرة المدينة، فاستغفر لأهل البقيع وقال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنا لكم ما أصبحتم فيه، بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم بشرهم قائلًا: إنّا بكم لاحقون.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦٩).
(٢) سابقكم.
(٣) رواه البخاري (٤٠٤٢).

وفي آخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة، في يوم الاثنين شهد الرسول ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع أخذه صداع في رأسه واتّقدت الحرارة من فوق العصابة، واشتد به المرض.

عن عبداللَّه بن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فمسسته فقلت: يا رسول اللَّه، إنك لتوعك وعكاً شديدا.

قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم».

قلت: أذلك لأن لك الأجر مرتين؟

قال: «نعم، والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط اللَّه عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها». أخرجه البخاري ومسلم[١].

وقال رسول اللَّه ﷺ كذلك: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة شُدّد عليه في البلاء»[٢].

وأخرج الإمام أحمد[٣] عن أسامة بن زيد أنه قال: لما ثقُل رسول اللَّه ﷺ هبطت وهبط الناس معي [وذلك أنهم قد خرجوا ليغزوا الروم وكان قد جهزهم الرسول ﷺ فلما سمعوا عن مرض الرسول ﷺ تثاقلوا عن الخروج ليطمئنوا على حاله] إلى المدينة فدخلت على رسول اللَّه ﷺ وقد أُصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصوبها على وجهي أعرف أنه يدعُو لي.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).
(٢) والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣).
(٣) (٥/ ٢٠١).

اشتداد المرض

اشتد المرض برسول اللَّه ﷺ، وذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، وأحب الناس إلى اللَّه الأنبياء، فلذلك يشدد عليهم بالبلاء ليرفع جل وعلا من درجاتهم، وأما غير الأنبياء فإنه يشدد في البلاء على الصالحين ليكفر من سيئاتهم ولترفع كذلك درجاتهم.

والمسلم لا يتمنى البلاء ولا يتمنى أن يفتن لعله ألا يصبر ولكنه يسأل اللَّه تبارك وتعالى العافية، وإذا ابتلاه أن يعينه على الصبر، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا»(١).

عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال: إن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول اللَّه ﷺ في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول اللَّه ﷺ؟ قال: أصبح بحمد اللَّه بارءا.

فقام العباس بن عبد المطلب فأخذ بيد علي فقال: إني أرى رسول اللَّه ﷺ سيتوفى في وجعه هذا، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت(٢). وهذا من العباس فراسة وهي قوة الحدس.

بدأ مرض النبي ﷺ وهو عند زوجه ميمونة بنت الحارث رضي اللَّه عنها، ولما ثقُل جعل يسأل: «أين أنا غداً؟ أين أنا غداً؟» ففهمن مراده، فأذِنَّ له حيث يشاء.

فانتقل إلى بيت عائشة وذلك أنها كانت أحب الناس إلى رسول اللَّه ﷺ،

---

(١) رواه مسلم (١٧٤١).

(٢) رواه البخاري (٤٤٤٧).

كما في حديث عمرو بن العاص قال: سألت النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة» أخرجه البخاري(١).

فانتقل إلى بيت عائشة يمشي بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخطُّ قدماه(٢)، حتى دخل بيتها فقضى عندها آخر أسبوع من حياته صلوات اللَّه وسلامه عليه.

تقول عائشة: كنت اقرأ المعوذات على النبي ﷺ وأنفث على نفسه وأمسح بيده على نفسه رجاء البركة(٣).

وفي يوم الأربعاء قبل موته بخمسة أيام زادت عليه الحرارة واشتد به الوجع وغُمي عليه صلوات اللَّه وسلامه عليه، فقال: هريقوا(٤) عليَّ سبع قِرَب من آبارٍ شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهدُ إليهم.

وهنا هذا العدد له خصوصية وذلك أنه جاءت فيه نصوص كثيرة مثل:

- قول النبي ﷺ: من تصبّح بسبع تمرات من عجوة(٥) لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر. أخرجه البخاري(٦).

- قراءة الفاتحة على المصاب سبع مرات. وقال الحافظ ابن حجر عنه: سنده صحيح عند النسائي وغيره.

- الرقية المشهورة «أعوذ بعزة اللَّه وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، سبع

(١) (٣٦٦٢).
(٢) لا يستطيع المشي.
(٣) بركة يده صلوات اللَّه وسلامه عليه.
(٤) صبوا.
(٥) تمر المدينة.
(٦) (٥٤٤٥).

مرات. أخرجه الإمام مسلم[١].

- وحديث «من قال عند مريض لم يحضره أجله: أسأل اللَّه العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك. سبع مرات، شُفي من ذلك المرض»[٢].

- ثم أضف إلى ذلك الطواف سبعاً، والسعي سبعاً، ورمي الجمار سبعاً، وغير ذلك كثير.

فالنبي ﷺ قال: هريقوا عليَّ سبع قِرَب من آبارٍ شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهدُ إليهم.

فأقعدوه في مِخْضَب[٣] وصبوا عليه الماء، حتى طفق يقول: حسبكم، حسبكم.

العقيدة قبل كل شيء

ولما أحسّ بِخِفَّةٍ، دخل المسجد وهو معصوب الرأس، حتى جلس على المنبر وخطب الناس وهم مجتمعون حوله قال: لعنة اللَّه على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[٤].

وفي رواية أنه قال: قاتل اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا لا تتخذوا قبري وثناً يُعبد[٥].

(١) (٢٢٠٢).
(٢) رواه أبو داود (٣١٠٦) والترمذي (٢٠٨٣).
(٣) الطست الكبير.
(٤) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(٥) رواه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠).

وهذا دليل على حرص النبي ﷺ على تأسيس العقيدة، من أول الدعوة إلى آخرها.

إن العبادة لا تتمثل فقط في السجود لغير اللَّه تبارك وتعالى، العبادة حياة: الذبح، النذر، الطواف، السعي، الدعاء، الاستغاثة، الإخبات، الخوف، الرجاء، التقوى، التوكل، فالعبادة الحياة كلها.

فلذلك يجب على المسلم أن يصرف كل العبادة للَّه سبحانه وتعالى، قال تعالى آمراً رسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] والآن لا أقول مع قبر النبي ﷺ بل مع غيره ممن هم دونه بكثير، ماذا يفعل بقبورهم؟ يطاف حولها، ويذبح لهذه القبور، وتدفع الأموال لأصحابها، وتدعى من دون اللَّه تبارك وتعالى، ويتوسل بها، ويخاف من أهلها، فأي دين هذا؟!.

إن العبادة لا تجوز أن تكون إلا للَّه تبارك وتعالى، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

ثم نزل صلوات اللَّه وسلامه عليه فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر وقال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي[١]، وقد قضوْا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم». وقال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»[٢].

(١) جماعتي وأصحابي الذين أطلعهم على سري وأثق بهم وأعتمد عليهم.
(٢) رواه البخاري (٣٨٠٠).

النبي ﷺ يخير بين الموت والحياة

ثم قال صلوات اللَّه وسلامه عليه مبيناً أن الأمر قد أزف: «إن عبداً خيره اللَّه أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده».

قال أبو سعيد: فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

قال أبو سعيد: فعجبنا له.

وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول اللَّه ﷺ عن عبد خيره اللَّه بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، وأبو بكر يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

قال أبو سعيد: فكان رسول اللَّه ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر أعلمنا.

ثم قال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «إن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقَيَنّ في المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبي بكر[١]».

وفي يوم الخميس قبل وفاة الرسول ﷺ بأربعة أيام، قال: هلمّوا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده.

فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رسول اللَّه ﷺ قد غلبه الوجع، عندكم القرآن حسبكم كتاب اللَّه، فاختلف أهل البيت، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول اللَّه ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦).

فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال الرسول: قوموا عني[(١)].

وهنا يقال: كيف منع عمر النبي ﷺ من أن يكتب ذلك الكتاب؟

١- إن عمر لم يمنع النبي ﷺ وإنما أشفق عليه صلوات اللَّه وسلامه عليه من التعب الذي ألمّ به، وقد أخبر اللَّه بقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وكان النبي ﷺ قد أخبر قبل ذلك: «واللَّه ما تركت شيئاً يقربكم إلى اللَّه والجنة إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً يبعدكم عن اللَّه ويقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه».

وعمر رضي الله عنه يعلم أن الدين قد كمل وأن الأمر قد تم فأراد أن يرتاح النبي ﷺ.

٢- ولو كان هذا الكتاب واجباً ولم يكتبه، لكان قد كتم شيئاً من الدين وهو لم يكتم شيئاً، كيف وقد قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]؟.

وهذا الكتاب الذي أراد النبي ﷺ أن يكتبه بلّغه شفاهيةً كما في حديث علي رضي الله عنه قال: أمرني النبي ﷺ أن آتيه بطبق يكتب فيه ما لا تضل أمته من بعده، قال: فخشيت أن تفوتني نفسه، قال: فقلت: إني أحفظ وأعي. قال: أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم. أخرجه الإمام أحمد في مسنده[(٢)].

---

(١) لأنه لا ينبغي أن يكون عند النبي ﷺ خصام، رواه البخاري (٧٣٦٦).

(٢) (١/ ٩٠).

والنبي ﷺ على ما كان فيه من الوجع كان يصلي في الناس جميع الصلوات، ولكنه قبل الوفاة بأربعة أيام بعد صلاة المغرب وكان قد قرأ فيها المرسلات، ثقُل عند العشاء ولم يستطع الخروج صلوات اللَّه وسلامه عليه.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما مرض النبي ﷺ مرضه الذي توفي فيه حضرت الصلاة فأذَّن بلال وقال النبي ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصليَ بالناس. وأعاد فأعادوا، وأعاد الثالثة وقال: «إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس»(١).

ومعنى قوله إنكن صواحب يوسف: أي أنكن تقلن شيئاً وفي أنفسكن شيء آخر فعائشة قالت: إنه رجل أسيف وهو كذلك ولكنها قصدت منع أبي بكر من الصلاة بالناس مع وجود النبي ﷺ، حتى لا يكره الناس أبا بكر محبة في النبي كما قالت صواحب يوسف: امرأة العزيز تراود... وهن يردن رؤية يوسف لا مجرد الطعن في امرأة العزيز.

وخرج أبو بكر ليصلي بالناس ثم وجد النبي ﷺ في نفسه خفّة فخرج يُهادى بين رجلين كأني أنظر إلى رجليه تخطان الأرض من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأوْمَأ إليه النبي ﷺ مكانك ثم أتى وجلس إلى جنبه.

قيل للأعمش: أما كان النبي ﷺ إماماً وأبو بكر يصلي بصلاته والناس تصلي بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه: نعم.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤٢٠).

واقترب الأجل

وقبل وفاة النبي ﷺ بيومين وقعت حادثة، فعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: ثقُل برسول اللَّه ﷺ وجعه، فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول اللَّه.

فقال: صبوا ماءً في المِخْضَب، ففعلنا.

قالت: فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق وقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول اللَّه.

قال: صبوا لي ماءً في المِخْضَب. ففعلنا فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه.

فقال: صبوا لي ماءً في المِخْضَب. ففعلنا.

قالت: فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق وقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه.

قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول اللَّه ﷺ لصلاة العشاء.

فأرسل رسول اللَّه ﷺ إلى أبي بكر ليصليَ بالناس، فكان أبو بكر رجلًا رقيقاً. فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام.

وفي مرضه صلوات اللَّه وسلامه عليه أنفق ما بقي عنده من مال، كما روى ذلك المطلب بن عبد اللَّه بن حنطب قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال لعائشة وهي مسندته إلى صدرها، يا عائشة ما فعلت تلك الذهب؟[1].

(١) عنده شيء من الذهب.

قالت: هي عندي.

قال: فأنفقيها. ثم غُشي عليه وهو على صدرها.

فلما أفاق قال: آنفقت تلك الذهب يا عائشة؟ قالت: لا واللَّه يا رسول اللَّه.

قالت: فدعا بها فوضعها في كفي فعدّها فإذا هي ستة دنانير من الذهب، فقال: ما ظن محمد بربه أن لو لقي اللَّه وعنده هذه، فأنفقها كلها، ومات في ذلك اليوم صلوات اللَّه وسلامه عليه[١].

اليوم الأخير

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر يوم الاثنين وأبو بكر يصلي بهم، لم يفجأهم إلا رسول اللَّه ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة[٢] ثم تبسم فرحا بهم صلوات اللَّه وسلامه عليه، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف[٣] وظن أن رسول اللَّه ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة.

فقال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم[٤] فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم.

ثم دخل الحجرة وأرخى الستر صلوات اللَّه وسلامه عليه. أخرجه البخاري في صحيحه[٥]. ثم لم يُصَلِّ بعد هذا حتى توفي بأبي هو وأمي.

(١) مسند أحمد (٦/ ٤٩).
(٢) لأن حجرته ملاصقة للمسجد.
(٣) ليرجع ويتقدم رسول اللَّه ﷺ ليصلي بالناس.
(٤) يتركوا الصلاة ويقبلوا على النبي ﷺ
(٥) (١٢٠٥).

كرامة لفاطمة

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة رضي الله عنها، فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت.

قالت عائشة: فسألنا عن ذلك فيما بعد، فقالت فاطمة: سارّني النبي ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي تُوفيَّ فيه فبكيت، ثم سارّني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وفي بعض الروايات عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: ما رأيت أحداً أشبه سَمْتاً وهَدْياً ودلًّا[1] برسول اللَّه ﷺ من فاطمة بقيامها وقعودها وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وقبّلَها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها فعلت ذلك، فلما مرض صلوات اللَّه وسلامه عليه دخلت عليه فأكبّت عليه تقبله، ثم بكت فاطمة وضحكت لمّا سارّها النبي ﷺ، فقالت عائشة: ما رأيت اليوم فرَحاً أقرب من حزن؟ فسألتها عن ذلك.

قالت فاطمة: ما كنت لأفشي سِرَّ رسول اللَّه ﷺ.

فلما توفي النبي ﷺ، سألتها عائشة: فقالت فاطمة: أسَرّ إليّ أنَّ جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وأنه عارضني العام (أي هذه السنة) مرتين، ولا أُراه إلا حضر أجلي، وأنك أول أهل بيتي لحوقاً بي.

قالت فاطمة: فبكيت.

فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟» قالت فاطمة:

---

(١) الهيئة الظاهرة.

فضحكت.

ولما رأت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الكرب الشديد على رسول اللَّه ﷺ بكت وقالت: وا كرب أباه.

قال لها: «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم»، ثم اشتد الوجع بالنبي ﷺ، وظهر أثر السم الذي أكله في خيبر في أول السنة السابعة.

حتى كان يقول لعائشة: «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهري»[1] من ذلك السم.

وأوصى الناس صلوات اللَّه وسلامه عليه وقال: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»[2].

وبدأ الاحتضار برسول اللَّه ﷺ، وأسندته عائشة رضي اللَّه عنها إليها، وكانت تقول: إن من نعم اللَّه عليّ أن رسول اللَّه ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحري ونَحري وأن اللَّه جمع بين ريقي وريقه عند موته.

قالت: ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده سواك، وأنا مسندته على صدري بين السَحْر[3] والنَحْر[4]، فرأيته ينظر إليه وإلى سواكه وعرفت إنه يحب السواك، قلت: آخذه لك.

فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فلينته وقضمته وطيبته وأعطيته رسول اللَّه ﷺ، فاستن بالسواك كأحسن ما كان مستناً صلوات اللَّه وسلامه عليه، وبين

(١) العرق المتصل بالقلب.
(٢) أحمد (٦/ ٢٤٠).
(٣) الصدر.
(٤) الرقبة.

يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه ويمسح بهما على وجهه ويقول: لا إله إلا اللَّه إن للموت سكرات.

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع إصبعه وشَخَص بصره نحو السماء وتحركت شفتاه، فأصغيت إليه فإذا هو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللَّهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللَّهم الرفيق الأعلى»(١).

كرر الكلمة ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى، إنا للَّه وإنا إليه راجعون.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يُخير بين الدنيا والآخرة، فسمعت النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه وأخذته بحّه: مع الذين أنعم اللَّه عليهم.

قالت: فظننت أنه يُخير.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُبض رسول اللَّه ﷺ ورأسه بين سحْري ونَحْري، فلما خرجت نفسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها.

قال ابن كثير هذا إسناد صحيح.

وهذا كان يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول في الضحى سنة إحدى عشرة من مهاجره صلوات اللَّه وسلامه عليه، وكانت قد تمت له ثلاث وستون سنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٣).

غسله ودفنه ﷺ

وفي يوم الثلاثاء غسَّلوا الرسول ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه وتولى غسل النبي ﷺ العباس وعلي وقثم والفضل بن العباس وشقران مولى رسول اللَّه ﷺ وأسامة بن زيد وأوس بن خوْلي.

فكان العباس والفضل وقثم يقلبون النبي ﷺ وأسامة وشقران يصبان الماء وعلي يغسله وأوس أسنده إلى صدره صلوات اللَّه وسلامه عليه.

ثم كفنوه بثلاثة أثواب بيض من قطن ليس فيها قميص ولا عمامة وأدرجوه فيها إدراجاً[١].

واختلفوا في دفنه صلوات اللَّه وسلامه عليه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه يقول: ما قُبض نبي إلا دُفن حيث يُقبض.

فرفع طلحة فراشه الذي توفي عليه صلوات اللَّه وسلامه عليه، فحفر تحته وجعل القبر لحدا.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رأيت ثلاثة أقمار وقعن في حِجري (وهذه رؤيا)، فسألت والدها أبا بكر فقال: إن صدقت رؤياك دُفن في بيتك من خير أهل الأرض ثلاثة[٢].

---

(١) الإدراج: أن توضع الثياب على الأرض بعضها فوق بعض ويوضع الميت فوقها ثم يوضع طرف الثوب الأول على الميت ثم طرفه الثاني ثم طرف الثوب الثالث وهكذا حتى يلف الميت بها كلها.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٨).

وقد دُفِن خير أهل الأرض وهو رسول اللَّه ﷺ، ثم أبو بكر ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ودخل الناس الحجرة أرسالًا ليسوا جميعاً بل متفرقين لصغر الحجرة يصلون على النبي ﷺ لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولًا أهل عشيرته ثم المهاجرون ثم الأنصار وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان.

ولم يصل عليه جماعة، قيل لأمرين اثنين:

الأول: ليباشر كل واحد منهم الصلاة عليه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

الثاني: تتكرر الصلاة عليه من كل فرد ليُصلى عليه صلوات كثيرة صلوات اللَّه وسلامه عليه.

واستمرت الصلاة عليه يوم الاثنين والثلاثاء حتى دخلت ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن الرسول ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي في جوف الليل من ليلة الأربعاء التي دفن بها صلوات اللَّه وسلامه عليه.

- قال ابن مسعود: لئن أحلف تسعاً أن رسول اللَّه ﷺ قُتِل قَتلًا أحب إليّ من أن أحلف واحدة إنه لم يُقتل، وذلك أن اللَّه اتخذه نبيا واتخذه شهيدا كما قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾.

وأظلمت المدينة

- قال أنس: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوَء من يوم دخل علينا رسول اللَّه ﷺ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه ﷺ، وما نفضنا عن رسول اللَّه الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا.

قال ابن كثير هذا إسناده على شرط الشيخين.

- ولما مات النبي ﷺ قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

يـا أبـتـاه، أجـاب ربـاً دعـاه
يا أبتاه، في جنة الفردوس مأواه
يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه[(١)]

وهذا ليس من النياحة المنهي عنها بل النعي المباح.

أما النياحة التي يكون فيها رفع الصوت وتقطيع الثياب وشد الشعر فهذه هي المحرمة كما قال النبي ﷺ: «أنا بريء من الحالقة[(٢)] والصالقة[(٣)] والشاقة[(٤)]»[(٥)].

فلما دُفِن قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثُوا على رسول اللَّه ﷺ التراب. أخرجه البخاري[(٦)].

تريد أن دفن النبي ﷺ وحثوَ التراب عليه خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه وشدة محبتهم له، وسكت أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يجبها رعاية لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا، إلا أنّا فعلناه امتثالًا لأمره.

- وقف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أخرجه الخبر عن وعيه غير مصدق أن النبي قد مات وقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول اللَّه ﷺ قد توفي، وإن رسول اللَّه ﷺ ما مات، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران إلى لقاء ربه،

---

(١) البخاري (٤٤٦٢).
(٢) التي تحلق شعرها.
(٣) التي تصيح بصوتها.
(٤) التي تشق ثيابها على من مات.
(٥) رواه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).
(٦) (٤٤٦٢).

فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، واللَّه ليرجعن رسول اللَّه ﷺ وليقطعن أيدي رجالٍ وأرجلهم يزعمون أنه مات.

الثبات عند المصيبة

- وأقبل أبو بكر من السُنْحِ[١]، وذلك أنه لما أطل النبي بوجهه الكريم على المسلمين وهم يصلون ظن أبو بكر رضي الله عنه أنه عوفي، فاستأذن رسول اللَّه ليذهب إلى زوجته في السنح وهي حبيبة بنت جندب، وما أن بلغه خبر وفاة النبي ﷺ رجع رضي الله عنه فدخل المسجد ولم يكلم الناس ثم دخل بيت رسول اللَّه ﷺ عند عائشة فتيمم رسول اللَّه ﷺ (أي ذهب إليه) وهو مغشّى بثوب، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله بين عينيه وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً، لا يجمع اللَّه عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مِتّها.

ثم خرج أبو بكر وإذا عمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر.

فأبى عمر أن يجلس، فتركه وأقبل على الناس وأقبل الناس عليه، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) وهي منطقة قريبة من المدينة.

قال ابن عباس رضي الله عنه : واللَّه لكأن الناس لم يعلموا أن اللَّه أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال عمر رضي الله عنه : واللَّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقَرت حتى ما تقلّني رجلاي.

وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها وعلمت أن النبي ﷺ قد مات(١).

قال ابن عمر: لما قرأ أبو بكر الآية وكأنما على وجوهنا أغطية فكُشفت.

تركة النبي ﷺ

عن عمر بن الحارث قال: ما ترك رسول اللَّه ﷺ ديناراً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه. أخرجه البخاري(٢).

وأخيراً نقول: الكل يموت، العصاة يموتون والطائعون يموتون، الرسل يموتون وأعداء الرسل يموتون، المقربون والمبعدون، الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار، الرجال والنساء، الكل يموت:

أين الأكاسرة الجبابرة الألى ... كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

مَنْ كُلُّ مَنْ ضاق الفضاءُ بجيشه ... حتى هوى فحواه قبر ضيقُ

خرسٌ إذا نودوا كأن لم يعلموا ... أن الكلام لهم حلال مطلقُ

والموت آت والنفوس نفائس ... والمستغر بما لديه الأحمقُ

(١) رواه البخاري (٤٤٥٤).
(٢) (٤٤٦١).

إن اللَّه تبارك وتعالى نقل نبيه ﷺ من هذه الدار الفانية إلى النعيم الأبدي، في محلة رفيعة ودرجة عالية في الجنة لا أعلى منها ولا أسمى كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٤ - ٥]، وذلك بعدما أكمل أداء الرسالة التي أمره اللَّه تعالى بإبلاغها ونصح أمته ودلهم على خير ما يعلمه لهم، وحذرهم ونهاهم عما فيه مضرة عليهم في دنياهم وآخرتهم.

قال تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

وقيل في وفاة النبي ﷺ من الأشعار شيء كثير، من ذلك ما قيل:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقدُ

وقال أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ:

أَرِقْتُ فبات ليلي لا يزولُ ... وليلُ أخي المُصيبةِ فيه طولُ

وأَسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليلُ
وقد عظُمَت مصيبتنا وجلَّت ... عشية قيل قد قُبض الرسولُ
وأضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميلُ
فقدنا الوحيَ والتنزيلَ فينا ... يروح به ويغدو جبرائيلُ
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الناس أو قرُبت تسيلُ
نبيٌّ كان يجْلُو الشك عنا ... بما يوحىٰ إليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالًا ... علينا والرسول لنا دليلُ
أفاطمُ إن جزعت فذاك عذرٌ ... وإن لم تجزعي ذاك السبيلُ
فقبر أبيك سيد كل قبرٍ ... وفيه سيد الناس الرسولُ

وكذلك مما رُثي به صلوات اللَّه وسلامه عليه ما قاله عبداللَّه بن أنيس:

تطاول ليلي واعترتني القوارعُ ... وخطْبٌ جليلٌ للبلية جامعُ
غداةَ نعى الناعي إلينا محمدا ... وتلك التي تستكُّ منها المسامعُ
فلو ردّ ميتاً قتل نفسي قتلتها ... ولكنه لا يدفع الموت دافعُ
فآليت لا أثني على هُلْكِ هالكٍ ... من الناس ما أوفى ثبيرٌ وفارعُ
ولكنني باكٍ عليه ومتبعٌ ... مصيبة إني إلى اللَّه راجعُ

بهذا أُمِرْنا أن نقول إنا للَّه وإنا إليه راجعون، وهذا شاعر النبي ﷺ حسان ابن ثابت رضي الله عنه يرثي النبي ﷺ فيقول:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهدُ ... منيرٌ وقد تعفُ الرسوم وتمهدُ
ولا تمتحن الآياتِ من دار حرمةٍ ... بها منبر الهادي الذي كان يُصعدُ
وواضح آيات وباقي معالم ... وربعٌ له فيه مصلى ومسجدُ
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من اللَّه نورٌ يستضاء ويوقدُ
معارف لم تُطمس على العهد آيها ... أتاها البلا فالآي منها تجددُ

عَرفت بها رَسْم الرسول وعهده ... وقبر بها واراه في التُرْبِ مُلحدُ
ظلْلتُ بها أبكي الرسول فأَسْعَدَت ... عيونٌ ومثلاها من الجنّ تسعدُ
يذكرنا آلاء الرسول ولا أرى ... لها مُحصياً نفسي فنفسي تبلّدُ

وقال حسان كذلك:

ما بال عينيك لا تنام كأنما ... كُحِلت مآقيها بكحل الإثمد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً ... يا خير من وطئ الحصى لا تبعدِ
يا ويح أنصار النبي ورهطهِ ... بعد المُغيّب في سواء الملْحَد
جنبي يقيك التُرْب لهفي ليتني ... كنت المغيّب في الطريح الملحدِ
يا بكر آمنة المبارك ذكره ... ولدته محصنا بسعْدِ الأسعدِ

وقال كعب بن مالك:

يا عين فابكي بدمع درا ... لخير البرية والمصطفى
وبكّي الرسول وحُقّ البُكا ... عليه لدى الحرب عند اللقا
على خير من حملت ناقةٌ ... واتقى البرية عند التُقى
على سيد ماجد جحْفَلٍ ... وخير الأنام وخيرٍ لها
له حسبٌ فوق كل الأنام ... من هاشم ذاك المرتجى
نخصّ بما كان من فضله ... وكان سراجاً لنا في الدجى
وكان بشيراً لنا منذرا ... ونورا لنا ضوؤه قد أضى
فأنقذنا اللّه في نوره ... ونجى برحمته من لظى

وغير ذلك من الأشعار كثير مما قيل في رسولنا محمد ﷺ. عن أم سلمة قالت: بعدما دفن رسول اللّه ﷺ، وفي فجر الخميس أذن بلال في الفجر، فلما ذكر النبي ﷺ بكى وانتحب فزادنا حزنا.

ودُفن صلوات اللّه وسلامه عليه في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، ولما مات أبو بكر دفن معه فكان رأسه بين كتفي النبي ﷺ ، ولما مات عمر دفن معهما وكان رأسه عند رجل النبي ﷺ .

ولما سقط حائط بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في زمان الوليد بن عبد الملك، أخذوا في بنائه فبدت لهم قدم، ففزعوا وظنوا أنها قدم رسول اللّه ﷺ فما وُجد واحد يعلم ذلك حتى قال لهم عروة بن الزبير بن العوام: ما هي إلا قدم عمر.

القبور والمساجد

كانت توسعة المسجد في زمن الوليد بن عبد الملك، فدخل قبر النبي ﷺ في المسجد كما هو الحال الآن.

فهنا ننبه على هذه المسألة ألا وهي حكم وجود القبر في المسجد: لابد لنا أن نعلم أنه لا يجوز أن يبنىٰ مسجد على قبر، ولا يجوز أن يدفن ميت في مسجد.

فإذا بني المسجد على القبر فإن المسجد لم يبن على التقوى، فيجب أن يهدم المسجد، وإذا دفن ميت في مسجد فإنه لا يجوز، ويجب أن ينبش القبر ويخرج الميت من المسجد.

وأما قبر النبي ﷺ فأنه صلوات اللّه وسلامه عليه ما بنى مسجده على قبره، بل مسجده قائم قبل أن يموت صلوات اللّه وسلامه عليه، كيف؟ وهو الذي بناه.

ثم كذلك ما دفن النبي ﷺ في المسجد وإنما دفن في بيت عائشة.

والحديث المشهور عن النبي ﷺ «بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» يرويه بعضهم «بين قبري ومنبري» فهذه رواية غير صحيحة، وإنما رواها البعض بالمعنى.

فلا يقولن قائل: يجب أن يهدم المسجد أو يجب أن ينبش قبر النبي ﷺ فهذا من الضلال العظيم.

والذي وقع أن المسجد وسّع فدخل القبر في المسجد.

وما حدث الآن من عزل القبر وجعله في جانب من المسجد هو عين الصواب، حيث صار القبر الآن في جانب من جوانب المسجد وليس في داخله كما كان الأمر سابقاً.

ونسأل اللَّه جل وعلا أن يجمع بيننا وبين نبيه ﷺ في مستقر رحمته، وأن يحجبنا ببركة متابعته عن النار، وأن يغفر لنا ولأمته أجمعين، آمين آمين آمين وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا محمد عدد ما ذكره الذاكرون وما غفل عنه الغافلون وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

* * *

شمائل الرسول ﷺ

وهذه شمائل الرسول ﷺ كما بينها أهل العلم:

أسماؤه

محمد، أحمد، الماحي، الحاشر والعاقب، قال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو اللَّه به الكفر وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي». أخرجه البخاري ومسلم(١).

ليست أسماءً مجردة

إن أسماء اللَّه تبارك وتعالى وأسماء القرآن العظيم وأسماء النبي الكريم ليست أسماءً مجرّدة بل كلها تدل على معاني، فمن أسماء اللَّه جل وعلا: اللَّه، الملك، القدوس، الجبار، العزيز، الرحمن وغيرها كثير.

وهذه الأسماء مشتقة من صفات قائمة باللَّه تبارك وتعالى توجب له المدح والكمال.

فاسمه اللَّه وهو المألوه أي المعبود حباً وخوفاً ورجاءً، واسمه الملك وهو المالك.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤).

واسمه القدوس وهو القدوس المنزه عن كل نقص وعيب.

وهو الجبار أي القوي سبحانه وتعالى.

العزيز الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء ولا يغلبه شيء.

وهو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء.

والقرآن الكريم كذلك اسمه النور، المبين، الشفاء، الكتاب، والفرقان وغير ذلك وكلها أسماء تدل على معاني هذا الكتاب.

وكذلك الرسول ﷺ اسمه محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب وكل هذه الأسماء تدل على معاني.

يس وطه ليسا من أسماء النبي ﷺ

ومن هذا يتبين لنا أمر ألا وهو: أن ما جاء في بعض الكتب أو عن بعض الناس أنه ذكر أن من أسماء النبي ﷺ طه، وياسين ليس بصحيح، وذلك أن طه ويس على الصحيح من الحروف التي بدأت بها بعض السور كقوله تعالى في بعض السور: ﴿ن﴾، و﴿ق﴾، و﴿ص﴾، و﴿كهيعص﴾، و﴿ألم﴾ وكذلك الأمر بالنسبة: لـ ﴿يس﴾ و﴿طه﴾.

ولذلك تكتب (طه) بحرفين فقط ولو كانت اسماً لكتبت (طاها) كما كتبت نون في قوله تعالى: ﴿وذا النون﴾ أي الحوت وهي غير ﴿ن﴾ في أول سورة القلم، ولذلك ذكر بعدها القرآن الكريم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢]، فهذه الأحرف على الصحيح من أقوال أهل العلم: ليس لها معنى في ذاتها وإنما لها دلالة، وهي أن هذا القرآن الكريم إنما هو

مكون من هذه الأحرف التي تتكلمون بها، وأن اللَّه يتحداهم بأن يأتوا بقرءان مكون من هذه الأحرف.

وكذلك الأمر بالنسبة لـ﴿يس﴾، ولذلك لما جاء قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٣٠]، وكُتبت ياسين وهي تختلف عن التي كُتبت في بداية سورة ﴿يس﴾، ولذلك قال ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ - ٢] فنوه بذكر القرآن الكريم.

ومما يزيد هذا كله دلالة ألا وهو أن ﴿طه﴾ ليس لها معنى ولا وصفاً ولا مدحاً للنبي ﷺ ولكن أكثر ما قيل ﴿طه﴾ أي الرجل، أو ﴿طه﴾ طأ الأرض، وهذا ليس مدحاً للنبي ﷺ، وكذلك ﴿يس﴾ ليس مدحاً.

نسبه

قال ابن القيم: هو خير أهل الأرض على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك بين يدي ملك الروم،- لما جاءه وقال: ما نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: إنه من أوسطنا نسباً[(١)]-، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأفخاذ فخذه.

---

(١) من أفضلنا نسباً.

فهو محمد بن عبداللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدرِكَة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن مَعدٍ بن عدنان.

وهذا النسب متفق عليه بين أهل الأنساب ولا خلاف بينهم وعدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو ولد إبراهيم صلوات اللَّه وسلامه عليهم.

عن الأشعث بن قيس قال: قدمت المدينة في وفد كندة ولا يروني أفضلهم.

قلت: يا رسول اللَّه: ألستم منا؟ قال: لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا.

وكان الأشعث يقول: لا أوتي برجل نفى رجلًا من قريش من النضر بن كنانة إلا ضربته الحد.

أولاده

أول أولاده القاسم وبه كان يُكنى، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبداللَّه وهؤلاء كلهم من خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

القاسم وعبداللَّه ماتا صغيرين، وأما بناته فكلهن تزوجن في حياته ﷺ، ولكنهن توفين في حياته عدا فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فإنها توفيت بعد الرسول ﷺ بستة أشهر على الصحيح.

وولد له كذلك صلوات اللَّه وسلامه عليه إبراهيم من سُرِّيَّته[١] مارية القبطية التي أهداها له المقوقس وذلك سنة ثمان من الهجرة، ومات طفلًا قبل الفطام.

وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أفضل بنات النبي ﷺ على الإطلاق ولذلك قال النبي ﷺ: «إنها سيدة نساء أهل الجنة»[٢].

أزواجه

١) أولاهن خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية، تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة على المشهور ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وهي التي آزرت النبي ﷺ في بداية الدعوة، وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وأرسل اللَّه إليها السلام مع جبريل وماتت قبل هجرة النبي ﷺ بثلاث سنين وبشرها النبي ﷺ ببيت في الجنة.

٢) سودة بنت زَمعة القرشية وتزوجها بعد خديجة.

٣) عائشة الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات، وهي حبيبة رسول اللَّه ﷺ، عرضها عليه المَلَك قبل نكاحها في سَرْقَةٍ من حرير وقال: هذه زوجتك.

ولم يتزوج بكراً غيرها، وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها، وكانت أحب الخلق إليه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

---

(١) أمته.

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٤) ومسلم (٢٤٥٠).

ونزل عذرها من السماء، واتفقت الأمة على كفر قاذفها، وهي أفقه نسائه وأعلمهن، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب النبي صلوات اللّه وسلامه عليه يرجعون إلى قولها ويستفتونها.

٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية القرشية طلقها النبي فنزل جبريل وقال إن اللّه يأمره أن يرجعها وأنها صوامة قوامة..

٥) زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية ويقال لها: أم المساكين..

٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية وهي آخر نسائه موتاً، وهي التي لما تقدم لها النبي ﷺ اعتذرت بأنها غيْرى ومُصْبِية وكبيرة.

فقال النبي ﷺ: أما الغيرة فيذهبها اللّه، وأما أولادك فأولادي، وأما السن فأنا أكبر منك.

٧) زينب بنت جحش وهي من بني أسد بن خزيمة وهي بنت عمته أميمة، وفيها نزل قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وكانت تفتخر على نساء النبي ﷺ وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجنى اللّه من فوق سبع سماوات.

٨) جويرية بنت الحارث المصطلقية وهي أبرك امرأة على قومها حيث اعتقوا بسببها.

٩) أم حبيبة رَملة بنت أبي سفيان القرشية الأموية، تزوجها وهي في الحبشة ودفع مهرها النجاشي أربعمئة دينار.

١٠) صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، وهي من ذرية نبي اللّه

هارون صلوات اللَّه وسلامه عليه، فهي بنت نبي وزوجة نبي.

١١) ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج النبي ﷺ، تزوجها في عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة.

الحكمة من تعدد أزواجه

أولًا: إن النبي ﷺ ما تزوج بكراً قط إلا عائشة رضي الله عنها، بل إن خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين كانت ثيباً، كما أن النبي ﷺ ما تزوج عليها حتى توفيت، وكان النبي إذ ذاك قد بلغ الخمسين من عمره ولاشك أن الإنسان إذا بلغ الخمسين من عمره فإن الشهوة عنده تضعف.

ثانياً: كل النساء اللاتي تزوج بهن إنما كن مطلقات أو أرامل ماعدا عائشة رضي الله عنهن، فزواجه منهن كانت له حكمة عظيمة ألا وهي أن ينشرن عن النبي ﷺ ما يحدث بالبيت مما تقتدي به الأمة بعده صلوات اللَّه وسلامه عليه.

وهناك حكم أخرى ليس هذا مجال تفصيلها.

خاتم نبوته ﷺ

خاتم النبوة كما قد ذكره السائب بن يزيد رضي الله عنه: ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول اللَّه، إن ابن أختي وَجِعْ.

فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف

ظهره، فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زِر الحَجَلة. أخرجاه في الصحيحين[١].

وسمع سماك جابر بن سمرة يقول: كان رسول اللَّه ﷺ وجهه مستديراً مثل الشمس والقمر، ورأيت خاتم النبوة بين كتفيه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده. أخرجه الإمام مسلم[٢].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فألقى إليّ رداءه وقال: انظر إلى ما أمرت به.

قال: فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمام.

دلائل نبوته ﷺ

وهي كثيرة جداً نذكر منها:

١) قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ١ - ٥].

وقد اتفق العلماء على أن القمر انشق للنبي ﷺ والأحاديث بهذا كثيرة جدا، منها ما أخرجه الإمام البخاري[٣] عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فلقتين قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥٢)، ومسلم (٢٣٤٥).
(٢) (٢٣٤٤).
(٣) (٤٨٦٧).

٢) عن أنس بن مالك ﵁ قال: إن رجلًا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان وِجاه[١] المنبر، ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول اللَّه ﷺ قائماً فقال: يا رسول اللَّه، هلكت الأموال، وتقطعت السبل، فادعُ اللَّه لنا يغيثنا.

قال أنس: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه فقال: «اللَّهم اسقنا، اللَّهم اسقنا، اللَّهم اسقنا» قال أنس: واللَّه ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة[٢] ولا شيئاً وما بيننا وبين سلْع[٣] من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت في السماء انتشرت، ثم أمطرت.

قال: واللَّه ما رأينا الشمس ستاً[٤]، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً وقال: يا رسول اللَّه، هلكت الأموال وانقطعت السبل ادع اللَّه يمسكها، قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: «اللَّهم حوالينا ولا علينا، اللَّهم على الآكام والجبال والضراب ومنابت الشجر».

قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس.

قال شريك: فسألت أنساً: أهو الرجل الذي سأل أولًا؟ قال: لا أدري[٥].

٣) وعنه ﵁ قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس

---

(١) مقابل.
(٢) السحاب الصغير.
(٣) جبل سلع.
(٤) ستة أيام.
(٥) رواه البخاري (١٠١٣) ومسلم (٨٩٧).

الناس الوَضوء، فلم يجدوه فأُتي رسول اللَّه ﷺ بوَضوء فوضع رسول اللَّه ﷺ يده في ذلك الماء فأمر الناس أن يتوضؤوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا عن آخرهم. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما(١).

٤) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول اللَّه ﷺ كان بالزوراء فأتي بإناء فيه ماء لا يغمر أصابعه فأمر أصحابه أن يتوضئوا فوضع كفه في الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم، فقلت لأنس: كم كنتم؟ قال: كنا ثلاثمئة. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما(٢).

٥) وعن البراء بن عازب قال: كنا يوم الحديبية أربع عشرة مئة والحديبية بئر فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس رسول اللَّه ﷺ على شفير البئر(٣) فدعا بماء، فتمضمض ومَجّ في البئر فمكثنا غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وروت أو صدرت ركابنا(٤). أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما(٥).

٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: واللَّه إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب اللَّه عز وجل ما سألته إلا ليستتبعني(٦)، فلم يفعل.

---

(١) رواه البخاري (١٦٩)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٢) رواه البخاري (٣٥٧٢) ومسلم (٢٧٩).
(٣) على حافته.
(٤) رويت الإبل.
(٥) رواه البخاري (٣٥٧٧) ومسلم (٢٧٩).
(٦) يقول لي اتبعني.

فمر عمر فسألته عن آية من كتاب اللَّه عز وجل ما سألته إلا ليستتبعني، فلم يفعل.

فمر أبو القاسم ﷺ فعرف ما في وجهي وما في نفسي وقال: أبا هريرة، قلت له: لبيك يا رسول اللَّه.

فقال: الحق(١).

فاستأذنت فأذن لي.

فوجد لبناً في قدح، فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه لأهله: من أين لكم هذا اللبن؟ فقالوا: أهداه لنا فلان أو آل فلان.

قال: أبا هريرة.

قلت: لبيك يا رسول اللَّه.

قال: انطلق إلى أهل الصُفّة، فادعهم لي.

قال أبو هريرة: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لم يأووا إلى أهل ولا مال إذا جاءت رسول اللَّه ﷺ هدية أصاب منها وبعث إليهم منها وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها.

قال أبو هريرة: وأحزنني ذلك، وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى بها بقية يومي وليلتي.

وقلت: أنا الرسول(٢) فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم، وقلت: ما

---

(١) الحقني.
(٢) المرسل إليهم.

يبقى لي من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ بدٌّ، فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأُذِن لهم، فأخذوا مجالسهم من البيت، ثم قال: أبا هريرة، خذ فأعطهم، قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيهم، فيأخذ الرجل القدح، فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم، ودفعت إلى رسول اللَّه ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فَضْلَة ثم رفع رأسه ونظر إليّ وتبسم وقال: أبا هريرة.

قلت: لبيك رسول اللَّه.

قال: بقيت أنا وأنت.

قلت: صدقت يا رسول اللَّه.

قال: فاقعد واشرب.

قال أبو هريرة: فقعدت وشربت.

ثم قال لي: اشرب، فشربت، فما زال يقول لي اشرب، فأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً، قال: ناولني القدح.

فرددت إليه القدح، فشرب منه الفضلة. أخرجه البخاري(١).

٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم(٢): لقد سمعت صوت رسول اللَّه ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم.

فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خِماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم

---

(١) (٥٣٧٥، ٦٤٥٢).

(٢) أم أنس.

دسته تحت يديه ولافتني ببعضه[١]، ثم أرسلتني إلى رسول اللَّه ﷺ، قال: فذهبت به ووجدت رسول اللَّه ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليه.

فقال لي رسول اللَّه ﷺ: أرسلك أبو طلحة؟ قلت: نعم.

قال: بطعام؟ قلت: نعم.

فقال رسول اللَّه ﷺ لمن معه: قوموا.

فانطلق وانطلقت بين أيديهم[٢] حتى جئت أبا طلحة فأخبرته.

فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول اللَّه ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم.

فقالت: اللَّه ورسوله أعلم.

فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول اللَّه ﷺ وأقبل رسول اللَّه ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول اللَّه ﷺ: هلمّ يا أم سليم، ما عندك؟ فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول اللَّه ﷺ، ففُتَّ، وعصرت أم سليم عكا[٣] فآدَمَتْه[٤]، ثم قال رسول اللَّه ﷺ فيه ما شاء أن يقول[٥]، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

فقال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

---

(١) أعطتني بعضه.
(٢) أسرعت.
(٣) مثل السمن.
(٤) جعلته مع الخبز.
(٥) دعا.

ثم قال: ائذن لعشرة. فأكل القوم كلهم، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا.

أخرجه البخاري في صحيحه[١].

٨) عن أبي هريرة ﵁ قال: لما كانت غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول اللَّه، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنّا، قال: افعلوا.

فجاء عمر فقال: يا رسول اللَّه، إن فعلوا قل الظَهْر[٢]، ولكن ادْعُهُم بفضل أزوادهم ثم ادع لهم عليها بالبركة لعل اللَّه أن يجعل في ذلك البركة.

فأمر رسول اللَّه ﷺ بنَطْع فبُسط، ودعا بفضل أزوادهم فجيء بها، فجعل الرجل يجيء بكف التمر والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع شيء من ذلك يسير، فدعا لهم عليها بالبركة ثم قال: خذوا في أوعيتكم.

فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاءً حتى ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه لا يلقى اللَّه بها عبد غير شاك تحتجب عنه الجنة. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[٣].

٩) عن جابر بن عبد اللَّه ﵄ قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا وادياً أفْيَحْ، فذهب رسول اللَّه ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر فلم ير شيئاً يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي[٤]، فانطلق إلى إحداهما فأخذ

---

(١) (٣٥٧٨).

(٢) على ماذا سيركبون؟.

(٣) (٢٧).

(٤) بالطرف من الوادي.

بغصن من أغصانها، وقال: انقادي عليَّ بإذن اللَّه، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها، وقال: انقادي عليَّ بإذن اللَّه، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى إذا كان بالمنتصف في ما بينهما لأَمَ بينهما وقال: التئما عليّ بإذن اللَّه، فالتأمتا.

قال جابر: فخَرَجْتُ أحضر مخافة أن يحسّ بقربي فيبعد، فجلست أحدّث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول اللَّه مقبل وإذا الشجرتان قد افترقتا وقامت كل واحدة منهما على ساق فرأيت رسول اللَّه ﷺ وقف وقفة وقال برأسه هكذا يميناً وشمالاً[(١)]. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[(٢)].

١٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول اللَّه ﷺ: أين تريد؟ قال: إلى أهلي.

قال: هل لك إلى خير؟ قال: ما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة.

فدعاها رسول اللَّه ﷺ وهي على شاطئ الوادي، فأقبلت تَخُد الأرض خداً، فقامت بين يديه صلوات اللَّه وسلامه عليه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال ثم إنها رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه فقال: إن يتبعوني أتيتك بهم وإلا رجعت إليك وكنت معك. قال ابن كثير: هذا إسناد جيد[(٣)].

---

(١) ينظر حوله.
(٢) (٣٠١٢).
(٣) رواه الدارمي (١٦).

١١) عن جابر بن عبد اللَّه ﵁ قال: إن رسول اللَّه ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول اللَّه، ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم.

فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة دُفِعَ إلى المنبر(١)، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه (أي الجذع) يئن أنين الصبي الذي يُسَكَّن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها. أخرجه الإمام البخاري في صحيحه(٢).

عن أنس ﵁ أنه سمع جابر بن عبداللَّه يقول: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، وكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها فلما صُنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسَكَّنَه. أخرجه البخاري(٣).

١٢) عن جابر بن سمرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(٤).

١٣) عن أنس بن مالك ﵁ قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه(٥) وأنهم استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا

(١) صعد.
(٢) (٣٥٨٤).
(٣) (٣٥٨٥).
(٤) (٢٢٧٧).
(٥) يسقون عليه.

ظهره وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: قوموا.

فدخل الحائط والجمل في ناحيته فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول اللَّه، إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِب، وإنّا نخاف عليك صوْلَته.

فقال: ليس عليّ منه بأس.

فلما نظر الجمل إلى رسول اللَّه ﷺ، أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه، فأخذ رسول اللَّه ﷺ بناصيته أذل ما كان قط، حتى أدخله في العمل.

فقال له أصحابه: يا رسول اللَّه، هذه البهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن أحق أن نسجد لك.

فقال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه.

أخرجه الإمام أحمد[١] وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد.

١٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا ذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعد الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي اللَّه تنزع مني رزقاً ساقه اللَّه إليَّ.

فقال الراعي: يا عجبي، ذئب يكلمني كلام الإنس.

(١) (٣/ ١٥٩).

فقال له الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق.

قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه، حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها[١] ثم أتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره، فأمر رسول اللَّه ﷺ فنودي: الصلاة جامعة.

ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم الراعي بما سمع من الذئب.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «صدق، والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشِراك نعله يخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

قال ابن كثير: أخرجه الإمام أحمد[٢] وهو إسناد على شرط الصحيح.

١٥) وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: إن رجلًا أكل عند رسول اللَّه ﷺ بشماله، فقال له صلوات اللَّه وسلامه عليه: كل بيمينك، قال: لا أستطيع.

قال: «لا استطعت»، ما يمنعه إلا الكِبْر، قال: فما رفعها إلى فيه. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[٣].

١٦) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رجلًا كان يكتب للنبي ﷺ، وكان قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران عزّ فينا، فكان رسول اللَّه ﷺ يملي عليه غفوراً رحيما فيكتب الرجل عليماً حكيما، فيقول له النبي ﷺ: اكتب كذا وكذا.

(١) الغنم.
(٢) (٣/ ٨٤).
(٣) (٢٠٢١).

قال: أكتب كيف شئت.

ويملي عليه عليماً حكيما فيكتب سميعاً بصيرا، فيقول: اكتب كيف شئت.

قال: فارتد ذلك الرجل عن الإسلام، فلحق بالمشركين، وقال للمشركين: أنا أعلمكم بمحمد، وإني كنت لا أكتب إلا ما شئت.

فمات ذلك الرجل، فقال النبي ﷺ: إن الأرض لا تقبله.

قال أنس: فحدثني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها ذلك الرجل فوجده منبوذاً[(١)].

فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل؟ قالوا: قد دفناه مراراً فلم تقبله الأرض.

قال ابن كثير: وهذا على الشرط الشيخين، أخرجه الإمام أحمد في مسنده[(٢)].

١٧) كذلك من دلائل نبوته ما وقع له عند أم معبد لما سألها: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم.

قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: أتأذنين أن أحلبها؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حَلْباً فاحلبها.

فدعا بها فمسح بيده ضرعها وسمّى اللّه ودعا لها في شاتها، فتفاجّت

(١) مطروحاً خارج الأرض.
(٢) (٣/ ١٢١).

عليه، ودرّت واجترت ودعا بإناء فحلب ثجاً حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم صلوات اللَّه وسلامه عليه.

فهذه بعض معجزات الرسول ﷺ قد نصّ الإمام النووي بشرحه على الإمام مسلم على أن معجزات النبي ﷺ تزيد على ألف ومئتين.

صفته الخَلْقِية ﷺ

١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل النبي ﷺ عليها يوماً مسروراً وأسارير وجهه تبرق. متفق عليه[١].

٢) عن امرأة من همدان قالت: حججت مع النبي ﷺ فرأيته على بعير له يطوف في الكعبة بيده محجن.

يقول أبو إسحاق السبيعي: شبهيه.

قالت: قمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله.

٣) وعن الرُّبَيّع بنت معوّذ قيل لها: صفي لنا رسول اللَّه ﷺ.

قالت: لو رأيته قلت الشمس طالعة[٢].

٤) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ رَبْعَة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق[٣] ولا

(١) رواه البخاري (٣٥٥٥)، ومسلم (١٤٥٩).
(٢) الدارمي (٦٠).
(٣) كريه البياض.

آدم، وليس بجعد قطط ولا بالسّبَط، بُعث على رأس أربعين سنة، وتوفي وهو ابن ستين سنة وليس في رأسه ولا لحيته عشرون شعرة بيضاء. متفق عليه(١)، والصحيح أنه توفي عن ثلاث وستين سنة.

٥) وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ضليع الفم(٢) أشكَل العينين(٣) منهوس العقبين(٤). أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(٥).

٦) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وقد سئل عن شعر النبي ﷺ قال: كان لا سبط ولا جعد بين أذنيه وعاتقه. متفق عليه(٦).

٧) وقال كذلك كان شعر رسول اللّه ﷺ يضرب منكبيه. أخرجه مسلم(٧). وفي رواية أنه كان إلى أنصاف أذنيه(٨).

٨) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين يبلغ شعره شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً أحسن منه. متفق عليه(٩).

٩) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما مسست بيدي ديباجاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كف رسول اللّه ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من ريح

---

(١) رواه البخاري (٣٥٤٧)، ومسلم (٢٣٤٧).
(٢) عظيمه.
(٣) طويل شق العين.
(٤) قليل لحم العقب.
(٥) (٢٣٣٩).
(٦) رواه البخاري (٥٩٠٥)، ومسلم (٢٣٣٨).
(٧) (٢٣٣٨/ ٩٥).
(٨) مسلم (٢٣٣٨/ ٩٦).
(٩) رواه البخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧).

رسول اللَّه ﷺ. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[١].

١٠) لما قيل لأم معبد صفي لنا رسول اللَّه ﷺ قالت: رجل ظاهر الوضاءة، أبلج [٢] الوجه، حسن الخَلْق، لم تُعبْه فَجْلة[٣]، ولم تزرِ به صعلة[٤]، وسيم قسيم[٥]، في عينيه دعج وفي أشفاره وطف[٦] وفي صوته صحل[٧] وفي عنقه صطع[٨]، وفي لحيته كثافة، أزج[٩]، أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاهم من قريب، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا يائس من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين فهو أنظر الثلاثة منظرا[١٠]، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفّون به، وإن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محمود محشود لا عابس ولا مهند.

وهنا يأتي حديث: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي».

فرؤية النبي ﷺ في المنام لا يترتب عليها شيء من الأحكام إلا أن المسلم

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).
(٢) لقاء ما بين الحاجبين.
(٣) ليس بنحيف.
(٤) رأسه ليس بصغير.
(٥) جميل.
(٦) طويلة.
(٧) بحّة.
(٨) طول.
(٩) الحاجب الرقيق في الطول.
(١٠) النبي ﷺ وأبو بكر، عبد اللَّه بن أريقط.

يفرح بذلك قال الإمام أحمد: رؤيا المؤمن تسره ولا تغره، ولكن الذي يجب أن نتنبه إليه ألا وهو: قوله: «إن الشيطان لا يتمثل بي». أي بصفته المعروفة فلا يمكن لأحد أن يجزم أنه رأى النبي ﷺ وهو لا يعرف صفته الخَلقية صلوات اللَّه وسلامه عليه.

أخلاقه ﷺ

قال القاضي عياض: إذا كانت خصال الكمال والجمال ووجدنا الواحد منا يشرف بواحدة منها أو باثنتين إن اتفقت له بكل عصر، إما من نسب أو جمال أو قوة أو علم أو حلم أو شجاعة أو سماحة، حتى يعظم قدره ويضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أَسَرَة وعظمة، وهو منذ عصور خوال رمم بواد (أي لا أحد ينظر إليه قبل ذلك)، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عد ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة والاصطفاء.

كان صلوات اللَّه وسلامه عليه خُلُقُه القرآن، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان خُلُقُه القرآن(١).

وقال جل وعلا عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٢).

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٩١).
(٢) رواه أحمد (٢/ ١٨٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ أحسنهم خلقاً. متفق عليه(١).

وهذا عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه يقول: لما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت بأن وجهه ليس بوجه كذاب(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خيّر رسول اللَّه ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم اللَّه فينتقم للَّه بها. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما(٣).

وقالت: ما ضرب رسول اللَّه ﷺ بيده شيئاً قط لا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل اللَّه، ولا نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك من محارم اللَّه فينتقم منه. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمته ﷺ عشر سنين فواللَّه ما قال لي أف قط، ولا قال لي فيما فعلته لم فعلت هذا؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا. أخرجه الإمامان البخاري ومسلم(٥).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس خُلُقا(٦).

---

(١) رواه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (١٣٣٧).
(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥).
(٣) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٤) (٢٣٢٨).
(٥) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).
(٦) رواه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (١٣٣٧).

وعن أنس قال: كان رسول اللَّه ﷺ أجود الناس وأشجع الناس. متفق عليه[١].

وهذا عبداللَّه بن عمر رضي الله عنه يقول: إن رسول اللَّه ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً وأنه كان يقول: خياركم أحسنكم أخلاقا. متفق عليه[٢].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول اللَّه ﷺ أشد حياءاً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه. متفق عليه[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرد غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذاً شديداً حتى نظرت إلى صفحة عاتقه قد أثرت به حاشية البرد، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال اللَّه الذي عندك.

قال: فالتفت إليه النبي ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء. متفق عليه[٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا صافحه الرجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع، وإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف، ولم يُر مقدماً ركبته بين يدي جليس له[٥].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول اللَّه ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهوات إنما كان يتبسم. متفق عليه[٦].

وقال سماك: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٢) رواه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).
(٣) رواه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٤) رواه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).
(٥) رواه البخاري (٢٤٩٠).
(٦) رواه البخاري (٤٨٢٨)، ومسلم (٨٩٩).

كثيرا، كان لا يقوم من مصلاه حتى تطلع الشمس، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(١).

وعن جابر رضي الله عنهما قال: لم يُسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قط فقال: لا. متفق عليه(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان. متفق عليه(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان في بيته يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته. أخرجه أحمد(٤) وصححه الألباني. فهذه بعض أخلاقه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

عبادته صلى الله عليه وآله وسلم

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم حتى تورمت قدماه فقيل: يا رسول اللَّه، أليس قد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكورا. متفق عليه(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وكان لا تشاء تراه من الليل قائماً إلا رأيته، ولا تشاء تراه نائماً إلا رأيته(٦).

---

(١) (٦٧٠).
(٢) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٣) رواه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٤) رواه أحمد (٦/ ١٠٦).
(٥) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).
(٦) رواه البخاري (١١٤١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حتى أصبح يقرأ هذه الآية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨](١).

وقال صلوات اللّه وسلامه عليه: إني لأستغفر اللّه وأتوب إليه في كل يوم مئة مرة(٢).

جوده وكرمه ﷺ

حدّث عن البحر ولا حرج، قال جابر رضي الله عنه: ما سئل النبي ﷺ عن شيء فقال: لا. أخرجه البخاري ومسلم(٣).

وعن ابن عباس قال رضي الله عنه: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير. متفق عليه(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: إن رجلًا سأل النبي ﷺ فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى بلده وقال: أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر(٥).

وأعطى مئة من الإبل لأكثر من واحد، وقد قالت خديجة رضي الله عنها تصفه: إنك تحمل الكلّ، وتُكسب المعدوم.

وردّ على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف.

وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله.

ما قال لا قَطُّ إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

(١) رواه النسائي (١٠٠٩)، وابن ماجه (١٣٥٠) وحسنه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).
(٣) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٤) رواه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٥) رواه أحمد (٣/ ٢٨٤).

شجاعته وهيبته ﷺ

عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: إني لأضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي: اعلم أبا مسعود قال: فجعلت لا ألتفت إليه من الغضب حتى غشيني[1]، فإذا هو رسول اللَّه ﷺ، فلما رأيته وقع السوط من يدي من هيبته فقال لي: واللَّه، للَّه أقدر عليك منك على هذا.

فقلت: يا رسول اللَّه، لا أضرب غلاماً لي أبدا. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[2].

وعن علي رضي الله عنه قال: كنا إذا احمر البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول اللَّه ﷺ فما يكون منا أحد أقرب إلى القوم منه. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[3].

فقد ثبت صلوات اللَّه وسلامه عليه يوم أحد ويوم حنين. قد مرّ ذكر ذلك في غزواته.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ أجمل الناس وجهاً، وأجودهم كفاً، وأشجعهم قلبا، وخرج يوماً وقد فزع أهل المدينة فركب فرساً لأبي طلحة عُرياً[4] ثم رجع وهو يقول: لن تراعوا لن تراعوا[5].

* * *

(١) وصلني.
(٢) (١٦٥٩).
(٣) (١٧٧٦/٧٩).
(٤) من غير سرْج.
(٥) البخاري (٦٠٣٣).

حلْمُه ﷺ

لمّا أوذي من أهل مكة قيل له: لو دعوت عليهم.

قال: إني لم أبعث لعّاناً، ولكني بُعثت داعياً ورحمة، اللَّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

قال القاضي عياض: انظر في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحِلْم، إذ لم يقتصر صلوات اللَّه وسلامه عليه على السكوت حتى عفا عنهم وأشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم صلوات اللَّه وسلامه عليه.

ولما جاءه غورث بن الحارث ليفتك به ورسول اللَّه ﷺ نائم تحت الشجرة وحده، فلم ينتبه النبي ﷺ إلا وغورث معه السيف صلتاً يقول لنبي اللَّه ﷺ: من يمنعك مني؟ فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: اللَّه.

فسقط السيف من يده فأخذه النبي ﷺ فقال له: «من يمنعك مني؟» قال: كن خير آخذ. فتركه صلوات اللَّه وسلامه عليه، وعفا عنه، فرجع الرجل إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وجيء إليه برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك.

فقال له النبي ﷺ: «لن تراع، لن تراع، ولو أردت ذلك لم تسلط علي»(١).

وكذلك لما جاءه أبو سفيان بن الحارث وكان قد أغضب النبي ﷺ لما هجاه، فقال له النبي ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللَّه لكم وهو أرحم الراحمين».

وشهد له أبو سفيان بن حرب لما قال له: ما أحلمك وأوصلك وأكرمك.

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

حياؤه ﷺ

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا، ينهى عنه ولا يسمي فاعله. أخرجه أبو داود(١) وصححه الألباني.

وقالت عائشة: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح أخرجه الترمذي وصححه الألباني(٢).

زهده ﷺ

عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول اللَّه ﷺ، فإذا هو مضطجع على حصير فأدنى إليه إزاره وجلس، وإذا الحصير قد أثر بجنبه فقلّبْت عيني في خزانة رسول اللَّه ﷺ(٣) فإذا ليس فيها شيء من الدنيا غير قبضتين من شعير، وقبضة من قرض نحو الصاعين، فدمعت عيناي فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟».

قلت: يا رسول اللَّه، وما لي لا أبكي، وأنت صفوة اللَّه ورسوله وخيرته

(١) (٤٧٨٨).
(٢) (٢٠١٦).
(٣) في بيته.

وهذه خزانتك، وكسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت هكذا.

فقال: «يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا».

قلت: بلى يا رسول اللَّه .

قال: «فاحمد اللَّه». أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[١].

وعن أنس قال: دخلت على النبي ﷺ وهو على سرير مرمول بشريط[٢] وتحت رأسه مرفقة حشوها ليف، فدخل عليه ناس من أصحابه فيهم عمر فأعوج النبي ﷺ إعوجاجاً[٣]، فرأى عمر أثر الشريط على النبي ﷺ فبكى، فقال النبي ﷺ: ما يبكيك؟ قال: كسرى وقيصر يعيثان فيما يعيثان فيه وأنت على هذا السرير.

فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: بلى.

قال: فهو واللَّه كذلك.

قال الحافظ الذهبي إسناده حسن[٤].

وعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر بجلده فجعلت أمسحه عنه وأقول: بأبي وأمي ألا آذنتنا فنبسط لك، فقال: ما لي وللدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

قال الحافظ الذهبي هذا حديث حسن[٥] قريب من الصحة.

---

(١) (١٤٧٩).

(٢) مربوط بسعف.

(٣) قام عنه.

(٤) رواه أحمد (٣/ ١٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: لو أن لي مثل أحد ذهباً ما يسرني أن تأتي علي ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لديْني. أخرجه البخاري[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتا». أخرجه البخاري ومسلم[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع رسول اللّه ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُرٍّ حتى توفي. أخرجه الإمام مسلم[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنا يمر بنا الهلال والهلال والهلال ما نوقد بنار لطعام إلا أنه التمر والماء. إلا أن حولنا أهل دور من الأنصار فيبعثون بغزيرة الشاء إلى النبي ﷺ، فكان النبي ﷺ يشرب من ذلك اللبن، أخرجه أحمد[(٤)].

وقالت: ما شبع رسول اللّه ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبِض. أخرجه مسلم[(٥)].

وقالت: كان فراش رسول اللّه ﷺ من أدم حشوه ليف. متفق عليه[(٦)].

هذا هو رسول اللّه ﷺ في زهده وماذا نقول نحن عن حياتنا، ما نأكل! وما نشرب! وما نلبس! وما ننام عليه! ما نقول إلا اللّه المستعان.

* * *

(١) (٢٣٨٨).
(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).
(٣) (٢٩٧٠).
(٤) (٦/١٠٨).
(٥) (٢٩٧٠).
(٦) رواه البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢).

مزاحه ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول اللَّه، إنك تداعبنا.

قال: إني لا أقول إلا حقا. أخرجه الترمذي[١] وصححه الألباني.

وعن أنس رضي الله عنه قال: استحمل أعرابي رسول اللَّه ﷺ[٢].

فقال النبي ﷺ: أنا أحملك على ولد الناقة.

فقال الأعرابي: وما أصنع بولد الناقة يا رسول اللَّه؟!.

فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق. قال الإمام الذهبي حديث صحيح غريب[٣].

ظن الأعرابي أنه سيعطيه ولد الناقة الحوار الصغير.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سابقني النبي ﷺ فسبقته، ما شاء اللَّه حتى إذا رهقني اللحم سابقني فسبقني.

فقال: هذه بتلك. قال الإمام الذهبي حديث صحيح[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يدلع لسانه للحسين فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش إليه، فقال له عيينة بن بدر: ألا أراك تصنع هذا، فواللَّه إني ليكون لي ولد قد خرج وجهه ما قبلته قط.

---

(١) (١٩٩٠)

(٢) قال: أعطني ما يحملني.

(٣) رواه أبو داود (٤٩٩٨).

(٤) رواه أحمد (٦/ ٣٩).

فقال النبي ﷺ: من لا يَرحم لا يُرحم. أخرجه البخاري[١].

وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه خرج تاجراً إلى بُصرى قبل موت النبي ﷺ بعام أو عامين، ومعه نعيمان وسويبق بن حرملة وهما بدريان كان سويبق على زادهم فجاء نعيمان فقال: أطعمني.

قال: لا، حتى يأتي أبو بكر.

وكان نعيمان مزّاحاً فقال: لأبيعنّك.

ثم أتى أناساً فقال لهم: ابتاعوا مني غلاماً، ولكنه رجل ذو لسان، لعله يقول أنا حر فإن كنتم تاركيه إذا قال ذلك فدعوني ولا تفسدوا عليّ غلامي.

قالوا: لا، بل نبتاعه.

فباعه بعشر قلائص[٢]، ثم جاءهم فقال: هو ذا.

فقال سويبق: هو كاذب، أنا رجل حر.

قالوا: قد أخبرنا بخبرك.

وطرحوا الحبل عليه وربطوه وأخذوه.

فجاء أبو بكر فأخبروه فذهب وأصحاب له فردوا القلائص وأخذوا سويبقا، فضحك النبي ﷺ. قال الإمام الذهبي حديث حسن[٣].

وليس فيه كذب لأنه قال: أبيعكم رجلًا، فلم يقل لهم عبدي.

---

(١) (٥٩٩٧).
(٢) نوق.
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣١٦).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي النبي ﷺ هدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ وقال: إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضرته.

وكان هذا الرجل دميماً فأتاه النبي ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره.

فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت وعرف النبي ﷺ وجعل الرسول ﷺ يقول: من يشتري مني العبد؟ فقال: يا رسول اللَّه، إذا واللَّه تجدني كاسدا.

قال: ولكنك عند اللَّه غالي.

قال الإمام الذهبي حديث صحيح غريب[١].

وعن جرير قال: ما حجبني الرسول ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم. أخرجه البخاري في صحيحه[٢].

هذا مزاحه ﷺ وهو لا ينافي النبوة والهيبة التي له ﷺ.

مَنْطِقُه ﷺ

كان أفصح خلق اللَّه، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداءاً، وأحلاهم مَنْطِقا، حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ويسبي الأرواح.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما كان رسول اللَّه ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكن كان

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦١).
(٢) (٣٠٣٥).

يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه، وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليُعقَل عنه، وكان إذا سلّم سلّم ثلاثاً، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ويتكلّم بجوامع الكَلِم، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كَره شيئاً عُرِف في وجهه، ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخّابا، وكان جُلّ ضحكه التبسم بل كله التبسم فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه.

بكاؤه ﷺ

كان بكاؤه من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمل، ويسمع في صدره أزيز.

وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية اللَّه، وتارة عند سماع القرآن، ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى صلوات اللَّه وسلامه عليه، وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى عندما قرأ عليه عبداللَّه بن مسعود سورة النساء، وصلى صلاة الخوف وبكى.

صفته ﷺ في التوراة والإنجيل

قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وقال جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا

عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومع التحريف والتبديل والتغيير فما زلنا نجد صفة واسم رسولنا محمد ﷺ في التوراة والإنجيل.

صفاته في الإنجيل:

إنجيل متّى:

في إنجيل متّى في الإصحاح الخامس عشر ما يدل على أن عيسى مرسل إلى بني إسرائيل خاصة.

قال: لم أرسل إلا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة.

وفي الإصحاح الحادي عشر «لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبؤوا وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتي من له أذنان للسمع فليسمع».

وإيلياء هو أحمد صلوات اللَّه وسلامه عليه، وعرفنا ذلك عن طريق حروف أبجد هوّز لأن أبجد هوّز أحرف تدل على أرقام «أبجد هوّز حطي كلمن شعفص قرشت ثخذ ضظغ

أ = ١ ب = ٢ ج = ٣ د = ٤ هـ = ٥ و = ٦ ز = ٧ ح = ٨

ط = ٩ ي = ١٠ ك = ٢٠ ل = ٣٠ م = ٤٠ ن = ٥٠

س = ٦٠ ع = ٧٠ ف = ٨٠ ص = ٩٠ ق = ١٠٠ ر = ٢٠٠

ش = ٣٠٠ ت = ٤٠٠ ث = ٥٠٠ خ = ٦٠٠ ذ = ٧٠٠

ض = ٨٠٠ ظ = ٩٠٠ غ = ١٠٠٠».

فأبجد: الألف رقم واحد والباء رقم اثنين والجيم ثلاثة وهكذا، حتى

ينتهي بعد ذلك إذا وصل الحرف إلى رقم عشرة فينتقل بعد ذلك إلى عشرين، ثلاثين، أربعين، خمسين، إلى مئة ثم ينتقل إلى المئات وهكذا، فإيليا على حساب أبجد هوز: الألف: واحد / والياء عشرة / واللام ثلاثون/ واليا عشرة / والألف واحد/ يساوي: ثلاثة وخمسين.

وأحمد الألف واحد/ والحاء ثمانية / والميم أربعون / والدال أربعة / يساوي: ثلاثة وخمسين.

إنجيل يوحنا:

في الإصحاح الرابع عشر، قال عيسى: إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد وهو روح الحق.

وكلمة المعزي هي تعريف وإن شئت قل تحريف لكلمة بارقليطوس وهي كلمة يونانية معناها كثير الحمد أي محمد ﷺ.

وكنا قد ذكرناه سابقاً في قصة إسلام عبداللّه المايورقي في قصة وفد نجران عام الوفود سنة ٩ هـ.

صفاته في التوراة:

جاء في التوراة في أشعياء الإصحاح الثاني والأربعون: «هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق للأرض وتنتظر الجزائر شريعته».

فبالطبع ليس بعيسى لأنه لم تكن له شريعة خاصة، وإنما كان متمماً لشريعة موسى عليه السلام، وأما قوله لا يصيح ولا يسمع في الشارع صوته

فهذا مصداق قول عائشة: لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة(١).

سِفْرْ التثنية:

في الإصحاح الثالث والثلاثين، قال موسى: جاء الرب من سيناء [بلد موسى]، وأشرق من سعير [موطن عيسى]، وتلألأ من جبل فاران (هي مكة)، وهذه شبيهة بقول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣]، فالتين والزيتون هي بلد عيسى فلسطين وطور سينين هي بلد موسى مصر، والبلد الأمين بلد محمد ﷺ مكة.

إن فاران هي التي سكنها إسماعيل عليه السلام وهذا في الإصحاح الحادي والعشرين وإسماعيل إنما سكن في مكة.

وقال: لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار [وهو ولد إسماعيل عليه السلام] هذا في الإصحاح الخامس والعشرين.

قال: لتترنّم سكان سالع [وهو جبل في المدينة، وهي جبال سَلَع] من رؤوس الجبال.

وفي قصة إسلام سلمان الفارسي قال عن نفسه: أنه كان قد رحل في طلب الحق إلى الشام، ثم إلى الموصل ثم إلى نصيبين ثم إلى عمّورية فلما احتُضِر الأسقُف هناك قال له سلمان: إلى أين؟ [أي إلى من أذهب؟] قال: يا بني، واللَّه ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلّك زمان نبي يبعث في الحرم، مهاجره بين حرّتين إلى أرض سبخة ذات نخل،

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٦) وصححه الألباني.

وإن فيه علامات لا تُخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل إنه قد أظلّك زمانه، فكان رسول اللَّه ﷺ[1].

هذا هو سيد البشرية صلوات اللَّه وسلامه عليه، وخليل الرحمن جل وعلا نسأل اللَّه تبارك وتعالى أن يحشرنا تحت لوائه وبين يديه صلوات اللَّه وسلامه عليه.

آمين ، آمين، آمين.

واللَّه أعلى وأعلم، وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا محمد.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٤).

الفهرس